الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء الثانی و العشرون

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 5

الجزء الثاني و العشرون‏

سورة الشعراء مكيّة و آياتها سبع و عشرون و مائتان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 7

[سورة الشعراء (26): الآيات 1 الى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

طسم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ (4)

وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (6) أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 8

تتسمى هذه السورة ب «الشعراء» إذ تحمل آية الشعراء، تنديدا بالذين يتبعهم الغاوون، حيث ينبع الشعر من الخربطة و الغواية، و يستخدم للإغواء و الضلالة و ما أكثره! ثم و تمجيدا بالذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات حينما الشعر ينبع من الايمان و يستخدم لعمل الايمان، و ما أقله!.

الشعراء هي من الطواسين الثلاث‏ «1» المتشابهة في هذه الافتتاحية، إلّا ناقص الميم في النمل.

و هيكل السورة هو السرد القصصي الشاغل جوّها في ثمانين و مائة آية، و الباقية من آياتها هي كمقدمات و تعقيبات، و الكل تؤلّف وحدة متناسقة متجاوبة تلتقي عند هدف واحد و اتجاه فارد هو تصحيح العقيدة بزواياها الثلاث:

المبدء و المعاد و ما بين المبدء و المعاد: من الوحي بنازله و منزله، ناضرة ناظرة إلى الرسالة الموسوية في البداية، ناحية- في ذلك التأشير العشير- منحى الرسالة المحمدية السامية، فقد يصدّق ما

يروى عن رسول الهدى (ص) «و أعطيت طه و الطواسين من ألواح موسى» «2»

أوان «الطاء» هي طور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 45 في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: من قرأ سور الطواسين الثلاث في ليلة الجمعة كان من أولياء اللَّه في جواره و كنفه و لم يصبه في الدنيا بؤس أبدا و أعطي في الآخرة من الجنة حتى يرضى و فوق رضاه و زوجه اللَّه مأة من الحور العين،

و

في المجمع أبي بن كعب قال: قال رسول اللَّه (ص) من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل من صدق بنوح و كذب به و هود و شعيب و صالح و ابراهيم و بعدد كل من كذب بعيسى و صدق بمحمد (ص).

(2)

نور الثقلين 4: 45 عن كتاب ثواب الأعمال عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه (ص) قال‏ قلت لجعفر بن محمد عليهما السلام يا ابن رسول اللَّه (ص)، معنى قول اللَّه عز و جل «طس و طسم»؟ قال: و اما «طس» فمعناه أنا الطالب السميع و أما «طسم» فمعناه انا الطالب السميع المبدئ المعيد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 9

سيناء- أم شجرة طوبى، و السين: سدرة المنتهى، و الميم محمد المصطفى» «1» مما يجمعه أن:

«طسم» «2» خطاب للرسول الأقدس محمد (ص) فان شجرة طوبى المتشجرة عن روحه القدسية كل الطوباويات الرسالية، و هو الناحي منحى السدرة المنتهى، إذ كان من ربه قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى، فهو منتهى السدرة الرسالية معرفية و في التقوى أمّا هيه، كما و أنها من أسماء اللَّه الحسنى و الرسول (ص) نفسه القدسية منها بأعلى قمتها، و كما

يروي‏ «نحن الأسماء الحسنى»

فكما ان للَّه اسماء ذاتية هي صفاته الذاتية الثلاث، و من ثم فعلية هي فاعلياته الخلقية، كذلك له اسماء عينية تدل عليه هي الحقائق الآفاقية و محمد (ص) في أعلى قممها! و قد يلوح اليه ظاهر الخطاب من الآيات التالية لها، طسم‏ إذا- تعني محمدا (ص) الطوبى و السدرة المنتهى، كما تعني بضمنه طور سيناء حيث الآيات الآتية تتحدث عن صاحبها موسى (عليه السلام).

و كما أن لمعانيها معالي، كذلك لرسمها و ألفاظها مجالي ترسمها روايات عن المصطفى (ص) «3» و إن للقرآن ككلّ جلوات في مختلف المجالات، محلّقة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر

روى عن ابن الحنفية عن علي (ع) عن النبي (ص) لما نزلت «طسم» قال:

الطاء طور سيناء. و قال الطاء شجرة طوبى ...

(2) و في تفسير البرهان 3: 179 ابن عبد اللَّه في معاني الأخبار بسند متصل عن سفيان بن سعيد الثوري أقول: و قد يعني انها صورة عن السيرة الموسوية الموحاة اليه في الألواح، لا أنها هي، حيث التعبير القرآني، بما يحويه هو منقطع النظير عن كل سفر لكل بشير و نذير!.

(3)

تفسير البرهان 3: 138 ابن بابويه قال رسول اللَّه (ص) من أدمن قرائتها لم يدخل بيته‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 10

في إنارتها و إدارتها كل دوائر الكون تكوينيا و تشريعيا، كيف لا؟ و هي نازلة بعلم اللَّه، حاملة كل رحمات اللَّه! ثم و في‏ طسم‏ رموز غيبية لم يكشف لنا عنها النقاب، فانها بسائر الحروف المقطعة مفاتيح كنوز القرآن، لا يعرفها حق معرفتها إلّا من خوطب بها، و المذكورة منها هنا بسناد روايات في شأنها لا تصدّق تماما و لا تكذّب، لأنها ليست قطيعة الصدور و لا الاختلاق، اللهم إلّا نفس الخطاب المستفاد من الكتاب، انه (ص) هو المخاطب ب طسم‏ فتصبح تلك الروايات قريبة التصديق، فواجهة الخطاب فيها هي الرسول (ص) و من يحذو محذاه و ينحو منحاه.

و لماذا تذكر هذه الحروف في القرآن البيان، هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان، إذا لم يكن فيها لهم بيان؟.

لأن القرآن بيان لجميع العالمين و منهم و في قمتهم رسول القرآن، فليختص به من ذلك البيان قسم من القرآن، مهما يعمه و المعصومين من عترته و هم مستمرون لحد الآن و إلى أن يقوم قائمهم، حيث يتمثلون فيه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

سارق و لا حريق و لا غريق و من كتبها و شربها شفاه اللَّه من كل داء و من كتبها و علقها على ديك ابيض أفرق فإن الديك يسير و لا يقف إلا على كنز أو سحر و يحفره بمنقاره حتى يظهره. و فيه عن الصادق (ع) من كتبها و علقها على ديك ابيض أفرق و أطلقه فإنه يمشي و يقف موضعا حيث ما يقف فانه يحفر موضعه فيه يلقى كنز أو سحر مدفون و إذا علقت على مطلقة يصعب عليها الطلاق و ربما خيف فليتق فاعله فإذا رش ماؤها في موضع خرب ذلك الموضع بإذن اللَّه تعالى.

أقول: قصة الديك مشكوكة الصدور عن الرسول (ص) حيث التجربة الواقعية لا تصدقها تماما فليرجع علمه إلى قائله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 11

كلهم، فليكن له نصيب في هذا الإختصاص.

و إن لسائر العالمين منها نصيب على أقدارهم و قدراتهم المعرفية في زوايا ثلاث ثالثتها ما قد يتنبّه لها الذين يأتون بعدنا فان «للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن».

تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2).

«تلك» النازلة عليك من قبل و التي تنزل عليك الآن و من بعد، فهي هي النازلة عليك في مثلث زمن الرسالة القرآنية بعهديها المكي و المدني، «تلك» ككلّ هي‏ «آياتُ الْكِتابِ»: القرآن، فهو الكتاب المفصل و هذه أبعاض الآيات إضافة للآيات إلى أنفسها: الكتاب، اعتبارا لها أبعاضا منفردات و له مجموعا يحويها، كما يقال أبعاضي، و إجزاء الدار.

«المبين» ما يحق إبانته من الحق المرام، أنها من آيات اللَّه دونما اختلاق إذ ليس فيها اختلاف، و أنها تبين احكام الفطرة و العقل و الشرعة، و تبين الآيات في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق من ربهم، فلا قصور- إذا- في إبانته ما يبين و لا تقصير، مهما قصروا هم أولاء أو قصّروا بجنبه.

و قد لا يعني‏ «الْكِتابِ الْمُبِينِ» ما كان لدى اللَّه قبل إنزاله أو تنزيله: «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ»، فلمن هو- إذا- مبين؟ و لا المنزل على الرسول ليلة القدر فانه ليس مبينا إلّا له، اللهم إلّا ان يعنى المبين له اجمالا عن المفصل، و هذه هي آياته المفصلات حيث الكتاب يبين فيها معارفه تفصيل البيان و الإبانة عن أيّ كان.

ف «تلك» إذا تعني كل القرآن المفصل، فانه آيات الكتاب المحكم النازل على الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم). و قد يعني‏ «الْكِتابِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 12

الْمُبِينِ» القرآن ككل، و «آياتُ الْكِتابِ» أبعاضه.

أم و يعني ام الكتاب عند اللَّه فانه بشأن الإبانة للرسول و للأمة، فهو مبين بعلاقة الأول.

و علّ الثلاثة كلها معنية، فهذه الآيات المفصلات، هي آيات القرآن المفصل، و هي- ككل- آيات القرآن المحكم المنزل الى الرسول ليلة القدر، و هي آيات ام الكتاب. و الكل هي آيات ام الكتاب المقدر نزوله للمكلفين الى يوم الدين دون زيادة أو نقيصة.

فالقرآن حجة كافية و آية وافية تبين الحقائق لكل العقول و في كل الحقول، لمن ألقى السمع و هو شهيد، كما و ان نبي القرآن حجة صافية ضافية يتبنى حجة القرآن، حجتان بارعتان تحلّقان على كافة الحجج دون قصور و لا تقصير، فلما ذا إذا البخوع؟:

لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3).

البخع هو قتل النفس غمّا، و لَعَلَّكَ باخِعٌ .. توحي بمدى اهتمام الداعية الرسالية في حمل الناس على الايمان و لمّا يسطع- و لن- إلا ما شاء اللَّه، فحين لا يحملهم الكتاب المبين على الايمان لعتوّهم و تصلّبهم على اللّاإيمان، كذلك- و باحرى- ليس ليحملهم الرسول المبين على الايمان بنفس السند فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى‏ آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (18: 6) .. أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ‏.

و «لعل» هنا حكاية لحال الترجي لو بقيت حالته كما هي، و الأصل في الدعوة هو تأثيرها ببقاء الداعية، و أما أن تبخع نفس الداعية دونما تأثير للدعوة فهو دعوة فاضية بدل ان تكون فائضة!.

إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 13

خاضِعِينَ (4).

صيغة التعبير عن الآية الرسالية التي هي لزامها «نشأ ان ننزل آية» و عن الآية المستحيلة المقترحة «إِنْ نَشَأْ» ف «إن» هنا دون «لو» توحي بامكانية هذه المشيئة وقوعيا، أن تتحقق حالا أو استقبالا، و من الثاني آية قيام المهدي عجّل اللَّه تعالى فرجه حيث تخضع أعناقهم‏ «1».

إنه تعالى لا يشاء مبدئيا أن ينزّل عليهم من السماء آية بعد آية القرآن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 46 في ارشاد المفيد وهب بن صفي عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد اللَّه (ع) يقول‏ في الآية سيفعل اللَّه ذلك بهم، قلت و من هم؟ قال: بنو أمية و شيعتهم، قلت: و ما الآية؟ قال: ركود الشمس ما بين زوال الشمس إلى وقت العصر و خروج صدر و وجه في عين الشمس يعرف بحسبه و نسبه و ذلك في زمان السفياني و عندها يكون بواره و بوار قومه،

و

في روضة الكافي بسند عن عمر بن حنظلة قال سمعت أبا عبد اللَّه (ع) يقول: خمس علامات قبل قيام القائم (ع) الصيحة و السفياني و الخسفة و قتل النفس الزكية و اليماني، قلت: جعلت فداك إن خرج أحد من أهل بيتك قبل هذه العلامات أ نخرج معه؟ قال: لا- فلما كان من الغد تلوت هذه الآية: «إِنْ نَشَأْ ...» فقلت له: أ هي الصيحة؟ فقال: أما لو كانت خضعت أعناق اعداء اللَّه عز و جل،

و

في كتاب الغيبة للطوسي باسناده إلى الحسن بن زياد الصيقل قال: سمعت أبا عبد اللَّه جعفر بن محمد (عليهما السلام) يقول: إنّ القائم لا يقوم حتى ينادي مناد من السماء يسمع الفتاة في خدرها و يسمع أهل المشرق و المغرب و فيه نزلت هذه الآية: «إِنْ نَشَأْ ...»

و

في تفسير القمي عن أبي عبد اللَّه (ع) قال في الآية، تخضع رقابهم يعني بني امية و هي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر صلوات اللَّه عليه،

و

في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بسند متصل قال علي بن موسى الرضا (ع) في وصف القائم (غ) و هو الذي ينادي مناد من السماء يسمعه جميع أهل الأرض بالدعاء اليه يقول: ألا ان حجة اللَّه قد ظهرت عند بيت اللَّه فاتبعوه فان الحق و الايمان عند الأولى يفيد و هو عند الثانية غير مفيد لأنه ايمان عند رؤية البأس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 14

الباهرة الكافية «1» فإنه الآية الخالدة لهذه الرسالة المفتوحة للأمم بأسرها، فليست رسالة محدودة مغلقة على أهل زمان دون آخرين، و الآية القاهرة البصرية مهما عظمت و علت لا تلوي و تخضع إلّا أعناق المستكبرين زمنها حيث يشاهدونها، ثم تبقى بعدهم قصة تروى، و واقعا يشهد فيستشهد به لصدق الرسالة، فآية «إِنْ نَشَأْ» و هي غير محتومة تخضع أعناقهم شاءوا أم أبوا، و آية القرآن تهديهم إلى الحق‏ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ فآية التسيير محتومة، و آية التخيير غير محتومة.

و هذا القرآن كتاب مفتوح و آية خالدة تمشي مع الزمن، يستمد منها كل الأجيال طول الزمان و عرض المكان لكل جن و انسان، مستمرا برصيده لا ينفد، بل و يتجدد و لا يتبدّد أو يتلبّد و يتبلّد، فهو أمام كل حق جديد و إمام كلّ قديم و جديد، فطبيعته- إذا- هي طبيعة رسالته الدائبة، لا يحرم عن حجته أي ذي حجى، إلّا من تنازل عن حجاه، و تروى إلى رداه، إذا إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ‏.

و ترى كيف يصح «خاضعين» خبرا عن «أعناقهم»؟ علّه حال عن ضمير الجمع و الخبر المحذوف «خاضعة» فان خضوع أعناقهم من مظاهر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 46 في الكافي و روي ان امير المؤمنين (ع) قال في خطبة له: و لو أراد اللَّه حل ثناءه حيث بعثهم ان يفتح لهم كنوز الذهبان و معادن البلدان و مغارس الجنان و أن يحشر طير السماء و وحش الأرض معهم لفعل، و لو فعل لسقط البلاء و بطل الجزاء و اضمحل الابتلاء و لما وجب للقائلين أجور المبتلين و لا لحق المؤمنين ثواب المحسنين و لا لزمت الأسماء أهاليها على معنى مبين و لذلك لو انزل اللَّه من السماء آية فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ‏ و لو فعل لسقط البلوى عن الناس أجمعين ...»

أقول: «لو» هنا للتأشير الى القسم المستحيل من نزول آية معه و فيه و هو قول اللَّه عز و جل «ان نشأ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 15

خضوعهم في أنفسهم! أو أن «أعناقهم» تعني أعناق الأجساد إلى أعناق الأرواح، فهي اصول العقول! أم الأعناق هنا هم رؤساؤهم الأصلاء في الضلالة و الإضلال‏ «1»! أم هم جماعات منهم ضخمة هائلة! أو ان «أعناقهم» هي مربعة الأضلاع، تعنيها بأسرها.

و القرآن آية سماوية روحية نازلة من سماء الوحي، كافية لمن يعقل، و لكنهم قوم لا يعقلون، «نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ» المادية «آية» بصرية «فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ» شاءوا أم أبوا «لَها خاضِعِينَ».

وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5).

و هذه هي طبيعة هذا الجيل الصّلت من الناس النسناس أنهم لا يتذكرون بأي ذكر من الرحمن، بل هم عنه معرضون، إذ هم عنه عمون، فلما ذا- إذا «ننزل عليهم آية من السماء؟» اللهم إلّا عذابا و بلاء، فآية السماء المخضعة الأعناق، هي للمؤمنين نور على نور، و للمعاندين نار على نار، فحين تظل أعناقهم لها خاضعين ليسوا ليؤمنوا بها، و لو آمنوا فهو إيمان عند رؤية البأس ليس ليفيدهم، فليس اللَّه- إذا- لينزل عليهم آية من السماء بعد آية القرآن، حجة بعد حجة، و إنما لجة غارقة، أو نار حارقة.

و «محدث» تعني فيما تعنيه أن ذكر الرحمن محدث أيا كان، إذا فكلام الرحمن محدث، و ما اسطورة القدم في كلام اللَّه قرآنا و سواه إلّا هرطقة هراء مهما سمي به علم الكلام.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هذا الأخير يناسب زمن الرجعة حيث يرجع فيها من محض الكفر محضا، و هم أعناق الضلالة و اساطينها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 16

«ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ» أيا كان هو فعله، و ليس ذاته أو من صفات ذاته حتى يكون قديما أزليا، فلا ذكر إلّا لمتذكر، ليس قبله و لا بعده، فكما المتذكر خلق محدث، كذلك الذكر خلق محدث.

و «محدث» لها واجهة ذاتية هي الحدوث الذاتي فيشمل كل ذكر من الرحمن، و أخرى نسبية تعني الحادثة الجديدة بعد القديمة، فهؤلاء يرفضون محدث الذكر من الرحمن مخلدين إلى قديمه أيا كان، كإخلاد أهل التوراة إلى التوراة رفضا لما بعدها، و إخلاد أهل الإنجيل إلى الإنجيل رفضا للقرآن، رغم أن الجديد من الرحمن كما القديم، و في الجديد تجديد و تقديم إلى ما ليس في القديم! و الذي يعرض عن محدث الذكر هو- بطبعه- معرض عن قديمه مهما ترائى انه مقبل إليه.

و قد يشمل «محدث» أصله قديما و حديثا، كما يشمل حديثه، فذكر الرحمن سلسلة موصولة أخراها إلى أولاها، و الإعراض عن جانب منها اعراض عنها كلها.

و قد يعنى من «ذكر محدث»- فيما تعنيه- آي الذكر الحكيم التي تترى عليهم تلو بعض و لصق بعض، بل هو أهمّ الذكر و أتمه، و سائر الذكر توطئة له و تعبيد طريق! ..

أم ان «ذكر محدث» تحلّق على كل ذكر آفاقي و أنفسي‏ «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ...».

و لماذا «ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ» و الذكر رحمة رحيمية أيا كان؟ علّه لأن الذكر هو قضية الرحمة العامة حيث تعم كافة الآهلين له من أمن منهم و من كفر، و من ثمّ هو لمن آمن رحمة رحيمية.

«ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ» ككل هو رحمة رحمانية حيث يعم المتذكر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 17

و المعرض، و هو لمن يتذكر رحمة رحيمية.

فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (6).

«فَقَدْ كَذَّبُوا» بكل ذكر من الرحمن محدث أم أي ذكر «فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا»: أخبار هامة «ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» يوم الدنيا كآية مخضعة لها، إن في الرجعة أم قبلها، أو يوم البرزخ و الأخرى حيث يتجسد فيها ذلك التكذيب الكذيب‏ «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»؟.

أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7).

ألم يروا إلى ما خلق اللَّه من شي‏ء «أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ» فالواو هنا تعطف إلى آية البصيرة «مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ» فان لم يتبصروا بها فليبصروا إلى آية حسية هي الأرض بنباتاتها من كل زوج كريم، فالزوجية التي هي لزام الأرض باشياءها دليل الحاجة إلى الخالق الفرد الأحد، و مختلف اشكال أزواجها دليل على التصميم و وحدته.

فهذه الأرض التي يعيشون عليها، أم و سائر السبع مهما تطلبت الرؤية إليها أسفارا جوية «كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» من جماد و نبات و حيوان و من إنس و جان،: «وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً» فكل شي‏ء من كائنات العالم أرضية و سماوية زوج، مهما اختلفت الأزواج في كونها و كيانها، و لا فرد حقيقيا إلّا اللَّه.

«زَوْجٍ كَرِيمٍ» من فرد كريم واسع الرحمة، فكل زوج كما خلق اللَّه و أنبت كريم، و لا لؤم و لا شؤم إلّا من أنفس الأزواج، منها أو من نظائرها، فالخير كله بيديه و الشر ليس إليه.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 18

تعقيبة مكرورة في عرض لآيات كونية و اخرى رسالية تشريعية، تتكرّر مرات ثمان بمناسبات ثمان، أولاها هي موقف الكفار أمام هذه الرسالة السامية و من ثم موسى و ابراهيم و نوح و هود و صالح و لوط و شعيب، كما و تختم السورة بعرض الرسالة الإسلامية كما بدأت به.

«إِنَّ فِي ذلِكَ» البعيد المدى القريب الصدى من نابت كل زوج كريم و من كل ذكر محدث من الرحمن حيث يتجاوبان «لآية» تدل على مزوّجه و مزوّج كل ذكر «وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ»: المكذبين على مدار الزمن حيث يتغافلون عنها «مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ» يا رسول الهدى «لهو» لا سواه «العزيز» القاهر الغالب «الرحيم» بعباده في موضع العفو و الرحمة.

[سورة الشعراء (26): الآيات 10 الى 68]

وَ إِذْ نادى‏ رَبُّكَ مُوسى‏ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لا يَتَّقُونَ (11) قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى‏ هارُونَ (13) وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14)

قالَ كَلاَّ فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ (17) قالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (19)

قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (22) قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ (23) قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24)

قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْتَمِعُونَ (25) قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29)

قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْ‏ءٍ مُبِينٍ (30) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقى‏ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (32) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33) قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (34)

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (35) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39)

لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (40) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (41) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) قالَ لَهُمْ مُوسى‏ أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (44)

فَأَلْقى‏ مُوسى‏ عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (46) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسى‏ وَ هارُونَ (48) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49)

قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51) وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (53) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54)

وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (55) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (57) وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (58) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (59)

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى‏ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64)

وَ أَنْجَيْنا مُوسى‏ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 22

تسعة و خمسون آية تستعرض معارضة فرعون الرسالة الموسوية منذ البداية حتى غرق فرعون و قومه، عرضا لطائل الحوار بينهما، ثم مسرح السحرة و الآية الرسالية الى‏ «وَ أَنْجَيْنا مُوسى‏ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ».

و من ثم نرى عرضا لرسالة ابراهيم و نوح و هود و صالح و لوط و شعيب (عليهم السلام) كلا في قصص له بتلحيقة واحدة: «وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» تسلية لخاطر الرسول الأقدس (ص) كيلا يخلد بخلده الشريف أنه بدع من الرسل في مواجهة التكذيب، فالرسالات الإلهية هي ذات طبيعة واحدة و صاحبة عرقلة واحدة، فعلى الداعية التصبّر في الدعوة حتى النهاية.

و لقد مضت حلقات من قصة موسى في البقرة و المائدة و الأعراف و يونس و الأسرى و الكهف و طه، اضافة إلى إشارات اخرى في سواها، و كل هذه متناسقة مع جو السورة و موضوعها الرئيسي، و الحلقة المعروضة هنا هي مسرح الرسالة المعارضة لصرح الفرعونية الجبارة، مقسّمة إلى مشاهد متنوعة بينها فجوات متناسقة.

و قصص موسى كسائر القصص القرآنية جديدة في كل مسرح رغم تكرارها موضوعيا، لأنها تناسق كل الأجواء المستعرضة فيها، لولاها لكان الجو ناقصا، فالى مشاهد سبعة هنا بين موسى و فرعون:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 23

وَ إِذْ نادى‏ رَبُّكَ مُوسى‏ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لا يَتَّقُونَ (11).

ذلك النداء يتم بعد ما يكمل موسى عشر حجج في مدين بعد ما خرج إليها من مصر خائفا يترقب‏ «ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏» (20: 40) ففي ذلك القدر المقدّر لبزوغ الرسالة هكذا يؤمر.

و اذكر «إِذْ نادى‏ رَبُّكَ مُوسى‏» كما ناداك، و آواه كما آواك‏ «أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» الذين ظلموا أنفسهم و أهليهم و ظلموا الحق، عائشين في ثالوث الظلم، المظلم جوّ الحياة على عائشيها، ففي الرسالات الإلهية سلبيات و ايجابيات، سلبا لآلهة الأرض ثم إيجابا لإله السماوات و الأرض، و سلبا لأي ظلم من أي ظالم فإيجابا للعدل: «أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لا يَتَّقُونَ» فقد اظلمت الجوّ طغواهم، فلتحملهم على تقواهم، ام لا قل تقدير تصدهم عن طغواهم.

قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى‏ هارُونَ (13) وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14).

أعذار أربعة يعتذر بها موسى عن ذلك الإتيان، أ نكوصا عن تكليف الرسالة بأسره؟ و كيف يرسل اللَّه الناكص المنتكس! أم عرضا لحاله استنصارا من ربه على عدوه؟ و علمه بحاله يكفي عن مقاله!.

في الحق إنه عرض الحال التماسا و هو يعلم الحال، و كما في كل دعاء و استدعاء، و «فَأَرْسِلْ إِلى‏ هارُونَ» برهان لا مرد له على عدم النكوص، و انما هو استمداد من ربه ان ينصره على عدوه.

و ترى فرق التكذيب و القتل في سبيل الدعوة أ هما مما يتطلب عرض الدعاء، و هما طبيعة الحال في كافة الدعوات الرسالية؟ ففريق يكذّبون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 24

و آخرون يصدّقون، و فريق يحاولون قتل الداعية و آخرون يمانعون؟.

إنه هنا يخاف التكذيب المطلق ألّا يصدق ابدا، لا مطلق التكذيب ممن دأبهم التكذيب، و يخاف أن يقتل قبل نشور الدعوة، إذا فما هي فائدة هذه الدعوة بين تكذيبها و قتل الداعية؟!.

ثم و من دوافع التكذيب المطلق و القتل‏ «وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ...» فلذلك‏ «يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي» و ذلك قصور في الدعوة، فليستمد ربّه بامدادات متصلة و اخرى منفصلة ك «فَأَرْسِلْ إِلى‏ هارُونَ».

فلئن كان منشرح الصدر منطلق اللسان كان بالإمكان ان يرتد تكذيبه كيفما كان، فهو الاحتياط الرسالي حفاظا على سلامة الدعوة لا.

الداعية اللهم إلّا لسليم الدعوة و قاطعها.

فقد احتاط من أن يحتبس لسانه في بزوغ الدعوة و هو في موقف المنافحة عن رسالة ربه، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة منذ البداية، و احتاط من ان يقتلوه فتتوقف دعوته دون ان تجبر عن ضعفها، و هذا هو اللائق بموسى الرسول الذي صنعه اللَّه على عينه و اصطنعه لنفسه، و نراه مستجابا فور دعوته.

و مما لا بد منه في كل دعوة رسالية مجال التصديق و تجوال الدعوة قبل قتل أو موت الداعية، و انشراح صدره و انطلاق لسانه‏ «1» في الدعوة، فلذلك‏ «قالَ رَبِّ ...».

هنا من دوافع تكذيبه المطلق و قتله‏ «وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ...» أن قتلت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تجد تفصيل القول في عقدة لسانه في طه فراجع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 25

منهم نفسا فلا يفسحون لي- إذا- مجالا للدعوة، و منها ان فرعون رباني وليدا، فهو يتفرعن عن ان يسمع إلى دعوة ربيبه، المناحرة لدعوته.

و لم يكن قتله القبطي ذنبا في شرعة اللَّه، فانما «لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ» في زعمهم، و أما المشرك المحارب فمسموح قتله و لا سيما حالة الدفاع، مهما كان قتله في واجهة أخرى غير مشكور، إذ أخر دعوته الرسالية عشر سنين ... و هنا يجد حاضر الاستجابة فور الدعوة:

قالَ كَلَّا فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15).

«قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى‏» (20: 46) «قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى‏» (20: 36).

كلّا! فلن يكذبوك إلّا و معهم مصدقوك، كلا! لا يضيق صدرك فقد شرحناه، و لا يحتبس لسانك فقد أطلقناه، كلا! و لن يقتلوك فقد راعيناك «فاذهبا» أنت و أخوك هارون «بآياتنا» التسع إلى فرعون و ملإه «إنا» بجمعية الصفات على جمعية الرحمات «معكم» أنتما و من اتبعكما «مستمعون» قالة فرعون و قومه، فمجيبون في قال و حال و فعال‏ «أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ» (28: 35).

فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ (17).

هناك «ائت» إذ كان فريدا في رسالته، فلما زود بوزير له و هو من سؤله- إذا- «فأتيا» و لأن هذه الرسالة في الأصل واحدة يحملها موسى بموازرة هارون‏ «فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ» لا «رسولا» إذ لا اثنينيّة فيها لا في مادة الرسالة و لا في آياتها مهما كانا رسولين كحاملي هذه الرسالة «فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ» (20: 47).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 26

«فَأْتِيا ... أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ» فلم يكن رسولا إلى فرعون و ملأه- فقط- ليدعوهم إلى شرعته، بل ليطلب- بالفعل- إطلاق بني إسرائيل عن أسرهم و تسريحهم عن حصرهم‏ «إِنَّا رَسُولُ‏ ... أَنْ أَرْسِلْ» دون «آمن و أرسل» مما يصرح أن هذه الرسالة ليست بالفعل إلّا ناحية منحى السلب، أن يتخلى فرعون عن بني إسرائيل فإنهم هنا محور الدعوة الرسالية، و إن كانوا هم ايضا تشملهم هذه الدعوة العالمية كما آمن بها السحرة.

فالرسالة الموسوية ككل هي عالمية مهما بدأت من بني إسرائيل المضطهدين حيث هم حجر الأساس فيها، و كذلك فرعون و قومه إذ كانوا حجر عثرة للأساس، و لاتت حين مناص إلّا سلبا لأسرهم بأسرهم حتى يخلوا له جو الدعوة دون معارض مستخف لهم، مستكبر عليهم، متفرعن فيهم، فالسلب دوما يتقدم الإيجاب حتى يحل هو محله من الإيعاب، فيستتب أمر الشرعة قبولا لها و إقبالا إليها.

أ ترى ذلك القول الرسالي للطاغية كان قاسيا؟ كلّا حيث القساوة- و لا سيما من مثل موسى على سابقته معه- ليست إلّا عرقلة في سبيل الدعوة، و إنما كما في طه و سواها «فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى‏» (20: 44).

قالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (19).

أتياه و قالا له ما حمّلاه: دعوى الرسالة و مادة منها سلبية «أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ» و في ذلك سلب الربوبية عن فرعون و سلب سلطته عمن يملكهم، رسالة تهدم صرح السلطة الزمنية و الروحية مع بعض، و من هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 27

فاعل هذه السلبية القاضية؟ من تربى عند صاحب السلطة وليدا و لبث فيهم عمرا، ثم و جنى فيهم جناية! ثالوث المهانة فيمن أرسل لهذه السلبية القاسية القاضية.

يا رسول رب العالمين! «أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً» فكيف تعارض مربيك إلى خلاف ما رباك؟ «وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ» فأنت إذا عضو منا و قسم ضعيف من كياننا، فكيف تتفضل علينا؟ «وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ» حيث قتلت منا قتيلا «وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ» نعمة الإبقاء إذ ما قتلناك رغم المرسوم الملكي عندنا بتقتيل الولائد من بني إسرائيل، و «مِنَ الْكافِرِينَ» نعمة التربية و لبثها! و «مِنَ الْكافِرِينَ» بربوبيتي إذ تناسيتها فأجرمت فينا، ثم أتيت رسولا إلينا تتهدم صرح ملكنا، بل و من الكافرين- أيضا- بربك الذي بعثك إذ كنت عندنا كأحد منا! فكيف تواجهنا هكذا بذلك الوجه الأسود و السابقة السوداء و هو خلاف العقلية و التربية الإنسانية؟.

ثم و على أية حال كيف الفرع يفوق الأصل و يتفضل، و ما فضله إلّا منه؟ فكرة خاطئة بين حماقى الطغيان و الذين يؤصّلون الموازين المادية بين كل الموازين، متغافلين عن الأصالة الموهوبة من اللَّه، فيستغربون ان وليدا بينهم عاشهم سنين يرجع إليهم رسولا من اللَّه.

قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20).

هنا يقدم موسى ثالث ثلاثة من ثالوث الاعتراضات الفرعونية النكدة، فينكر «وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ» كفرا و كفرانا في كل الزوايا المعنيّة، ثم يصرح‏ «وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ» و تراه: كان ضالا حين فعل فعلته؟ و عماذا؟ فهل هو ضلال عن الايمان؟ و هو كفر ينكره! أم ضلال الكفران؟ فكذلك الأمر! حيث بدل‏ «مِنَ الْكافِرِينَ» إلى‏ «مِنَ الضَّالِّينَ»! فلا كفر له- إذا- و لا كفران‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 28

فلا عصيان! انه ضلال عن الرسالة الحكيمة التي أوتيها بعد فعلته و خروجه إلى مدين و رجوعه إلى مصر حيث أخّر فعلته رسالته دونما علم و لا تقصّد في تلك الفعلة، أو الضالين عن الطريق حيث دخلت المدينة و ما كان لي ان أدخلها «1» و أنا ملاحق في ذلك الجو المحرج، أو الضالين عن كيفية الدفاع، فلم آخذ الحائطة فيه حيادا عن القتل، و ذلك ضلال في بزوغ الرسالة غير عامد، قد اخرها إلى سنين.

فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21).

لقد وهب له ربه حكما قبل الوكزة القاتلة، دون حكم الرسالة المعصومة العاصمة عن كل الضلالات و الزلات كما في القصص: «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى‏ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى‏ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى‏ فَقَضى‏ عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ. قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (14: 16).

هنا «مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» و هناك‏ «مِنَ الضَّالِّينَ» لا يطاردان أنه أوتي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 13: 33 في حوار المأمون مع الرضا (ع) قال المأمون جزاك اللَّه يا أبا الحسن فما معنى قول موسى لفرعون‏ «فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ» قال الرضا (ع) ان فرعون قال لموسى لما أتاه‏ «وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ» لي قال موسى‏ «فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ» عن الطريق بوقوعي الى مدينة من مدائنك‏ «فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 29

حكما و علما فإنهما ليسا هما الرسالة البعيدة عن عمل الشيطان و عن أي ضلال في سبيل الدعوة، و قد قوبل الحكم في مواضيع عدة بالرسالة و النبوة مما يجعله أعم منهما مهما كان منصبا إلهيا كما كان لطالوت، و لكنه ليس ليعصم صاحبه عن كافة الزلات و الضلالات، فقد أوتي حكما مع الرسالة بعد ما رجع من مدين و بينه و بين الحكم الأول عشر سنين، فذلك حكم رسالي و رسالة الحكم، ليس ليضل معه بعد على طول خط الدعوة، و الأول حكم الدعوة قبل الرسالة قد يضل معه كما ضل.

ثم و لم يكن ضلالة له عن الايمان و لا عن حكم الشرعة الإلهية إذ كانت الوكزة القاتلة في ذلك الاقتتال مسموحا أو فرضا حسب الشرعة، دفاعا عن نفس محرمة موحدة عن ان تهدر، مهما هدرت نفس مشركة غير محترمة.

و هنا تقتسم الوكزة إلى أصلها المصيب المشروع فليس ضلالا، و إلى قتلتها المخلّفة عن قوتها و قد خلفت فرار صاحب الحكم عن الجو الرسالي الآتي و أجل رسالته عشر سنين، و ذلك مقصود و هذا غير مقصود، و ليس عمل الشيطان هنا إلّا غير المقصود، و المقصود هو عمل الرحمان، فلم يكن الضلال إلّا في البعد الثاني من وكزته و هي القتلة الناتجة عنها، غير المقصود فيها، فلم يرتكب- إذا- كمؤمن ذنبا، و إنما ارتكب خطأ رساليا و لمّا يرسل‏ «1» إذا فهو ضلال عن تلك الرسالة السامية في مرحلة ادنى منها مهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 48 في عيون الأخبار يسأل مأمون الرشيد أبا الحسن الرضا (ع) فيما سئل أ ليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال: بلى- قال: فما معنى قول موسى لفرعون: فعلتها إذا و أنا من الضالين؟ قال الرضا (ع): إن فرعون قال لموسى لما أتاه:

و فعلت فعلتك التي فعلت و أنت من الكافرين- قال موسى: فعلتها إذا و انا من الضالين عن الطريق بوقوعي الى مدينة من مدائنك ففررت منكم لما خفتكم» و قد قال اللَّه لنبيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 30

كانت أعلى قمم الايمان، و كما في رسول الهدى‏ «وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى‏» في وجه وجيه من وجوهها.

و قد قال حينه‏ «ظَلَمْتُ نَفْسِي» دون «غيري» إذ كان ظلم الانتقاص لعاجل الرسالة دون تقصد «فَاغْفِرْ لِي» سترا عن منعة الرسالة «فَغَفَرَ لَهُ» حيث وفقه للفرار و ظل عشر سنين في مدين‏ «ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏» (20: 40) و التفصيل إلى محله.

«فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ»-: «وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى‏ قالَ يا مُوسى‏ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ ..» (28: 21) «يترقب» الفرج، و ان يعجل في آجل الرسالة «فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً» بعد الحكم الأوّل- و طبعا ل- فوقه لحدّ «وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

و أما تربيتي فيكم وليدا و لبثي عندكم من عمري سنين فلم تكن نعمة تمنها عليّ:

وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (22).

فلو لا تعبيدك بني إسرائيل أسرا و حصرا و قتلا لولائدهم و استحياء لنسائهم لما اضطرت أمي أن تقذفني في التابوت‏ «أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

محمد (ص): الم يجدك يتيما فآوى- يقول: الم يجدك وحيدا فآوى إليك الناس‏ «وَ وَجَدَكَ ضَالًّا» يعني عند قومك «فهدى» اي فهداهم الى معرفتك.

أقول: يعني ضلالة بعد القتل عن طريقه المقصودة الى غير المقصود «و دخل المدينة خائفا يترقب» و وجه آخر ذكرناه في المتن، فلعل هذا الوجه غير وارد عن الامام (ع) حيث يتبع من الوجوه الدلالية القرآنية احسن الوجوه!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 31

فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي و عدو له. و ألقيت عليك محبة مني و لتصنع على عيني» (20: 39).

إذا فأنا صنيع الرب و ربيّه عندك، حفاظا ربانيا عن بأسك و أنتم لا تشعرون، و ما كان منكم إلّا قصد الانتفاع مني‏ «لا تَقْتُلُوهُ عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» (28: 9) و هذا تعبيد لي من وجه آخر غير ما كان لسائر بني إسرائيل.

فأية نعمة تمنها علي و هي في كل زواياها و حواياها تعبيد لبني إسرائيل؟

فالرسم الملكي بتقتيل الأبناء المستثنى فيّ، كان رسما لتعبيدي انا في وجه آخر، فحتى لو كانت نعمة منك عليّ، فهي ليست لتطارد نعمة الرسالة الإلهية و هي أنعم النعم، فليست قضية النعمة من بشر لبشر نكران أو نسيان النعمة الإلهية الكبرى الرسالية، على ان كل نعمة تصل العبد فانما هي بتقدير من اللَّه قدّره، و لا سيما نعمة الحفاظ على نفسي عند أعدى أعاديّ‏ «يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ ...»!

فهنالك انهدم صرح الحجاج اللجاج الفرعوني صدا عن بازغ الدعوة الموسوية، فانتقل إلى لجاج آخر في صورة الحجاج:

قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ (23).

في ذلك الاستجواب العارم نرى فرعون في اعمق الحمق و سوء الأدب، و نرى موسى يجيبه كريما كأن لم يسمع إلى شطحاته القارصة الراقصة فندرس في هذا الحوار كيف يجب علينا ان نحاور خصومنا الظالمين فضلا عن سواهم من المسترشدين.

«ما» هنا تهوين لساحة الربوبية العالمية، استنكارا لها زعم انه هو الرب الأعلى فلا أعلى منه، حتى يرسل رسولا إلى الرب الأعلى!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 32

إنه لا يعيى عن النكاية بموسى كرسول، يحاول القضاء على كيان مرسله رب العالمين، و هل هو- فقط- سؤال عن الماهية؟ و الصيغة الصالحة في الماهية الإلهية هي «من» دون «ما» ثم السؤال عن الماهية ليس إلّا بعد الاعتراف بصاحبها و هو ناكر رب العالمين، لمكان دعواه‏ «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» و «يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ...» (28: 38) فقد كان دهريا لا يؤمن باللَّه و لا سيما المدعوّ ب «رَبُّ الْعالَمِينَ» فانه ممن يقسم الربوبية بين أرباب عدة ارضية و سماوية، و هو منهم كما الأصنام منهم: «وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ ..» (7: 127). فحتى لو كان معترفا بوجود اللَّه كرب للأرباب، فهو ناكر لكونه رب العالمين، اللهم إلّا عالما له خاصا كما لسائر الأرباب عوالم خاصة.

و قد يكون الطاغية جامعا في سؤاله عن «ما» بين التوهين و الاستفهام عن الماهية و الكيفية، فأتى موسى بالجواب الصالح و هو عرض الصفات الفعلية و كما

يروى‏ انه لما قال: «رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا ..» قال فرعون متعجبا لأصحابه: ألا تسمعون أسأله عن الكيفية فيجيبني عن الصفات ...» «1».

إذا فهو سؤال استنكار و تهوين لمكانة من سماه موسى‏ «رَبُّ الْعالَمِينَ» و هنا موسى يضرب الصفح عن تلك المهانة مجيبا عن مكانة رب العالمين، مبينا سعة العالمين دون اختصاص بعالم دون آخر:

قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 181 تفسير القمي قال حدثني أبي عن الحسن بن علي الفضال عن ابان بن عثمان عن أبي عبد اللَّه (ع) قال‏ لما بعث الله موسى الى فرعون- إلى ان قال-:

و انما سأله عن كيفية الله فقال موسى رب السماوات ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 33

«إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» بأصل الربوبية الأصيلة، فهي- إذا- الربوبية العالمية المحلّقة على الكون كلّه المعبّر عنه ب «السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا» و ان لم تكونوا موقنين بأصل الربوبية فالسؤال‏ «وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ؟» ساقط من أصله، إلّا هزء كما هو كذلك، إلا أن موسى الرسول مهمته ان يهدي الضالين مهما كان سؤالهم متنعتا مستهزء.

و يا له من جواب يكافئ ذلك التجاهل العارم و يغطّيه، انه‏ «رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا» التي أنت جزء منها ضئيل، كالذرة أو الهباءة بين شاسع الكون و هائله.

هنا ينبري الطاغية بقولة لاهية لاغية لمن حوله، يستنصرهم في القضاء على حجة اللَّه البالغة:

قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْتَمِعُونَ (25).

ألا تستمعون إلى ذلك التقوّل العجاب، كيف يجرأ عبد من عبيدي أن يختلق ربا للكون كله و يجعلني ضمنه و «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏»! و قد يكفي ردا عليه ادعاءه الجوفاء الخواء أمام الرب الأعلى أنه مرسل اليّ من رب العالمين! أ ترى موسى يجيبه عن لاغيته؟ كلّا! بل يمر عليها مر الكرام مستمرا في تعريفه برب العالمين:

قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26).

إن رب العالمين- رب السماوات و الأرض و ما بينهما- هو «ربكم»:

فرعون و ملؤه، «وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» فان كنت يا فرعون ربا لمن حولك و من معك كما تزعم، فهو «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ».

و هذه أشد مساسا بفرعون و دعواه، و أحدّ مراسا لاثبات الربوبية العالمية، مما يدفع فرعون إلى قولة جنونية تجنّن موسى، و ليسقّطه عن عقلية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 34

الحوار، و يجتثّ الحق عن كل دعاويه:

قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27).

و ذلك تهكّم في أصل الرسالة، فقضاء- في زعمه- على ما يحمله من مواد الرسالة الإلهية، ضربا عميقا عميما على موسى في الصميم، كفاحا عن ضربته السياسية و الدينية على فرعون في الصميم.

أ ترى موسى يقابل الطاغية بالمثل قائلا: ان ربكم الأعلى لمجنون؟

كلّا! بل هو يمضي في طريقه قدما كأن لم يسمع قولته الباغية:

قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28).

فإن كنت أنا الرسول المجنون بسند التعريف بالربوبية العالمية، فمن رب المشرق و المغرب و ما بينهما ايها العقلاء إن كنتم تعقلون؟.

أمن العقل نكران خالق العقل و العقلاء، و نكران الربوبية الوحيدة لهذا النظام المنسّق بنسق واحد، و المنظم بنظام فارد، أم الجنون بعينه هو النظام من نتائج فوضى الربوبيات المتشاكسة، و الوئام التام دون تفاوت في الخلق من آثار مختلف الربوبيات الشاسعة!.

إن المشرق و المغرب مشهدان معروضان لكل ذي بصر و نظر، فهل ان الشروق و الغروب هما من تصريفات فرعون و آلهته؟ إنه توجيه وجيه يهز القلوب البليدة المقلوبة هزا، إثارة لمشاعرهم، و ايقاظا لعقولهم‏ «إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ».

و لا يخشى الطغيان ما يخشاه من يقظة الشعوب النائمة، كالبهم الهائمة، المحرضة إلى العقل عن الحقائق في كل حقل، دون تبعية بغبغائية قاحلة، و تقليدة جاهلة، و يا له من ترتيب رتيب عجيب في تعريفه برب العالمين، ابتداء من الأثر العام: «السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا» الظاهر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 35

حدوثها و مربوبيتها، فان ادعي قدمها فالى ما لا ينكر في حدوثه‏ «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» حيث الإنسان مخلوق على أية حال، ثم استدلالا لوحدة الربوبية بنظام الشروق و الغروب، كالحجة الابراهيمية مع نمرود، و هذه الثلاث تشترك في التعريف بالآثار حيث الذات الألوهية و صفات الذات لا تعريف لها ذاتيا إلا بالآثار و الأفعال و هي صفات الفعل.

و لما ينتهي امر الحوار إلى إيقاظ الشعب، يترك فرعون حواره العار إلى التهديد:

قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29).

و هذه نهاية الحوار من كل جبار لا يملك برهنة على جبروته، قتلا أو نفيا أو سجنا، و لكيلا يوقظ الجماهير فتتخلّف عن ملكته الجابرة و سلطته العاهرة، و لأنه يزعمه الرب الأعلى، لذلك يتناسى الآلهة الأخرى، «إِلهَاً غَيْرِي» يعني الرب الأعلى، دون الأرباب الأدنين الأخرى، فانه كانت له آلهة تعبد.

و «مِنَ الْمَسْجُونِينَ» قد توحي أنه كان في ملكه من يعبد إلها غيره كأصل الألوهة، اللَّه أم سواه، ام كانوا في التخلف عن السلطة الفرعونية كمثل موسى.

أ تراه يجيبه بما أجاب خوفة من السجن؟ و هو استمرار سلفه الصالح يوسف القائل‏ «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ»! انه يحاول إبانة الحق المرام كما يرام، فلا يشير إلى سجن و سواه حتى يهديه هداه، ثم و في نهاية المطاف يستسلم لما يجري في سبيل الدعوة و اللَّه هو المستعان على ما يصفون.

و ترى موسى بماذا يجيب الطاغية عن تهديده العارم، انه يوجهه إلى واجهة اخرى خارقة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 36

قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْ‏ءٍ مُبِينٍ (30).

و «لو» هنا احتياطة عاقلة مع الطاغية، حيث يحيل ان يكون موسى على حق مبين، و لكن على فرض المحال‏ «أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْ‏ءٍ مُبِينٍ» يبين حق دعواي اكثر مما بان، و يبين حق الربوبية العالمية أوضح مما كان، أ فهناك- أيضا- تهدّدني بالسجن و ترميني بالجنون؟.

طبعا لا! و كل ذي حجي مهما تنازل عن حجاه يقول: لا، فلنجرب الداعية هل يأتي بشي‏ء مبين، و هنا الطاغية يتطلب اليه ان يأتي بشيئه، واثقا انه لن يأتي بأيّ من شيئه:

قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31).

«إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» في دعواك الرسالة، و «مِنَ الصَّادِقِينَ» ان تجيئني بشي‏ء مبين‏ «فَأْتِ بِهِ» تعجيزا لموسى (ع) كأنه من الكاذبين.

فَأَلْقى‏ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (32) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33).

آيتان باهرتان قاهرتان تحوّلان جوّ البلاط الفرعوني المتبلّج إلى جو متلجلج، مما يحمل فرعون إلى خربطة القول ف:

قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (34).

لقد شعر فرعون- و هو لا يشعر- انه خارقة منقطعة النظير في كل ما رآه من سحرته، فأحس بضخامتها فوخامتها في وجهه أمام حاشيته، إذ كادوا يتملقون من حوله، فحاول التغطئة بهذه التخطئة: «إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ»! «عليم» مكين في علمه، ليس كالذين نعرفهم عندنا، بل‏ «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ..» (50) فموسى هنالك في حواره الذي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 37

ألجمه «مجنون» هناك و هنا في شيئه المبين «ساحر» و قد أتم و أطم آية الثعبان و اليد البيضاء، محسوسة ملموسة، إلى الآيات الفطرية و العقلية، فالطاغي الذي يتنازل عن عقله و فطرته فلا تفيده البراهين، ينقّل إلى آيات محسوسة يصدقها حتى المجانين، و لكن هذه الطاغية ليس ليسكت عن غوغائيات التهم الجارفة، الهارفة الخارفة:

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (35).

فلأنه يرى تثاقلهم إلى أرضهم، و ان هذه السلطة هي بغيتهم الآصلة الحاصلة، يهددهم بإخراجهم من أرضهم لو اتبعوا هذا الساحر العليم، و في ذلك استلاب السلطة الروحية: «وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى‏» (20: 63) و الزمنية المزيجة بها، و هذه غاية الشيطنة في الفرعنة.

و قد يبدو من هذه القولة عظمة الآية مهما سماها سحرا حيث يصف صاحبها بانه عليم، ليس كسائر السحرة، و يبدو خوفه من تأثر من حوله فيهدّدهم بإخراجهم من أرضهم، و يبدو تضعضعه و تهاويه أمام هذا الساحر العليم! فيستمد ممن حوله متواضعا متسكعا- و قد ادعى انه ربهم الأعلى- فيطلب أمرهم و رأيهم في ذلك المأزق الخطير «فَما ذا تَأْمُرُونَ»! و متى تراه كان يطلب أمرهم و هم له يسجدون؟.

انها شنشنة الطغاة بعد طنطنتهم حين تزل اقدامهم و تضل أحلامهم و تكل افهامهم، فيلينون في القول بعد الخشونة، و يتواضعون لأمرهم و رأيهم بكل مرونة بعد العرونة، و يا له كيدا ما أشطنه في ثالوثه المنحوس: «إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ» حيث استفاد هذه التهمة من السحر، فقد يجوز ان ينتهي بسحره إلى ذلك الحد القمة «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ» و ارض الوطن بهذه السلطة القوية المرموقة محبوبة لأهلها كأنفسهم‏ «فَما ذا تَأْمُرُونَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 38

كلام مرن يحرّك العواطف الدفينة و يغطي على الضغائن الكامنة، و يستحث الحاشية الملكية على إمعان التفكير لتخليص الملك و إياهم عن ذلك المأزق العميق، فكانت النتيجة ان:

قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37).

هنا يشير عليه ملأه آمرين كما تطلّب منهم، و هم شركائه في فرعنته و صرح سلطته، و أصحاب المصلحة في بقاء كيانه‏ «قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ» إمهالا إلى أجل دون عجل، فإن هامة أمره الإمر تقتضي تروّيا و محاولة جماعية:

«وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ» المصرية أم و سواها «حاشرين»: جامعين‏ «يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ» دون سقاطهم، بل اصطفاء للرعيل الأعلى منهم لإقامة تلك المباراة الساحرة القاضية على هذا السحر العظيم.

لقد كان يعلم فرعون أن له ساحرين، و لكنه اختلط عقله، مغلوبا عليه من دهشة الموقف القاهر، ام لم يكن يرى فائدة و عائدة من جمع السحرة لمعالجة الموقف فاستأمر حاشيته فرأوا رأيهم هذا تأجيلا للفضيحة، و تغطية عاجلة على الموقف الحاسم.

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38).

و هو «يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى» (20: 59) كما قرره موسى بما تطلب منه فرعون: «فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لا أَنْتَ مَكاناً سُوىً» (58).

وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (40).

هنا استعطاف ماكر للناس حيث لا يؤمرون، و انما يستأمرون: «هَلْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 39

أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ» و طبعا «لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ» تلحيقا بما فيه هياج الجماهير، و تحميسهم‏ «لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ» و هي الغاية المقصودة من ذلك الاجتماع الحاشر «إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ» و «هم» هنا تؤكد جانب الإثبات في هذه الشرطية المشكّكة، و هكذا تستحث الجماهير المستخفّة المطاوعة المجيبة لكل ناعق دون تفطّن للغاية الماكرة، و ان الطغاة يعبثون بها و يلهون، و يشغلونها بهذه المباريات ليلهوها عما تعنيها و تعانيها من كبت دائب، و احتناك لهم خائب، دونما حنكة و تعقل، سيّقة لكل سائق، سامعة لكل ناعق.

فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (41) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42).

هذه قولتهم لأنهم- بالفعل- عملاء قضية ضغط الموقف، يستزيدون أجرا على رواتبهم‏ «إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ» و الجواب بطبيعة الحال‏ «نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» من الحاشية الملكية المتفوقة على سائر الموظفين، و هذه هي البغية الفرعونية الباغية الغادرة، فلذلك لا يبخل عن سؤل السحرة، بل و يزيدهم اجرا معنويا على مادية المسؤول، و إلى مشهد المباراة المعاكسة للمرام، المضادة للمرام!:

قالَ لَهُمْ مُوسى‏ أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (44).

تقدّم الاقتراح من موسى (ع) تهدّد لهم هارع و تحدّ بارع، و «أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ» يستحث كامل قوّاتهم، و يستحصل كل قدراتهم في هذه المباراة الحاسمة الجماهيرية، مستصغرا جموعهم المحتشدة و معهم القوات الهائلة الفرعونية و أمل الأجل و الزلفى، و معه ربه سبحانه و تعالى و اجره و الزلفى و هكذا يجب على كل داعية حق ان يستقدم ما عند داعية الباطل ليقضي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 40

عليها من فورها، و لو أن موسى ألقى قبلهم كان قد ألغى الموقف الجامع حيث يفر الجماهير من ثعبانه فلا يبقى مجال للمبارات، و قد يؤوّل ما ألقاه انه سحر أعظم، فلما ألقوا ألغى ما ألقوه بما ألقى من فورهم فغلب الحق و بطل ما كانوا يأفكون.

و ليس في تطلّبه سحرهم طلب الباطل، إذ كان يقصد إبطاله بآيته الإلهية، و تطلّب ظهور الباطل لإبطاله حق يساند الحق.

«فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ» فلما رأوها تتحرك بكيدهم، محلّقة الموقف بكل رعب و إعجاب، مما لم يسبق لهم مثيله بهذه الصورة الجماعية الهائلة، اشتبه عليهم أمرهم و اطمأنوا إلى غايتهم المنشودة كأنما هي الآن حاصلة «وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ» فان جمع العصي و الحبال لا بد و أن تتغلب في سحرها على سحر اليد و العصى الواحدة، تقديرا ظاهرا و هم عن الحق هم غافلون.

فَأَلْقى‏ مُوسى‏ عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (45).

فاللقف هو الأكل السريع، الحاذق الخارق، فقد أكلت الثعبان المبين كلّ ما يأفكون دونما رجع أو رجيع، مما يؤكد أنها آية إلهية بعيدة عن السحر، حيث السحر تخيّل و ذلك واقع لا مردّ له، و غلب سحر على سحر ليس إلا غلب خيال على خيال دونما واقعية مشهودة! و مهما تشكك في واقعه مرتابون، فليس ليتشكك فيه مهرة الفن: السحرة، فموقفهم سلبيا أو ايجابيا موقف حاسم لا ينكر له إلا لمن ينكر عقله و حسّه.

و إنها مفاجئة مذهلة غير متوقعة للسحرة، عصى تنقلب حية تسعى و ثعبانا مبينا، هي لوحدتها تلقف ما يأفكون، دون ان تبقي لها على أثر.

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (46) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 41

وَ هارُونَ (48).

و ترى من ألقاهم ساجدين سواهم أنفسهم؟ إنه هيبة الموقف، فخلافا لما كانوا يأملون أدهشتهم الآية البارعة فلم يتمالكوا أنفسهم إلّا تساقطا على الأرض سجّدا، حيث الحق قد لمس عواطفهم و مس شغاف قلوبهم، هزة مفاجئة أزالت عنهم ركامات الضلالة في لحظات قصار و هم كانوا قبلها هارعين إلى البغية الملكية الطاغية، فتحولوا- إذا- بكامل كيانهم الى «ساجدين» و نطقت ألسنتهم كلمة الحق التي كانوا لها ناكرين «قالوا» قالا و حالا و فعالا «آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ» لا فحسب الايمان باللَّه الواحد، بل و برسالته ايضا المتمثلة في موسى و هارون‏ «رَبِّ مُوسى‏ وَ هارُونَ» تاركين أية ربوبية سواها.

هنا التآمر الحاشد من الحاشية، الناتج عن تلك المباراة الحاشدة، مع كافة الصعوبات التي كلّفتها حتى ألفتها، أصبح ذلك التآمر هشيما تذروه الرياح و كان اللَّه على كل شي‏ء مقتدرا، فتلجلج فرعون و ملأه و تبلج موسى و ملأه، و آمن السحرة، لحد أصبح بطن الأرض اريح لفرعون من ظهرها، حيث استأصلت كل محاولاته و مكيداته، فلم تبق له باقية إلّا باغية أخيرة هي شيمة كل باغية:

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49).

ويكأنّ الايمان- أيضا- كسائر الأمور المسيّرة الميسرة بالإذن- بحاجة إلى اذن، خلطا لعمل القلب بعمل القالب، و لأن ذلك البليد الطاغي يدعي السلطة المطلقة على شعبه، فلتكن قلوبهم- أيضا- بيده.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 42

و هنا «آمَنْتُمْ لَهُ» دون «به» نكاية بايمانهم انه ليس إسلاما عن قلب، بل هو استسلام لسحر أعلى أمام ساحر عليم ايمانا لصالحه، تحويلا للآية إلى سحر ما وجد اليه سبيلا.

إنه لا يشعر قلبه ما استشعره هؤلاء من الحق، و هم أحرى ممن سواهم في تمييز الآية من السحر، و متى كانت للطغات قلوب يفقهون بها حتى يلمسوا هذه اللمسات الحية الوضائة.

هنا الطاغية يثنّي تهمة الاستسلام بأخرى يتهدم بها- في زعمه- صرح السحر من هؤلاء السحرة، و أنه تآمر على السلطة الفرعونية: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ» و متى كان بينهم حتى يعلّمهم، و متى سبق له سحر حتى يعلمه فيعلّمه، و مهما يكن من أمر يكون له مأخذا في هذه التهمة، فهو ان بعض هؤلاء- و هم من الكهنة- كانوا يتولون تربية موسى حين كان وليدا في قصره، و لكنه يعاكس تهمته الى ضدها، إنه (ع) تعلم من هؤلاء، فبدلا من قوله «انه لتلميذكم ..» قال‏ «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ..» ليزيد الأمر ضخامة في أعين الجماهير و وخامة في قلوبهم.

و لكن هذه الثانية كما الأولى لا تجد مجالا من القبول، فالسحرة فالتة، و الحشد متنزّل أو متحول، فالى ثالث ثلاثة هي التهديد بالصلب القاسي الذي كان يجري بحق أعصى العصاة و ابغى البغاة:

«فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» ماذا أفعل بكم ايها الخونة المتمردون! «لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ» و السلطة قاهرة و الطاغية قادرة، فلو كان إسلامهم استسلاما لكانوا يستسلمون للسلطة الفرعونية، إذ لم تكن لموسى سلطة زمنية، اللهم إلا آية إلهية، و لكنهم أثبتوا دون أية ريبة أن ايمانهم واقع دون مماراة، لا مرد له و لا تحويل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 43

قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51).

«قالوا» بأجمعهم «لا ضير» لنا فيما تهدّدنا إذ «إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ» انقلابا تاما لنا، طاما لكياننا، فلا مجال لك فينا، و لا رجعة لنا إلى ما كنا:

قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى‏ ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏. إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى‏ (20: 72- 74) وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (7: 126).

اجل «لا ضير» في تقطيع الأيدي و الأرجل من خلاف، و لا في تصليبنا أجمعين‏ «إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ» عن حمأة هذه الأدنى، فلا مطمع لنا إذا و لا مطمح إلّا «أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا» طول حياة التكليف حتى الآن، «يَغْفِرَ لَنا» ل «أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ» حيث سبقنا في هذه المباراة غيرنا في الايمان، بل و سبقنا المؤمنين في صمود الايمان.

فيا للَّه، يا لروعة الايمان و ضوءته إذ تشرق في الضمائر الحية، و تفيض على القلوب المستعدة فتسكب الطمأنينة في نفوس نفيسة في أعماقها، مهما كانت بخيسة خسيسة في أوحاقها لفترة- مهما كانت طويلة- من أوقاتها، فترتفع بسلالة من طين إلى أعلى عليين.

فلما تصل النفوس إلى هذه القمة المرموقة يوحى إلى الرسول‏ «أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي ..».

و هنا يسدل الستار على موقف السحرة المهددون به إلى فرار موسى و من معه إلى جانب البحر:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 44

وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52).

أ ترى فرعون طبّق على السحرة المؤمنين ما أوعدهم؟ لا إشارة له! و لو كان لبان كحدث هائل في تاريخ الرسالات، قتلا و صلبا جماهيريا لحشد كبير من السحرة! و الجوّ آنذاك ما كان يسمح أو يفسح مجالا لهذه القتلة الهائلة، فإن غلب الحق في تلك المباراة أوقع على فرعون و ملئه أثقل الوقعات، فكيف يجرأ على هذه العملية الفاتكة بحق الكبراء من قومه الخصوص، و قبل أن يلاحق موسى و من معه؟! و طبيعة النقم على الفرعونية الجبابرة تقتضي التصريح بهذه القتلة لو حصلت، تأكيدا لايمان من آمن من قومه، و تبديدا للفعلة الفرعونية الطاغية!.

قد تلمح‏ «أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي» انهم هم السحرة المؤمنون حيث حققوا حق العبودية للَّه، ام- و لا قل تقدير- انهم منهم، ف «عبادي» هم بنوا إسرائيل و السحرة المؤمنون، بل و جموع آخرون ممن دخلوا في زمرتهم في الردح الفاصل من الزمن بين المباراة و الإسراء إلى جانب اليم، فلم يكن موسى الرسول و أخوه بمن معهما من المؤمنين سكوتا لا ينطقون فلا يدعون إلى اللَّه طول هذه المدة و هم على بينة قاضية شاهرة بين الجماهير!.

فقد كان الايمان لموسى مثلثة الزوايا، السحرة بطبيعة الحال، و جماعة آخرون من القبط، و جماعة من بني إسرائيل، قد يشملهم كلهم آية يونس التالية للمبارات‏ «فَما آمَنَ لِمُوسى‏ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى‏ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 53 فحبس فرعون من آمن بموسى (ع) في السجن حتى أنزل اللَّه عز و جل عليهم الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم فأطلق عنهم فأوحى اللَّه عز و جل إلى موسى‏ «أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 45

أ ترى «من قومه» تعني- فقط- قوم موسى الإسرائيليين؟ و قد آمن له السحرة أفضل ايمان في هذه المباراة، و هم أفضل ممن سواهم ايمانا إلّا قليلا من بني إسرائيل المخلصين! أم هم قوم فرعون من السحرة و من تابعهم؟ و بعد الضمير يبعده! و قد آمن مع موسى جم غفير من قومه مهما آمن له معهم آخرون! أم هم القومان و ضمير الغائب هنا له مرجعان، فقد آمن لموسى ذرية من قوم فرعون هم السحرة و من تابعهم، و ذرية من قومه نفسه‏ «عَلى‏ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ» كأصل المخافة و «ملإهم» القبط المترفين، و الاسرائيليين العملاء لهم حفاظا على مكانتهم في عمالتهم الخاوية، و هكذا يكون دوما فرقة الايمان، انهم هم المستضعفون الذين لا يحسبون بشي‏ء أمام الطغاة و الكبراء، المترذّلون في حسبانهم‏ «أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ» (26: 111)! و من هنا يعبّر عن المؤمنين له بقومه مهما كانوا قبطا، حيث الايمان الموحّد يزيل الفوارق القومية: «وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ...» (87).

و قد تعم بنو إسرائيل في هذا المجال غيرهم من المؤمنين، ام انه تعبير عن الكل باسم الجل تغليبا «وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ ..» (90).

و على اية حال يؤمر موسى بعد نجاحه في المباراة ان يفر بقومه سريا «إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» أ تراهم لم يكونوا متّبعين طول هذه المدة إلّا لمّا أوحي إلى موسى؟ اجل و لكنه اين إتّباع من إتّباع، فهم كانوا متّبعين ملاحقين و هم يتحملونه إذ كان محمولا، و لكنهم الآن متبعون استئصالا لهم عن بكرتهم.

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (53) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (5) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (56).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 46

لقد أسرى موسى بعباد اللَّه ليلا نحو اليمّ بسرعة خارقة بارقة، و سمع فرعون بهذه المكيدة النابغة «فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ» المصرية ككل «حاشرين» يجمعون الناس ليسمعوهم تالية الدعايات ضد الرسالة الموسوية و أتباعها:

«إن هؤلاء» الشاردون «لشرذمة»: جماعة منقطعة عما يصلحها، مطرودة عن مجتمعنا، بقية بالية باقية من بني إسرائيل «قليلون» عدة و عدة.

«و انهم» على قلتهم و علتهم‏ «لَنا لَغائِظُونَ» من سوء صنيعهم بين شعبنا و دعاياتهم المضللة فيهم.

«وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ» مجتمعون، في سلطتنا زمنيا و روحيا «حاذرون» عما يصطدمها روحيا و زمنيا

«شاكون في السلاح» «1»

، لذلك فانا نتتبعهم فنتبعهم فنقضي عليهم إزالة للفساد و إصلاحا للبلاد.

ذلك كيد فرعون و ملإه ليقضي قضاء حاسما على شرذمة قليلة مغيّضة له، و لكن اللَّه يعكس امره ضده:

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (57) وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (58) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (59).

كيف و هم خرجوا متّبعين، ينسب اللَّه خروجهم إليه؟ حيث قدّر في خروجهم إخراجهم، و في اتباعهم موسى و من معه إحراجهم، «كذلك» فعلنا بهم‏ «وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ».

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 183 تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في قوله‏ «لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ‏ ... وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ» يقول: مؤداة في الأداة و هو الشاكي في السلاح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 47

اتبع الجمع الحاذر الغادر شرذمة قليلة «مشرقين» حالة الإشراق، و طبعا بسرعة اكثر منهم حتى يلحقوهم لحد الترائي، و المعركة المصيرية بالغة الذروة و الضراوة، و المشهد قريب إلى النهاية، فموسى و من معه أمام اليم ليست معهم سفن و زوارق يجتازون بها، و قد قاربهم فرعون بجيشه الجبار شاكو السلاح، مستعدين بكل قواتهم للقضاء عليهم و لم يبق هنا أمل للضفة المؤمنة إلّا المعية الربانية و قد أدركتهم كما و أهلكت الآخرين.

فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى‏ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61).

إن هي إلّا دقائق و نحن مدركون، فقد بلغ الكرب مداه، هجمة الموت الهمجية الهائجة و لات حين مناص، وفات يوم خلاص، فإما خوضا في اليم فغرقا، أم نظل هنا كما نحن فحرقا! و الترائي هو التقارب و التداني لحدّ يصبح كل بمرأى الآخر، و إن لم ير بعضهم بعضا بموانع كمثار العجاج، و رهج الطّراد، فالمراد هو تقارب الأشخاص، لا- فقط- تلاحض الأحداق و كما يقال في حين متقاربين تتراءى نارهما.

قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (62).

كلا! لا إدراك لو كان لكم إدراك، و لا هلاك إلّا لعدونا إن كنتم مؤمنين‏ «كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي» معية العلم و النصرة، لا يفارقني عند المهالك، و لا يتخلى عني في المعارك، فلا يذلني أو يضلني، بل «سيهدين» بخارقة ربانية كما هداني في المباراة، و في كل ما هو آت، إن ربي دعاني لهذه المسيرة فهو الذي يكلأني و يرعاني‏ «1»، و ان لم ير بعضهم بعضا بموانع كمثار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 55 في مناقب ابن شهر آشوب ابراهيم بن أدهم و فتح الموصلي قال‏ كل واحد منهما كنت أسيح في البادية مع القافلة فعرضت لي حاجة فتنحيت عن القافلة و إذا أنا بصبي يمشي فدنوت منه و سلمت عليه فردّ عليّ السلام فقلت له: إلى اين؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 48

العجاج، و رهج الطّراد، فالمراد هو تقارب الأشخاص، لا- فقط- تلاحض الأحداق و كما يقال في حين متقاربين تتراءى نارهما.

فَأَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63).

لقد هداه ربه بما أوحاه‏ «أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ» و يا لها من عصى تحمل آيات عظيمة ما أعظمها في مباريات بين موسى و فرعون «فانفلق» البحر فلقتين و فرقتين‏ «فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» و انشق بين فرقي الماء طريق يبس: «لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى‏» (20: 77) «وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ ..» (10: 90) فالفرق هو الجزء المنفرق منه، و الطود هو الجبل الشاهق في السماء، فقد أصبح البحر خندقا فيه طريق يبس مستو و طرفاه جبلان شاهقان من الماء، و يا لها من آية باهرة قاهرة، فانفلاق ماء البحر ككلّ آية، و الطودان بطرفي الطريق الممر آية، و بقاء البحر كحالته هذه حتى دخل فرعون بجنوده آية «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» (67)!.

إذا فما هي حيلة فرعون، هل يقف باهتا ساخطا يعض عليه الأنامل من الغيض؟ و هو يراه أقدر من موسى و من معه و هم يعبرون الخضمّ الملتطم!:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: أريد بيت ربي، فقلت: حبيبي انك صغير ليس عليك فرض و لا سنة، فقال: يا شيخ ما رأيت من هو أصغر مني سنا مات، فقلت: اين الزاد و الراحلة؟ فقال: زادي تقواي و راحلتي رجلاي و قصدي مولاي، فقلت: ما أدري معك شيئا من الطعام؟

فقال: يا شيخ هل تستحسن ان يدعوك انسان إلى دعوة فتحمل من بيتك الطعام؟

قلت: لا- قال: الذي دعاني إلى بيته هو يطعمني و يسقين»

أقول و الصبي كان علي بن الحسين (عليهما السلام) كما ذكر في أواسط هذا الكلام على طوله و اختصر منه ما ذكر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 49

وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَ أَنْجَيْنا مُوسى‏ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ‏ 66.

«و جاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون و جنوده بغيا و عدوا حتى كأنها جادة جادة لهم إلى المقصود، طريق مكشوف يعبرونها، و ها هم واصلون إلى جانب البحر، فليغمر الغيض بغمر الغيض ليفعل فعلته التي يروم، و لكن:

«إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ 90 آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ 91 فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ» (10: 92).

الإزلاف هو التقريب، و الآخرين هم فرعون و من معه أجمعين، فقد قرّب اللَّه فرعون و الذين معه إلى بحر الهلاك، و أنجى موسى و من معه من البحر الهلاك و البحر هو البحر و الماء هو الماء! «ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ» لما دخلوا البحر، عن آخرهم، و بطبيعة الحال لم يغرقوا إلّا حين طم البحر أوّلهم و آخرهم، و قد تعني «أزلفنا» إزلاف بعضهم إلى بعض ككومة واحدة، و إزلافهم إلى موسى و من معه، إلى ازلافهم الى البحر فازلافهم في خضمّه هالكين. «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 53 في الخرائج و الجرائح ان عليا (ع) قال: لما خرجنا إلى خيبر فإذا نحن بواد ملآن ماء فقدرناه فإذا هو اربعة عشر قامة فقال الناس يا رسول اللَّه (ص) العدو من ورائنا و الوادي أمامنا فكان كما «قالَ أَصْحابُ مُوسى‏ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ» فنزل (ص) ثم قال: اللهم إنك جعلت لكل مرسل علامة فأرنا قدرتك ثم ركب و عبرت الخيل و الإبل لا تندى حوافرها و لا أخفافها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 50

و قد ينسب اللَّه إزلافهم إلى نفسه المقدسة لأنه هو الذي كادهم بما جعل في البحر طريقا يبسا فطمع فرعون و جنوده لاجتيازه، ثم رجّعه إلى حالته الأولى فغرقوا أجمعين، فهم لم يكونوا يقدمون على غرقهم بذات أيديهم دون ريب، لو لا هذه المكيدة الربانية.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68).

«إِنَّ فِي ذلِكَ» الذي حصل في تلكم المباريات من آيات «لآية» و علامة قاطعة قاصعة لمن يحنّ إلى ايمان «و» لكن‏ «ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» و «هم» هنا قدر اليقين هم فرعون و ملؤه، و معهم بنو إسرائيل، فقد آمن من الأولين السحرة و قليل سواهم، كما آمن من الآخرين قليل، و قد يبرهن لهذه القلة الزهيدة الثانية «وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى‏ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى‏ أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (10: 138).

ثم و في واجهة عامة عدم الايمان من الأكثرية الساحقة أو المطلقة كان ضابطة في الطول التاريخي و العرض الجغرافي، اللهم إلّا زمن الدولة الحقة العالمية للقائم المظفر المهدي (عليه السلام)، «وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ» لا يغلب مهما تغلّب الكافرون و تقلبوا في البلاد «الرحيم» بعباده المؤمنين كواقع، و بكل عباده في حقل الدعوة الجماهيرية «فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ».

[سورة الشعراء (26): الآيات 69 الى 104]

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (69) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (70) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (71) قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)

قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قالَ أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78)

وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ (79) وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83)

وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ (88)

إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (91) وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93)

فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الْغاوُونَ (94) وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قالُوا وَ هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (98)

وَ ما أَضَلَّنا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (99) فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (100) وَ لا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103)

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 52

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (69).

خبرا ذا فائدة عظيمة لقبيل الايمان من ابراهيم، فانه عاش منذ طفولته جو الشرك، و بدل أن يتأثر- كما هو طبيعة الحال- أثر أثرا عميقا و أرجف صرح الشرك بوحدته رغم جمعه.

إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (70).

تلك التلاوة المباركة على المشركين الزاعمين انهم ورثة ابراهيم على دينه القديم، تنديدة شديدة بهم، انه خالف أباه و قومه إلى الهدى، و أنتم تخالفون ابراهيم و شرعته إلى الردى، فأنتم إذا خلف متخلفون فبماذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 53

تفتخرون؟.

فإلى حلقة الرسالة الإبراهيمية إلى قومه الألدّاء، و حواره الصارم معهم في قوة الأداء، و هنالك حلقات اخرى من صورة هذه الرسالة الوضاءة و سيرتها في البقرة و الأنعام و هود و ابراهيم و الحجر و مريم و الأنبياء و الحج، كلّ تناسب جو السورة بما تتطلبه الدعوة القرآنية .. و هنا اختصار دون احتصار لمحاجته أباه و قومه و لكلّ تفصيل في محالها من السور.

«إِذْ قالَ‏ .. ما تَعْبُدُونَ» و هنا ل «ما» دورها في تجهيلهم بعبادتهم غير العاقل، و يتساءلهم عن ماهيتها لكي يركز حواره على جوابهم عنها، و هذه طريقة حسنى في الحوار ان تتبنى ما عليه محاورك فتبني عليه محاورك سنادا إلى ما يعترف به.

قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (71).

«أصناما» من مختلف المواد ننحتها «فنظل» دوما أحيان العبادة «لها» دون سواها «عاكفين» عكوف العبادة و عبادة العكوف ممن يسمّون أناسي أحياء لجثث غير ذوات الأرواح.

و في «نظل» غير الداخلة في صميم الجواب اظهار لصميم عبادتهم لها بكل ابتهاج تثبتا للجواب.

قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73).

فسمع السؤال عن سؤل، ثم نفع منهم لكم أو ضرّ، هذا هو أقل ما يتوفر لإله يعبد، فان كانت صماء لا تسمع كما هي، فهل تملك نفعا أو ضرّا دون ان تسمع لحاجة، فإذا «لا» كما هيه فعبادتها- إذا- لاغية! حيث العبادة تعني حرمة المعبود و حاجة إليه طلب نفع أو دفع ضر، و هذه العبادة خاوية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 54

عن كل معانيها و مغازيها.

هنا يخرس قومه و أبوه عن إجابة قاصدة عاقلة إلى ما تعوّدوه من قولة لاغية:

قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (74).

لا حجة لنا فيما نعبد إلا تقاليد الآباء، و لكن: ألم يكن الموحدون من أنبياء و سواهم من آبائهم، فهم تاركوهم، ثم هم على آثار المشركين منهم يهرعون، ثم السؤال ينتقل إلى آباءهم المشركين، و ليس الجواب إلّا نفس الجواب‏ «بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ» فليصل إلى الأب الأول أول الموحدين، فلما ذا تركتموه على أبوته الأولى، إلى المتخلفين من ولده المشركين، ترجيحا للمفضول على الفاضل؟

قالَ أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ (77).

فقد عبد شطر من آباءكم الأوّلين رب العالمين، و عبد آخرون سواه، «أ فرأيتم» نظرا إلى كيان المعبودين إلها و سواه؟ «فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي» جميعا «إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ» عداء للفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها، و للعقلية الانسانية و ما دونها، و لأية مرحلة دانية من الإدراك، فإنهم كلهم بمعبوديهم من المربوبين لرب العالمين.

فالاستثناء- إذا- متصل، حيث الآباء الأولون لم يكونوا جميعا من المشركين، و في ذلك الانضمام تأشير عشير أن آباءكم الأقدمين لم يكونوا كلهم مشركين، ثم‏ «فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي» جمع بين العابدين و المعبودين، الجدد و الأقدمين، إشارة إلى أن القدمة بمجردها ليست دليل القبول، فليخلط القديم و الجديد، و ليقبل منهما القابل للتصديق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 55

ثم و عباده اللَّه بعابديه أقدم ممن سوى اللَّه عابدين و معبودين، إن كانت القدمة دليلا يتبع، فالأب الأوّل- آدم (ع)- كان موحدا داعيا إلى التوحيد، ثم الذين معه و بعده من الموحدين و ترى كيف تشمل «عدوّ» الأصنام و هي لا تشعر كما اعترف به عابدوها؟ علّها العداوة الآجلة يوم الدين حيث ينطقها اللَّه كما قال: «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» (19: 82).

أم و العاجلة حيث العداء ذاتية بين المعبود بغير حق و العابد العاقل مهما لم يشعره الصنم، أم لأنه سبب الضلال فعدو و إن لم يشعر، أم لأن في المعبود من دون اللَّه عملاء كالطواغيت؟ و الجمع أجمل فانه اشمل.

و إنما أفرد «عدوّ» رغم جمع الأصنام، حيث العداوة هنا واحدة و في اتجاه واحد، كما «هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ» (63: 4).

فأنتم وصفتم أصنامكم بما وصفتم، و ارتكستم كما ارتكستم، فتعالوا معي لتعرفوا «رَبَّ الْعالَمِينَ» الأقدم في كونه معبودا، و المالك لبراهين الألوهية الحقة:

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ (79) وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82).

أبواب ثمان لمعرفته تعالى عدد أبواب الجنة، لا يتركها إلّا كل ذي جنّة:

1- «الَّذِي خَلَقَنِي» فهل الخالق أجدر بأن يعبد أم المخلوق؟ يقدم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 56

خلقه نفسه لأنه اقرب آية و اثمنها و أتقنها دليلا على خالقه‏ «1» 2- «فَهُوَ يَهْدِينِ» لا سواه، حيث الهداية الكاملة الشاملة تقتضي كامل القدرة و العلم و شامله لمن يهدي، فقد انشأني من حيث يعلم و أنا لا أعلم و لا من سواي ممن أنشأه، فهو العالم بسؤلي لا سواه، و العارف بحالي و مآلي و كل مالي لا سواه «فهو» إذا «يهدين» إلى ما خلقني لأجله، و قد هداني فطريا و عقليا و حسيا إليه، و أراني آياته في الآفاق و في نفسي‏ «أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ»؟ هناك «خلقني» هو محور المعرفة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور: 5: 89- عن سمرة بن جندب قال: قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذا توضأ العبد لصلاة مكتوبة فأسبغ الوضوء ثم خرج من باب داره يريد المسجد فقال حين يخرج: بسم اللَّه الذي خلقني فهو يهدين هداه اللَّه للصواب-

و لفظ ابن مردويه- لصواب الأعمال‏ «وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ» أطعمه اللَّه من طعام الجنة و سقاه من شراب الجنة «وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» شفاه اللَّه و جعل مرضه كفارة لذنوبه‏ «وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ» أحياه اللَّه حياة السعداء و أماته ميتة الشهداء «وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» غفر اللَّه خطاياه كلها و إن كانت اكثر من زبد البحر «رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» و هب اللَّه له حكما و الحقه بصالح من مضى و صالح من بقي‏ «وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» كتب في ورقة بيضاء ان فلان بن فلان من الصادقين ثم وفقه اللَّه بعد ذلك للصدق‏ «وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ» جعل اللَّه له القصور و المنازل في الجنة. و

في تفسير البرهان 3: 184- ابن بابويه بسند متصل عن الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال: سألته عن قول اللَّه عز و جل: «وَ إِذِ ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ» و ذكر الحديث فيما ابتلاه به ربه إلى أن قال: و التوكل بيان ذلك في قوله: الذي خلقني- إلى- يوم الدين- ثم الحكم و الانتماء إلى الصالحين في قوله: رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» يعني بالصالحين الذين لا يحكمون إلا بحكم اللَّه عزّ و جلّ و لا يحكمون بالآراء و المقاييس حتى يشهد له من يكون بعده من الحجج بالصدق بيان ذلك‏ «وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 57

ثم‏ «فَهُوَ يَهْدِينِ ..» و ما بعدها من التدبير تتمحور الخلق، تفريعا للتدبير على الخلق، و ان الخالق هو المدبر لما خلق لأنه الخالق، و هما لزام بعض فطريا و عقليا و واقعيا، و ليس الفصل بين الخالق و المدبر ألّا عضلا للخالق عما خلق و هو به أعرف و عليه أقدر، و إعطاء التدبير لغير الخالق و هو مخلوق كسائر المخلوق، لا يسطع على تدبير نفسه فضلا عن الآخرين.

و «يهدين» بصيغة المضارعة بعد خلقني الماضي، اشارة إلى استمرارية الهداية في كل حلقاتها ما دام الكائن كائنا، كما الهداية تعم كل شئونه بل و كل شي‏ء و كما في جواب موسى لفرعون: «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» (20: 50).

3- «وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي» كفالة حانية حامية عن جوعتي و هي سؤل الجسم، فكيف لا يكفل سؤل الروح، و الهداية تشمل كل سؤل بسؤال و دون سؤال! 4- «و يسقين» فمادة الإطعام و السقي هي من خلقه، و معرفة الحصول عليها هي بهدايته.

5- «وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» فالمرض مني لمكان «مرضت» و الشفاء منه و الدواء منه و علم الأدواء و الإدواء منه مهما كان هنالك أطباء، فإنهم بعلومهم منه، و قد يمرض اللَّه لما قدمت أيدينا ام لإصلاحنا فهو منا.

6- «وَ الَّذِي يُمِيتُنِي» كما خلقني، فلا يميت إلا الخالق مهما كانت للموت ظاهرة الأسباب.

7- «و يحيين» ليوم الحساب، يوم تتقطع الأسباب و تحار دونه الألباب.

8- «وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» لا سواه، إذ لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 58

غافر إلا إياه حيث المعصي و المطاع- كإله- ليس إلّا إياه.

و قد جمع ذلك التعريف العريف برب العالمين إلى ربوبيته المادية الربوبية الروحية، و إلى الهدى المادية الهدى المعنوية، و إلى ربوبية العاجل ربوبيته في الآجل، جمعا بين المبدء و المعاد و ما بين المبدء و المعاد، و ذلك هو «رَبَّ الْعالَمِينَ» ليوم الدنيا و يوم الدين، أما أنتم‏ «نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ» دون ان تحمل أيا من هذه المواصفات الثمان التي هي لزام الربوبية و المعبودية! فأنى تؤفكون؟ أ إفكا آلهة دون اللَّه تريدون؟.

و لماذا بالنسبة لغفر الخطيئة «أطمع» دون قطع رغم وعده تعالى للمؤمنين، دون سائر ما ذكر من قبل؟ لأنها كلها مقطوعة غير ممنوعة حسب سنة التكوين، و لكن الغفر يوم الدين ليس سنة قاطعة «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» (4: 48). و هل ان ابراهيم كان مخطئا و هو نبي حتى يطمع غفره يوم الدين؟.

إنه يقوله قبل حكمه الرسالي الذي يتطلب العصمة المطلقة «رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً» فلعل له خطيئة قبل عصمة الرسالة! أم إنه تطامن و تذلل أمام الرب قصورا عما يناسب ساحته تعالى، و علّ منه طلب الغفر لأبيه و هو قبل حكمه الرسالي.

ثم هذا لسان حال المقربين و قالهم تذليلا لساحتهم و تبجيلا لساحة رب العالمين ف «حسنات الأبرار سيئات المقربين» ثم و تعليما للمخطئين كيف يجب عليهم ان يستغفروا اللَّه.

و ما هو دور «لي» في‏ «يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي»؟ علّه سلب لوسيط الشافع فانه غفر للشافع كوسيط، و كذلك سلب لانتفاعه تعالى بغفره، و انما «لي».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 59

و لماذا «يَوْمَ الدِّينِ» و ظرف الغفر الصالح هو يوم الدنيا؟ علّه لأن الغفر يوم الدين هو المهم في غفر الخطايا، و البرزخ ليس محل الغفر، و الغفر يوم الدنيا قد تلحقه خطيئة اخرى، و لكن الغفر يوم الدين هو الكاسح الماسح غبار الخطيئة بأسرها.

هنا يسأل الخليل بجدارة ربّه الجليل زادا لراحلة الدعوة الرسالية، عاجلا و آجلا إذ نجح في ذلك الاختيار:

رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83).

و ذلك حكم رسالي خاص يطلبه بعد الرحمة العامة، فهناك‏ «رَبَّ الْعالَمِينَ» في مواصفات تدرّ رحماتها على العالمين، و هنا «رب» نظرا إلى الربوبية الخاصة لأصحاب الحكم من اللَّه، فيستوهب- إذا- «حكما» ما لم يكن له لحدّ الآن، و ليتزود به في دعوته الصارمة أمام الدعايات الضالة العارمة.

و قد يجمع الحكم المستوهب هنا تحكيم الأحكام الفطرية و العقلية و العملية، إلى الحكم و الحكمة الرسالية، حيث الحكم أعم من الرسالة، و إطلاقه هنا يعمها و سواها من حكم يستحكم عرى الدعوة الإبراهيمية الشاملة، و لحد الإمامة بين المرسلين نسبيا.

و قد يعني‏ «أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» اضافة إلى يوم الدين، لحوقه بهم يوم الدنيا، ان يكون من زمرتهم و هم الرعيل الأعلى من المقربين، نوح و موسى و المسيح و خاتم النبيين صلوات اللَّه عليهم أجمعين.

و قد يعني من‏ «هَبْ لِي حُكْماً» كمال القوة النظرية المستكملة بقوة الوحي، و من‏ «أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» كمال القوة العملية و كما بالنسبة لمن جعلهم اللَّه أئمة و هو منهم‏ «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 60

الخيرات ..» (21: 73).

وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84).

و قد استجاب له دعواته، فالأخيرة نجدها في مريم‏ «فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا (49). وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» (50).

«لِسانَ صِدْقٍ» هنا هو لسان صادق مصدّق مصدّق حالا و قالا و أفعالا، و «الآخرين» هم حملة الرسالة الأخيرة، محمد (ص) كرأس الزاوية، و سائر الأئمة من ولده كسائرها «1» و قد تعني ما تعنيه آية الصافات، كمريم‏ «وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ» (108) و الزخرف: «وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (28) و طبعا كبعض المصاديق الصالحة «2» و دعاء من ابراهيم تستمر طيلة حياته المنيرة و حتى بناء البيت و هو في أخريات عمره: «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية في سورتها و في تفسير البرهان 3: 184 تتمة الحديث السابق عن الصادق (عليه السلام) «.. بيان ذلك في قوله‏ «وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» أراد في هذه الأمة الفاضلة فأجابه اللَّه و جعل له و لغيره من الأنبياء «لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» و هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) و ذلك قوله: «وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» ...».

و في ملحقات أحقاق الحق 3: 380 في الآية «هو علي (عليه السلام) عرضت ولايته على ابراهيم (عليه السلام) فقال: اللهم اجعله من ذريتي ففعل الله ذلك» أورده عدة من أعلام القوم منهم الحافظ أبو بكر ابن مردويه في كتاب المناقب كما في كشف الغمة 94 روى عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: ... و منهم المير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي 55 نقلا عن ابن مردويه عن الباقر (عليه السلام).

(2) راجع تفسير آية الزخرف للحصول على تفصيل المعنى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 61

.. رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ..» (2: 129).

و قد يلمح‏ «لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» أن من الأولين و من بعدهم كاذبين بحقه، كما اليهود و النصارى ينسبون إليه ما هم يعتقدون من ضلالات في حقل المعرفة و العمل، و أما محمد (ص) فهو لسان صدق له في الآخرين، استمرارية لدعوته الرسالية، و إفصاحا بكيان ابراهيم كأفضل الموحدين.

وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85).

و هم‏ «مَنْ كانَ تَقِيًّا»: «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا» (19: 63) و (39: 74) و المؤمنون حقا: «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ. وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ. وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ. إِلَّا ... وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ. وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ. أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ» (23: 2- 11) و العاملون الصالحات بايمانهم: «.. وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا ... وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (7: 43) و (43: 72).

و هل هي ميراث عن اللَّه‏ «وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (3: 180) يرث و لا يورث! أم ميراث عن صالحين؟ و هم أنفسهم من ورثة جنة النعيم! إنها ميراث لهم عمن ليسوا بداخليها حيث طغوا و ما اتقوا، و ابراهيم يستدعي بعد ما دعى أن يصبح من أهل الجنة، و طبعا من أئمتهم و كما كان يوم الدنيا.

و يا للتواضع و الإشفاق من التقصير، و يا للخوف من تقلب المصير،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 62

ان مثل الخليل يطلب من الجليل ان يجعله من أهل الجنة، على علو محتده! وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ‏ 86.

و قد يكون ذلك التطلّب من خطيئاته، غير المحرمة في شرعة اللَّه، حيث لم يصب فيها واقع الأمر كما استدركه له ربه‏ «وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» (9: 114) و استثني من الأسوة به ذلك الخطإ، غير القاصد «قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ‏ ... إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ..» (60: 4).

و علّ الموعدة هي المفهومة من قول أبيه‏ «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» كما شرحناه في مريم، و ذلك الاستغفار كان في بداية عمره و مفتتح أمره قبل حكمه الموهوب، ثم لم نسمعه يدعو في خاتمة أمره و عمره إلّا: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ» (14: 41) دون ابوي، و قد تبرء من أبيه منذ دحر طويل، فوالده- إذا- غير أبيه كما فصلناه في محالّه.

و قد تلمح‏ «إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ» الى ضلاله المحتوم قبل موعدته التي أخرجته عن حتمه، و الضال المتحري عن الحق ليس كالمتجري على الحق، فيدعى للأوّل دون الأخير.

و ذلك من حنانه في الدعوة لمن هو كوالده في شأنه التربوي، مهما كان مشركا و لكنه‏ «.. وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» أصبحت كوعد له بالإيمان فسلم عليه و وعده الاستغفار «قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا» (19: 47).

و قد يبدو من‏ «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» انه كان قبل موته، و قد تبين له خلف وعده و أن لم يكن‏ «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» ليجد مجالا للتفكير، و انما مجالا مليا كيلا يسمع دعوة الحق ثم لكل حادث حديث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 63

فبطبيعة الحال لم يكن هذا الدعاء فور تركه أباه، و انما بعد مليّ أم لمّا اوتي حكما فتبين له انه عدو اللَّه.

وَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ 87 يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ 88 إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ‏ 89.

و كيف «لا تخزني» بعد «وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ»؟ إنه دعاء و ليس هو في واقعه حتى يتقدم سلبه على إيجابه، ثم هو مع إيجابه دعاء على تخوّف من سلبه، و هذه قضية أدب العبودية حيث يحصر النصرة في اللَّه، فإذا لم ينصره في الدنيا أو الآخرة خزي، و كما

كان يدعو رسول الهدى (ص) في صلاته «اللهم لا تخزني يوم القيامة» «1».

و ليس من الخزي المطلوب سلبه دخول آزر في الجحيم، إذ لم يكن والده و قد تبرء منه قبل موته، فرواية الخزي مخالفة لكتاب اللَّه و ساحة الرسول (ص) بريئة من أمثالها «2».

ثم‏ «إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ» (16: 27) فكيف يستسلبه ابراهيم عن نفسه؟ ان الخزي- و هو عدم النصر ممن يؤمل منه النصر- قد يكون طاما في دركاته فهو للكافرين كما السوء، و قد يكون جانبيا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 90- اخرج احمد عن رجل من بني كنانة قال صليت خلف النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عام الفتح فسمعته يقول: ...

(2)

في الدر المنثور- اخرج البخاري و النسائي عن أبي هريرة عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة و على وجه آزر قترة و غبرة يقول له ابراهيم: الم اقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول ابراهيم: رب انك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزي من أبي الأبعد؟ فيقول اللَّه: إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال: يا ابراهيم ما تحت رجليك؟ فإذا هو بذيخ متلطخ فيوخذ بقوائمه فيلقى في النار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 64

لتقصير أو قصور و هو يعم سائر المؤمنين، «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» و ابراهيم يدعو بما يدعو و لمّا يؤت حكما، و هو على تخوّف من عاقبة حاله يوم الدين، فلأن‏ «يَوْمَ يُبْعَثُونَ» هو «يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ» فلا ناصر- إذا- إلّا اللَّه.

و هل الآية «يَوْمَ لا يَنْفَعُ ..» إلى سبعة عشر آية هي من تتمة دعاء ابراهيم؟ و هو بعيد كل البعد عن حالة الدعاء، ان تشمل على تفاصيل لا صلة لها بالدعاء إلّا تعريفا لمن لا يعرف! فهي- إذا- من كلام الجليل يلحّق بها دعاء الخليل، تكملة للمعرفة في هذه الإذاعة القرآنية.

«يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ» إذ ليس هنالك مال، و لا ينفع يومئذ مال الدنيا بما هو مال لزوال المجال، «وَ لا بَنُونَ» حيث تنقطع هناك كل الصّلات: «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ» (23: 101)- «وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى‏ كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَ ما نَرى‏ مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» (6: 94).

اجل انه‏ «يَوْمَ لا يَنْفَعُ ..»- «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» فينفعه ماله الذي قدمه في سبيل اللَّه، و بنوه الذين رباهم على شرعة اللَّه، فان كان له مال و بنون فاستثناء متصل، و إن لم يكن له مال و لا بنون فقد يكفيه قلب سليم، فاستثناء منقطع، و الجمع بينهما أجمل و أكمل، حيث المال المصروف في اللَّه، و البنون الصالحون، هما في الباقيات الصالحات: «الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا» (18: 46) فهناك النفع ينحصر في قلب سليم بمخلفاته مهما لم يكن لصاحبه مال و لا بنون، و ينحسر عن قلب غير سليم مهما كانت لصاحبه اموال و بنون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 65

اجل‏ «بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» من كل نائبة و آئبة عائبة، من كل مرض و غرض، و من كل حب و هوى إلّا اللَّه، و ليس نفع الشفاعة أيضا إلّا لمن ارتضى اللَّه‏ «لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏» (21: 28).

فالقلب‏

«السليم الذي يلقى ربه و ليس فيه أحد سواه، و كل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط، و انما أراد بالزهد في الدنيا لتفزع قلوبهم إلى الآخرة» «1».

«سليم من حب الدنيا» «2»

فان حب الدنيا رأس كل خطيئة،

«صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم لأن سلامة القلب من هواجس المذكورات تخلص النية لله في الأمور كلها ..» «3».

و ان سلامة القلب يومئذ تنفع بقدرها فانها درجات، كما ان عتامته تضر بقدرها فانها دركات، و النيات و الأعمال الصالحة هي من خلفيات سلامة القلب عما يرينه، و تزيده سلامة، كما الأعمال و النيات الطالحة تزيده عتامة، فكل خير أو شر من الإنسان هي صادرة من قلبه، فواردة إلى قلبه، فهو مورد كما هو مصدر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 58 في اصول الكافي القمي عن أبيه عن القاسم بن محمد عن المنقري عن سفيان بن عيينة قال‏ سألته عن قول اللَّه عز و جل: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»؟ قال: السليم ..»

و

فيه في آخر قال‏ قلت له: ما حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعا؟ فقال: التواضع درجات منها ان يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحب أن يأتي الى أحد إلا مثل ما يؤتى إليه، إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ عاف عن الناس و الله يحب المحسنين».

(2) المصدر مجمع البيان و روى عن الصادق (عليه السلام): ...

(3) المصدر عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام): ... قال اللَّه تعالى:

يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 66

فلأن «القلوب أئمة العقول و العقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمة الحواس و الحواس أئمة الأعضاء» فصاحب القلب المدعي سلامته، غير الصالح في اعماله، كاذب في دعواه، و قلبه مقلوب عن الهدى، مغلوب بطوع الهوى، و ليس الايمان- و هو حالة القلب- إلّا قرينا بصالح العمل، و كما نرى قرنه لزاما في كلّ القرآن.

وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ 90 وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ‏ 91.

«يَوْمَ يُبْعَثُونَ ..» و أزلفت الجنة و قرّبت للمتقين، الذين كانوا من عذاب ربهم مشفقين، «وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ» حيث كانت كامنة في الغاوين، فتبرز بما برز و ليوم الدين، و اما الجنة فهي قضية فضل اللَّه، مخلوقة بأرضها قبل يوم الدين، و لكن الجحيم تصلى بما يردها أهلوها من الغاوين، فلذلك الجنة تزلف و الجحيم تبرز: «وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ» (81: 13)- «وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ» (50: 31) فهنا إزلاف التقريب لغير بعيد، و هنالك تبريز التسعير حيث يحشر كلّ بعيد.

وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ 92 مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ‏ 93.

و «لقد ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ» (10: 30)- «وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ» (41: 48).

و ذلك سئوال التقريع و التأنيب بما كانوا يعبدون، و ظلوا عليها عاكفين، و هم ضلوا عنهم وقت الحاجة الحارقة، «هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ» هناك؟ «أَوْ يَنْتَصِرُونَ» لأنفسهم حين يعذبون؟ لقد ضل عنهم كيانهم كآلهة، و حين يبرز لهم كونهم فهم معهم معذبون، اللهم إلّا الصالحون من الملائكة و النبيين‏ «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 67

(21: 101).

و اما الطالحون‏ «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» (21: 98)- «وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ» (43: 39):

فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الْغاوُونَ 94 وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ‏ 95.

ثالوث منحوس هم صلاء النار، الأصلاء فيها: (1) إبليس بجنوده أجمعين (2) الغاوون (3) المعبودون من دون اللَّه أصناما و سواها إلّا المتقين، و مهما لم تشعر الأصنام عبادتها و لا عذابها، و لكن الغاوون العابدون يضاعف لهم العذاب إذ يرون آلهتهم يعذبون.

و الكبكبة هي الانكباب مرة بعد أخرى على الوجه، و «هم» هم المعبودون، «و الغاوون» هم العابدون‏ «وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ» هم المضلّلون من الجنة و الناس، لا فحسب‏

«ذريته من الشياطين» «1»

اللهم إلّا أن يعني ذرية الشيطنة، فالشياطين- إذا- هم أعم من الإنس، اجل! إنهم على كبكبتهم يوم الدنيا يلقون على وجوههم في النار يوم الدين، ويكأننا نسمع الآن من جرس اللفظ هنا جرس الكبكبة هناك في النار، لفظ يصور بجرسه لمعناه.

هنالك تبرز لهم آلهتهم التي ألهتهم بعد ما ضلوا عن ألوهتهم و إلى مسرح الحوار بين العابدين و المعبودين:

قالُوا وَ هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ 96 تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ 97 إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ‏ 98.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 58 في أصول الكافي بسند متصل عن محمد بن سالم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: جنود إبليس ذريته من الشياطين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 68

«قالوا» الغاوون المشركون‏ «وَ هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ» مع بعض، طواغيت و أصناما «تاللَّه» الذي لا إله إلّا هو «إن كنا» بتأكيد أكيد «لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» غارقين في خضمّه‏ «إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» تسوية جاهلة، ظالمة قاحلة، فانها في كل حقولها ضلال مبين يبين ضلاله.

فكل تسوية باللَّه، في ذاته او صفاته أو أفعاله، في عبوديته و احترامه كمعبود، في حرمة قلبية أو طقوس قالبية، كل ذلك ضلال مبين، بين إشراك جلي أو خفي أو عصيان. ف «اعلم ان من شبه ربّنا الجليل بتباين أعضاء خلقه، و بتلاحم أحقاق مفاصله، المحتجبة بتدبير حكمته، إنه لم يعقد غيب ضميره على معرفته، و لم يا شهد قلبه اليقين بأنه لا ندّ له، و كأنه لم يسمع بتبري التابعين من المتبوعين و هم يقولون:

«تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» فمن ساوى ربنا بشي‏ء فقد عدل به، و العادل به كافر بما تنزلت به محكمات آياته و نطقت به شواهد بيناته، لأنه اللَّه الذي لم يتناه في العقول فيكون في مهبّ فكرها مكيّفا، و في حواصل هويّات همم النفوس محدودا مصرّفا، المنشئ اصناف الأشياء بلا رويّة احتاج إليها، و لا قريحة غريزة أضمر عليها، و لا تجربة أفادها من موجودات الدهور، و لا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور» «1».

و ترى كيف‏ «نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» و هم كانوا يعبدونهم دون اللَّه؟

علّ القصد من التسوية في اصل العبادة، فكما اللَّه يعبد كذلك كنا نعبد أصناما كأنها اللَّه.

ثم التسوية بين اللَّه و خلقه محظور في كل الحقول المعرفية و العبودية و الطاعة و الاحترام، إن كانت تسوية واقعية فضلال مبين، و إن كانت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

التوحيد للصدوق خطبة لعلي (عليه السلام) يقول فيها: ايها السائل اعلم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 69

ترجيحا لغيره عليه فإشراك إلحاد أم إلحاد.

و التسوية إن كانت قاصدة فإشراك أو إلحاد جلي، و إن كانت جاهلة فإشراك خفي، فمن يسجد أو يركع لغير اللَّه معصوما و سواه، كما يركع و يسجد للَّه، فان كانت عبودية فإشراك جلي، و إن كانت احتراما فخفي.

و من يقول لو لا فلان لما نجحت، فقد سوى باللَّه سواه، أو قال إن شاء اللَّه و شاء فلان فكذلك الأمر، أو كتب اسم اللَّه ردف اسماء من سواه، قاصدا تسويتها به و غير قاصد، فهو- على أية حال- في ضلال، مهما اختلفت دركاته، من فسوق، إلى شرك خفي، إلى شرك جلي، و إلى الحاد في اللَّه.

اجل و كل تسوية باللَّه قاصدا و سواه، إنها ضلال مبين، فإنها تسوية بين الفاضل و المفضول، أم و انحس منها و أنكى ترجيح للمفضول على الفاضل.

وَ ما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ‏ 99.

ويكأن المشركين الغاوين ليسوا هم من المجرمين، ام يعنون بهم اصول الإجرام من جنود إبليس الذين أضلوهم.

فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ‏ 100.

عند اللَّه، لا المعبودون من دون اللَّه و لا المجرمون، و «شافعين» بديل «شافع» تلمح أنهم على علم من شافعين هناك يشفعون للبعض من أهل الجحيم و هم موحدون، فيتحسرون على حرمانهم و وجد من سواه من المعذبين‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في المجمع و في الخبر المأثور عن جابر بن عبد اللَّه قال سمعت النبي (صلى اللَّه عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 70

وَ لا صَدِيقٍ حَمِيمٍ‏ 101 الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (43: 67) و حتى لو كان هناك صديق فليس حميما، و لو كان حميما فهنالك الصلات منقطعة، فانه‏ «يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ‏ 102.

«لو» تحسّر لما يرونه من المستحيل‏ «أَنَّ لَنا كَرَّةً» إلى حياة التكليف‏ «فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»: «وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» (6: 28).

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 103 وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ‏ 104.

«إِنَّ فِي ذلِكَ» العرض الفسيح الفصيح لقصة ابراهيم و قومه «لآية» لهؤلاء المشركين زمنك يا رسول الهدى‏ «وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» مهما تواترت عليهم آياتنا البينات‏ «وَ إِنَّ رَبَّكَ» الذي رباك بخاصة الربانية «لَهُوَ الْعَزِيزُ» الغالب القادر على الغادرين «الرحيم» بالمؤمنين، فلا تأس على القوم الكافرين، و لا تيأس من رحمة ربك العزيز الرحيم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و آله و سلم) يقول: إن الرجل يقول في الجنة: ما فعل صديقي؟ و صديقه في الجحيم، فيقول اللَّه: اخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي في النار «فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ. وَ لا صَدِيقٍ حَمِيمٍ».

و

روي بالإسناد عن حمران بن أعين عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: و اللَّه لنشفعن لشيعتنا ثلاث مرات حتى يقول: «فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ. وَ لا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 71

[سورة الشعراء (26): الآيات 105 الى 122]

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (108) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ (109)

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (110) قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قالَ وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسابُهُمْ إِلاَّ عَلى‏ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114)

إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119)

ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (120) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 72

ثمانية عشر آية تستعرض دعوة نوح الرسالية حوارا مع قومه بصورة خاطفة منذ البداية حتى غرقهم أجمعين:

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ‏ 105.

«قوم» في لفظها مؤنث تصغيرها قويمة، يجوز في فعلها المقدم الوجهان و من الثاني: «لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» و هي كالظرف و المجرور، تعم حين انفرادها القبيلين، و حين تنضم إلى نساء تعني قبيل الرجال، كما «قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» تلحقها «وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ».

«قَوْمُ نُوحٍ» هم كل المرسل إليهم نوح، و هو أوّل من دارت عليه الرحى من أولي العزم الخمسة، و قصة نوح تقصّ في سور عدة «1» و تختص بها سورة واحدة، مما يشي إلى بالغ الأهمية في عرضها في هذه الإذاعة العالمية القرآنية، كقصة موسى و ابراهيم و المسيح و محمد صلوات اللَّه عليهم أجمعين.

و ترى كيف‏ «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ»؟ و لم يأت في سائر القرآن إلّا تكذيبهم- فقط- نوحا لا سواه! علّه لأنه تكذيب لسلسلة الرسالات ككل، فان مقالهم هو مقال تكذيب الرسالة بأسرها، و ان تكذيب رسول واحد ثابت الرسالة بآياتها هو تكذيب للرسالات كلّها، و لا سيما الرسالة الأولى و هي مفتتح ولاية العزم، أم لأنه‏

«مكث نوح ألف سنة إلا خمسين عاما لم يشاركه في نبوته أحد، و لكنه قدم على قوم مكذبين للأنبياء الذين كانوا بينه و بين آدم ..» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كالأعراف و يونس و هود و المؤمنون، و الخاصة به سورة «نوح».

(2)

نور الثقلين 4: 62 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى محمد بن الفضل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي (عليهما السلام) حديث طويل يقول فيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 73

إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لا تَتَّقُونَ‏ 106.

«إذ قال» هنا كظرف لذلك التكذيب الجماهيري، تؤيد أن تكذيبه كان تكذيبا للمرسلين، مهما سبقه تكذيبهم من قبل.

و تلك الأخوة هي الأخوة في الإنسانية و في المواطنة، فلا بد أن تنجر إلى الأخوة في حق الإنسانية من هداها، طردا لرداها، و من حق الأخ على الأخ ان يحاول في هداه و قد فعل نوح و بلسان الأخوة الحانية «أَ لا تَتَّقُونَ» اللَّه فيما تبغون و أنتم تطغون؟ و «أَ لا تَتَّقُونَ» في بزوغ الدعوة مما يزعزعهم عن تقاليدهم الجاهلة، و يجعل إلى قلوبهم منفذا للاستماع إلى الدعوة الرسالية، تخوّفا من الواقعة الموعودة، إذ هم ليسوا على علم مما هم عليه.

و لأن تقوى اللَّه لا بد لها من صورة كما لها من سيرة، فوسيط الرسالة هو لزامها على أية حال، و كأنه يجيب بعدئذ عن سئوال كيف نتقي اللَّه؟

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ‏ 107.

أمين على رسالة اللَّه إليكم، فلا تجدون فيّ خيانة في تلك الأمانة حالا و مآلا و أفعالا، و كما لمستموه مني حتى الآن، إذ ما خنتكم كخلق اللَّه و مرسلا إليكم من اللَّه، فكيف أخونكم في رسالتي لكم من اللَّه؟ و هنا يعود مرة ثانية يأمرهم بتقوى اللَّه بذريعة الرسالة:

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ‏ 108.

«أطيعون» في: كيف يتقى اللَّه، فإني أحمل رسالة اللَّه بكل امانة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فمكث نوح ... و ذلك قوله: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ» يعني من كان بينه و بين آدم إلى ان انتهى إلى قوله: و ان ربك لهو العزيز الرحيم- و قال فيه ايضا: فكان بين آدم و نوح عليهما السلام عشرة آباء كلهم أنبياء، و في روضة الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن محمد بن الفضل عن أبي حمزة عن أبي جعفر (عليه السلام) مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 74

ثم و لا أكلفكم على رسالتي- بكل صعوباتها و ملتوياتها و منحنياتها- اجرا، مما يزيد لي تصديقا:

وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ‏ 109.

و عدم سئوال الأجر أو قبوله سنة مستمرة طول خط الرسالات، مما يسهّل الإقبال إليها دونما صعوبة و تكلف، فالركن الأوّل لها هو الايجابي:

«إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» و الثاني هو السلبي: «وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» فالدافع لتصديقها واقع، و المانع عنها غير واقع، فما بقي هنا إلّا القبول، و بطبيعة الحال لا يدعي الرسول ما يدعيه دون برهان مبين يقطع كل الأعذار و يقنع الأفكار.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ‏ 110.

يكرر هنا الأمر بتقوى اللَّه و طاعته هو كرسول اللَّه، لتكرار الدافع لها، و هو السلب إلى الإيجاب، و هذه ثالثة ثلاثة في أمر التقوى، مما يدل على انها هي المحور الأصيل في كل شرعة إلهية، حيث تجتمع فيها كل الأصول العقائدية و الفروع العلمية، من واجبات و محرمات تجمعها تقوى اللَّه و طاعة الرسول في اللَّه.

و ذلك خلاف ما عهده الناس من الكهّان و قسم من رجال الأديان من استغلال الدين لابتزاز الأموال بشتّى الأساليب، فدعوة اللَّه الحقة متجردة عن كل أجر إلّا من اللَّه.

و خلاف عهد آخر لهم من النسناس المتزيين بزي الدعاة إلى الحق و هم في الحق على باطل نكد، فلكي يلصقوا باطلهم إلى قلوب الناس لا يطلبون أجرا بل و يصرفون أموالا طائلة و يرخّصون الجنس، و يقدمون كل ألوان المشتهيات الحيوانية، لكي يجلبوا أنظار الناس إلى ما يدعون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 75

و لكن رجالات اللَّه، الدعاة إلى اللَّه، هم متجردون عن كل هوى إلّا هوى اللَّه، و عن كل أجر إلّا من اللَّه، متزودين بآيات اللَّه البينات، واقعيين متصلبين في وجهاتهم الدعائية لا تحركهم العواصف و لا تزيلهم القواصف.

و المهم في دعامتي الرسالة الحقة الأمانة ثم الأمانة، و ليس عدم سئوال الأجر إلّا قاطعا للأعذار المادية بعد قطع الأعذار المعنوية، فليس- إذا- مستقلا بجنب الأمانة، و لذلك تأخر عنها تأكيدا للتصديق.

فالرسول الأمين الذي يطلب أجرا لا يتوفّق في دعوته لا سيما و الأكثرية الساحقة من المهتدين فقراء، و غير الأمين و إن دفع أجرا بديل طلبه إياه لا يدعو إلّا إلى النار، فليكن الرسول جامعا بين الأمرين‏ «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ».

قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ‏ 111.

«فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى‏ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ» (11: 27).

نعم «الأرذلون» «أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ» المعروفون عندهم بحساب الهوى و قيم الدنيا الرذيلة، ألّا مال لهم و لا منال، فلو كانت دعوتك حقة لاتبعك الأعلون، ذوو الحنكة المتحضّرون، فلمّا اتّبعك الأرذلون عرفنا أن دعوتك رذيلة لا تحمل أية فضيلة.

أم إن كانت دعوتك حقة فلتطرد التابعين الأرذلين حتى يفسح لنا مجال اتباعك، حيث التسوية بيننا و بينهم ضلال مبين.

لكن «الأرذلون» في ميزانهم المتأرجف اللعين هم السابقون دوما إلى الرسل، أخفاء في قبول الحق لا تثقلهم و تقعدهم عنها أغلال الثروات و الطنطنات و الكبرياءات و المصلحيات القائمة على الأوضاع المزيفة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 76

فإيمانهم الموعود شريطة طرد المؤمنين: «الأرذلون» في حسابهم هو خلاف متن الايمان و قضيته، حيث يوحّد بين قبيل المؤمنين، فلا أكرم عند اللَّه منهم إلّا أتقاهم، و لا فوارق بينهم إلّا تقواهم، فهي التي توحّد صفوفهم، و هي التي تميز بينهم بفاضلها.

هنا نجد الجواب الحاسم من نوح في حلقات أربع كل واحدة تكفي حسما لعذرهم الغادر:

قالَ وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ‏ 112.

فإن كانت «الأرذلون» حالتهم السابقة على الايمان، فما علمي بأعمالهم السابقة؟ و إنما المعلوم عندي حالتهم الحالية و هي الايمان، و ذلك هو المطلوب منهم الآن أيا كانت أعمالهم السابقة.

و حتى لو كانوا محاسبين برذالة سابقة- و لا يحاسبون- «يغفر لهم ما سلف» بايمانهم الخلف، ف:

إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى‏ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ‏ 113.

و لست أنا المحاسب، فما أنا إلّا رسول الإيمان إلى أيّ كان، فحين تؤمن جماعة مهما كانت حالتهم السابقة رذيلة، كيف أطردهم، و ما حسابهم عند اللَّه إلا حسنا يسيرا فليس- إذا- «وَ ما عِلْمِي‏ ... إِنْ حِسابُهُمْ» إلّا تنازلا في الحوار، أن ليس عليّ حساب لو أنهم محاسبون بما كانوا يعملون و لن! ثم و ما عليّ إلّا البلاغ المبين فقبولا لايمان من أقبل دون أية محاسبة.

وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ‏ 114.

فبأية حجة أطرد المؤمنين و ما أحمل إلّا رسالة الايمان‏ «وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29) وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (30) ... وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 77

أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ» (11: 31).

و هذه سنّة رسالية دائبة: جذب المؤمنين و طرد المعاندين، فكيف- إذا- أطرد المؤمنين؟ «وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ» (6: 52) أطردهم ثم أطري الكافرين المتطاولين المستكبرين؟!.

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ‏ 115.

«نذير» من عذاب أليم «مبين» سبب النذارة و مادتها، فكيف أطرد المنذرين المؤمنين لرغبة المتأنفين المستكبرين، فان هي- إذا- إلّا رسالة الظلم و الاستكبار!. و لقد قلت لكم من ذي بدء «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» و تلك- إذا- خيانة في الرسالة أن أطرد المؤمنين، و نقضا لصالحها إلى مصلحية الجمع لجم غفير من المستكبرين و هم كاذبون، بذلك يثبت نوح جدارة هذه الرسالة الأمينة أنها لا تخضع لرغبات الأقوياء الأغوياء، و إنما لحكم اللَّه جذبا للأبرياء الأتقياء.

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ‏ 116.

هذا جواب العاجز اللعين إذ يتنقّل من الحجة- إذ يراها عليه لجة- إلى التهديد «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ» عن دعوتك و دعايتك‏ «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ» و قد كان الرجم أشد عقوبة للمتخلفين، فقد بدأوا بحوار، ثم تطلّبوا منه أن يأتيهم بما يعدهم: «قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (11: 32) و آخر المطاف‏ «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ»! قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ 117 فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 78

مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ‏ 118.

عرض لحال معلومة عند اللَّه، و لكنها موقف الدعاء تعرض فيه كل حالة بقالة متواضعة، و لأن تكذيب الرسالة راجع إلى تكذيب المرسل فنوح هنا في ذلك العرض يتطلب إلى ربه ان يعالج موقفه الرسالي بفتح منه و نجاة له و لمن معه من المؤمنين، مما يلمح أنهم هدّدوا بالرجم كما هو، و قد يشير إليه‏ «مِنَ الْمَرْجُومِينَ» ممن رجم أو يحكم له بالرجم. «فافتح ..» احكم بيني و بينهم حكما قاطعا و أمرا فاصلا، يفتح الباب المبهم بعد ما استصعب رتاجه، و أعضل علاجه، و يقال للحاكم: الفتّاح، لأنه يفتح وجه الأمر بعد اشتباهه و استبهام أبوابه‏ «وَ هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ» يفتح بعلم و يغلق ما انغلق و يفتق ما ارتتق.

و هذا الفتح هو بطبيعة الحال واقعه المميّز بين الفريقين و فيه نجاة المؤمنين و هلاك الكافرين دونما اقتراح لنوعية الفتح استسلاما لأمر ربه، فليس فتحا في حكمه شرعة لأنه كان واقعا منذ الدعوة، بل و منذ بزغت شرعة في هذه البسيطة.

و قد فتح اللَّه بينه و بينهم بعد ردح بعيد من الزمن، حيث الدعوة كانت ألف سنة إلّا خمسين عاما:

فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ 119 ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ‏ 120.

و لقد كان فلكه مشحونا بشحنات الحيوان من مختلف أجناسها، و من الذين آمنوا معه و

«المجهز الذي قد فرغ منه و لم يبق إلا دفعه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في كتاب كمال الدين و روضة الكافي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في‏ «الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 79

و هذا إجمال جميل سريع يصور النهاية الأخيرة للمعركة المصيرية بين ضفة الايمان و الكفر في فجر البشرية تقريرا غريرا غزيرا لمصائر المعارك التالية للبشرية إلى يوم الدين، ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار! إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 121 وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ‏ 122.

تلحيق مكرور في ختام العرض لهذه الدعوات الرسالية، بنفس الصيغة السابقة في عرض خاطف لمقابلة الكفار للرسالة الإسلامية، و لموسى و ابراهيم من قبل، ثم لهود و صالح و لوط و شعيب، آيات مكررات تعرض لهؤلاء المناكيد الأوغاد «وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» هنا و عبر التأريخ الرسالي‏ «وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ» الغالب على أمره غير مغلوب «الرحيم» بالمؤمنين.

[سورة الشعراء (26): الآيات 123 الى 140]

كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (126) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ (127)

أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (131) وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (132)

أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ (133) وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (134) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (136) إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137)

وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 80

تأتي قصة عاد اربع و عشرين مرة في سور عدة، في نجمها توصف بالأولى (50) مما يدل على انه اثنان، و لا خبر لنا عن الثانية، حيث الآيات كلها تتحدث عن الأولى، مما يدل على أنهم كانوا اظلم و اطغى، لحد أنسوها الأخرى.

و هنا تكرر المقالة البازغة بداية الدعوة الرسالية مرات خمس، تدليلا على وحدة الرسالات دعوة و مغزى، مهما اختلفت في أحكام جزئية حسب المصالح الوقتية أما هيه، و هنا بعد عرض الرسالة- كما أسلفنا تفسيرها- يندّد هود بقومه في نبرات‏ «1»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في كتاب كمال الدين و روضة الكافي مسندا عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 81

أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ‏ 128 و الريع هو المرتفع الرائع: فكانوا يبنون بكل مرتفع من الأتلال و الجبال و الغابات، ام مرتفعات صناعية «آية» قصرا يشي بعظمهم و صغار الآخرين «تعبثون» بآية الريع مختلف العبث: إسرافا في زخرفات البنيان زيادة عن الحاجة الحيوية اللازمة بجنب الفقراء المعوزين، الذين قد لا يجدون أكواخا فيها يسكنون، و كما

يروى عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «ان كل ما يبنى و بال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ابن علي الباقر (عليه السلام) في حديث‏ و قال نوح ان اللَّه تبارك و تعالى باعث نبيا يقال له هود و انه يدعو قومه إلى اللَّه عز و جل فيكذبونه و إن اللَّه عز و جل يهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به و ليتبعه فان اللَّه تبارك و تعالى ينجيه من عذاب الريح، و امر نوح ابنه سام ان يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة و يكون يوم عيد لهم فيتعاهدون فيه بعث هود و زمانه الذي يخرج فيه، فلما بعث اللَّه تبارك و تعالى هودا نظروا فيما عندهم من العلم و الايمان و ميراث العلم و الاسم الأكبر و آثار علم النبوة فوجدوا هودا نبيا و قد بشرهم أبوهم نوح به فآمنوا به و صدقوه و اتبعوه فنجوا من عذاب الريح و هو قول اللَّه عز و جل:

«وَ إِلى‏ عادٍ أَخاهُمْ هُوداً» و قوله: «كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ».

(1).

في المجمع- الخبر المأثور عن انس بن مالك‏ ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) خرج فرأى قبة فقال: ما هذه؟ فقالوا له أصحابه: هذا الرجل من الأنصار،، فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس أعرض عنه و صنع ذلك مرارا حتى عرف الرجل الغضب به و الأعراض عنه فشكى ذلك إلى أصحابه و قال: و اللَّه إني لأنكر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ما ادري ما حدث في و ما صنعت؟ قالوا: خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فرأى قبتك فقال: لمن هذه فأخبرناه فرجع إلى قبته فسواها بالأرض فخرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ذات يوم فلم ير القبة فقال: ما فعلت القبة التي كانت هاهنا؟ قالوا: شكى إلينا صاحبها اعراضك عنه فأخبرناه فهدمها فقال: إن كل ما يبنى و بال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 82

و تظاهرا و تفاخرا في ذلك التكاثر حيث تبدوا هذه القصور من بعد كأنها علامات، تعلم بها مكانة أصحابها تطاولا و مقدرة و مهارة.

فآية العبث بنيانا إمّا ذا هي آية الرعونة و الترف و اللّامبالات في الحياة، و كأنهم خلقوا عبثا ليعيشوا عابثين.

فالعبث في أية ظاهرة من مظاهر الحياة هو آية التجاهل عن واقع الحياة و مسيرها و مصيرها، و التغافل عن مسئولياتها تجاه اللَّه و خلقه.

و كيف يسمح الثري لنفسه ان يعبث بالبنيان و الملابس و المآكل و المناكح، على عيون العزّل من ضروريات الحياة من البائسين المعدمين؟! وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ‏ 129.

المصنع من الصنع و هو إجادة الفعل، فالمصانع هي المكانات الجيدة الحصينة حفاظا عن أية إصابة أرضية أو سماوية، من قصور حجرية أمّاهيه، كالمنحوتة في الجبال و كأنها تخلدهم في الحياة أكثر من آجالهم المقدرة لهم.

ذلك، و إما اتخاذ المصانع لدفع كيد العدو، أو السارق أمّاذا من مصالح حيوية عاقلة فليس بذلك الممنوع، بل مسموح ممنوح.

وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ‏ 130.

فالبطشة الجبارة هي الظالمة المستكبرة، و أما المدافعة اعتداء بالمثل فهي الحق العدل لكل مهاجم عليه في أي ناموس من نواميسه الخمس أم نواميس الآخرين المحترمين، و لكنهم غلاظ متجبرون دونما تحرّج في بطشتهم، هجوما بدائيا أو دفاعيا.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ‏ 131.

تقوى عن كل مظاهر الطغوى و معالمها، و طاعة لرسول الهدى فيما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 83

يفعله أو يقوله عن اللَّه.

وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ 132 أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ 133 وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ 134 إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ‏ 135.

إمدادات ربانية في تسهيل الحياة، تقتضي شكورا، فكيف تطغون فيما أمدّكم، و تسطون بها على عباد اللَّه، فان لم تحذروا حاضر العذاب‏ «إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ» إذا متم بحالتكم البئيسة «عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» برزخا و يوم الدين.

أ تراهم اتعظوا بهذه العظات البالغة؟ و هي لا تصل إلى قلوب مقلوبة غليظة جاسية؟:

قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ‏ 136.

«سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» و هنا «مِنَ الْواعِظِينَ» قد تلمح إلى أن الواعظين كانوا عدّة، عرضيا يرأسهم هود؟ أم طوليا قبله و بعده في مثلث الزمان.

أم و حتى ان لم يبعث إليهم إلّا هود فهم بمقالهم هذا يكشفون عن حالهم تجاه الرسالات كلها: «كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قالَ لَهُمْ ..»

فتكذيب هود بهذه المثابة هو تكذيب المرسلين أجمعين.

إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ‏ 137.

«إن هذا» الذي تعظ به‏ «إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» من الواعظين، أساطير مكرورة طوال الزمن، و أكاذيب لصق بعض و تلو بعض.

أو «ان هذا» الذي نحن عليه «إلّا خلق» آباءنا «الأولين» فنحن على آثارهم مهتدون، و ما نحن بتاركي خلقنا و هي تراث الأولين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 84

و قد يعنيهما «هذا» فإنهما من مقال الكافرين بالرسالات، و بناء عليه:

وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ‏ 138.

رغم ما تعدنا الوعود المكرورة من الواعظين الواعدين.

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 139 وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ‏ 140.

عرض خاطف لمصيرهم الهالك في مسيرهم الحالك، يطوى فيه أطغى طغاة التاريخ و تطوى آيات كلّ ريع لهم و مصانعهم و كل نعيم لهم، إلى عذاب مقيم!

[سورة الشعراء (26): الآيات 141 الى 159]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (144) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ (145)

أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (147) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (148) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (150)

وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (152) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155)

وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 85

«ثمود» هم اخوان عاد في الطغيان و رعونة الحياة، يتشابهان في دورهم اللعين و كورهم المهين، و دعوة صالح الرسالية هي نفس الدعوات ثم التنديد:

أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ‏ 146.

«ما هاهنا» مشروح فيما هاهنا «فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ ...» و قد اختص «و نخل» من بين شجرات الجنات لأنها أهمها ثمرة و إنتاجا، و كانوا يهتمون بها أكثر من غيرها، و الطلع هو الطالع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ، و الهضيم هو اللطيف من قولهم فلان هضيم الحشا أي لطيف البطن و أصله النقصان من الشي‏ء كأنه نقص من انتفاخ بطنه فلطفت معاقد خصره و منه‏ «فَلا يَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً».

و هو اليانع البالغ، و الذي إذا مسّ تهافت من كثرة مائه و رطوبة أجزائه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 86

فهو النضيج الذي أرطب ثمره و هذه هي أفضل حالة لطلع النخل بدخول بعضه في بعض فكأن بعضه هضم بعضا لفرط تكاثفه و شدة تشابكه.

وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ‏ 149.

الفره هو الأشر، فالفاره هو الأشر البطر، و البيوت الجبلية هي الفرهة المرحة، يعبث بها لحياة الفرح و المرح.

«أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا» من متعة الحياة و شره اللّامبالاة، في جنات و شهوات «آمنين» من بأس اللَّه الذي هو لا محالة آت؟

أ تظنون انكم‏ «فِي ما هاهُنا» تتركون لحيونة الحياة، في كل دعة و رخاء و كل متع الحيونات؟ «أ تتركون» لا يردعكم فوت، و لا يزعجكم موت.

لمسات موقظة تجذبهم إلى التقوى، ابتعادا عن الطغوى، و لكنها لا تلمس تلك القلوب المقلوبة، الجافة الجاسية، إذ لا تصغى لها و لا تلين بها.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ 150 وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ 151 الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ‏ 152.

فطاعة التقوى هي طاعة اللَّه و طاعتي كرسول من اللَّه، و طاعة الطغوى هي طاعة من سوى اللَّه و لا سيما المسرفين في التخلّف عن اللَّه و عن شرعته‏ «الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» ساعين في إفساد الحياة الأرضية في كل جنباتها الإنسانية بل و الحيوانية، «وَ لا يُصْلِحُونَ» أبدا.

فأصحاب الأمر و الإمرة على طوائف ثلاث، مصلحون لا يفسدون و هم الدعاة إلى اللَّه معصومين و سواهم، إلا خطأ من سواهم، و مصلحون قد يفسدون، أو مفسدون قد يصلحون، و هم نحسون حسب دركات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 87

إفسادهم، و مفسدون لا يصلحون و هم المسرفون في إفسادهم، و «أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ» ليس- فقط- ما يقابل النهي، حيث الطاعة المنهية لا تخص هذا الأمر، بل و النهي المسرف أحرى ان تترك طاعته، كما النهي عن المنكر يتقدم الأمر بالمعروف، و انما الأمر هنا فعلهم و شأنهم و إمرتهم و أي أمر منهم بفعل أو ترك أم ماذا؟.

و اختصاص ترك الطاعة هنا لا يحصر النهي في طاعة أمرهم، فطاعة الأمر غير المعصوم صاحبه، أو المأثوم، هذه منهية على أية حال، «وَ لا تُطِيعُوا» هنا قضاء حاسم على الأمر الفادح الفاضح كأولى خطوة صالحة إلى اللَّه، و من ثم الخطى الأخرى التي تتبنّى الخطوة الأولى! تركا لطاعة من سوى اللَّه ككلّ، إلّا رسول اللَّه، و كل من يحمل عنه ما حمّله حليما تقيا، لحد يعتبر أمره أمر اللَّه و كما عرّف به اللَّه.

فليس من صالح الدعوة الرسالية حمل الشاردين كهؤلاء البعيدين على الشرعة ككل، و انما يؤمرون في البداية و ينهون، في أوليات العقائد و الأخلاق و الأعمال، «وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ» تكفل هذه البداية دونما إفراط و لا تفريط.

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ 153 ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ‏ 154.

لقد حصروا كيانه الرسالي في السحر: «إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ» و لماذا؟ لأنهم حصروا كيانهم أنفسهم في الشهوات المضللة ضد الرسالات، و بطبيعة الحال ليست ردة الفعل و نبرة القول ل «إنما» الضلالة و جاه «إنما» الهدى إلا «إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ»!. إذ «ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا» تريد أن تتفضل علينا، و ترى المماثلة في أصل البشرية مما يحيل الرسالة إلى البشرية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 88

لحد يجنّن رسول البشر، أ فليست هنالك تفاضلات بين قبيل البشر، يجعل للفاضل جدارة في كيان يحلّق على المفضولين، و أفضل التفاضلات هي الرباط الروحي بين الإنسان و ربه، علميا و تربويا لحد العصمة بمراتبها، فهل المعصوم بعصمة إلهية لا تحق له الرسالة إلى البشر، لحد يرمى إلى السحر و الجنون، ما هذا إلّا تذليلا لساحة الإنسانية و حطا من سماحته لحدّ لا تليق حمل رسالة إلهية إلى نفسها، فليكن الرسول من غير جنسها أم تبقى ضالا بلا رسول!.

و إنها شبهة تخايل للبشرية المتفلتة الشريرة كلما جاءها رسول، انها لا تستأهل ان يؤتى خبر السماء و هي عائشة الأرض، تغافلا عن القيم المودوعة لخليفة الأرض، و انها موهوبة القدرة على الاتصال بالملإ الأعلى و هي مقيمة الأرض.

تبقى هنا آية تدل على ذلك الاختصاص، فليطلب بها مدعي الرسالة قبل رميه بالسحر، و لكنهم عكسوا الأمر، تقديما لتهمة السحر على‏ «فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»:

قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ 155 وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ‏ 156.

«هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (7: 73) «وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها ..»

(17: 59) «إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ» (54: 27) هذه الناقة نفسها آية إذ خلقت دون ولادة متعوّدة، و كيف خلقت هي آية؟ أحرى بنا ألا نخوض فيه، فنكتفي بما قاله اللَّه‏ «ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً».

ثم و تقاسم الشرب و هو نصيب الشرب سويا، آية أخرى، كيف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 89

تشرب ناقة بمفردها كشرب جمهرة الناس المرسل إليهم صالح؟! و قد تكون نبعة الشرب آية ثالثة كما يروى‏ «1» و هل ان هذه الآية المبصرة ابصرتهم؟ كلّا و هم عمي لا يبصرون:

فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ‏ 157.

و العقر هو إصابة الأصل و القعر، و هو بالنسبة للناقة النحر المستأصل نحروها نحرا لآية الرسالة، و أخذا لشربها، و أكلا للحمها، «فأصبحوا» بعد ذلك و حين رأو العذاب «نادمين» ولات حين مناص، و تراهم عقروها كلّهم؟ و هذا خلاف النص في آية القمر «فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى‏ فَعَقَرَ» (29)!.

مهما كانت الشمس تعمه و سواهم كسائر آيات العقر: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها» (14) «فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ» (11: 65)- و ذلك بعد عقرهم الناقة و تحديهم صالحا بإتيان العذاب‏ «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ» (7: 78)، ذلك لأنهم شاركوا عاقرها إذ نادوه فتعاطى منهم سيفا فعقرها كما في آية القمر، فهم كلهم مشاركون في درك عن درك، و قد عد عاقرها- فقط- أشقى الأولين‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

مجمع البيان و روي عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه قال: انه أوّل عين نبعت في الأرض هي التي فجرها اللَّه عز و جل لصالح فقال: لها شرب و لكم شرب يوم معلوم.

(2)

نور الثقلين 5: 587 قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السلام) من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة قال: صدقت فمن أشقى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 90

«ايها الناس إنما يجمع الناس الرضى و السخط و إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه‏ «فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ» فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة» «1».

و قد نستلهم من «عقروها» أن كلّ مشارك في ظلم أو معاون ظالما يجمع معه في إثمه، كل حسب دوره الفعال في الجريمة، و حتى في النيّة.

فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 158 وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ‏ 159.

تعقيب مكرور بصيغة واحدة لمصير المكذبين، و ليعلم ان صيغة الرسالات واحدة كصيغة المكذبين بها، سلسلتان متعارضتان في هذه المعركة المصيرية إلى يوم الدين.

[سورة الشعراء (26): الآيات 160 الى 175]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (163) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ (164)

أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (165) وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (166) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169)

فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174)

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الآخرين؟ قال: قلت لا أعلم يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: الذي يضربك على هذه و أشار إلى يافوخه.

(1). نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 91

أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ‏ 165.

«أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ» تنديد شديد بإتيانهم، و «مِنَ الْعالَمِينَ» قد تتعلق بالآتين، أنكم أنتم المخصوصون بهذه العملية النكراء بين العالمين: «ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ» (7: 80) و أخرى بالماتيين، فقد تلمح- إذا- «مِنَ الْعالَمِينَ» دون «الناس» لعالم الجن، و ان قومه منهم كانوا كما الإنس يأتون الذكران منهم، و المعنيان- علّهما- معنيان و لكلّ وجه، مهما كان الثاني أوجه.

وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ‏ 166.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 92

و ترى «من» هنا بيانية تبين‏ «ما خَلَقَ لَكُمْ»؟ و الصيغة الصالحة لها «أَزْواجِكُمْ» أو «المخلوقة لكم»! أم تبعيضية تعني عضو الجنس من الأزواج؟ و صيغتها السائغة لها «فروج أزواجكم»! إنها قد تعنيهما بيانا و تبعيضا، و الثاني لا يخص القبل، بل و الدبر ايضا مهما كان الأصل الصالح هو الأوّل، و لو كان إتيان أدبارهن محظورا لما اختص التنديد بإتيان الرجال، و أما إذا اختص الرجل إتيان زوجه بدبرها تاركا للآخر ففيه بحث آخر قد نفتي بالتحريم لأنه خلاف مصلحة الولادة الخاصة بإتيان القبل.

و قد تلمح «ربكم» ان قضية الربوبية الخلّاقة، المقتسمة الناس إلى قسمي الرجال و النساء، اختصاص إتيان الجنس بالنساء، و أما الرجال مع الرجال لواطا أمّا هو، أو النساء مع النساء مساحقة أمّا هي، فذلك تعد عن طور الخلقة و حكم الفطرة و مصلحة الولادة المقصودة بالزواج‏ «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ» صالح الربوبية، عادون قضيته الفطرة السليمة، عادون الحق المشترك بين الرجولة و الأنوثة إلى المجانس.

فالخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط المجرمون هي الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال شهوة من دون النساء: «أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (27: 55)- «.. بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» (7: 81) «أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ..» (29: 29).

فذلك الإتيان المتخلف جهالة و إسراف و تعد عن طور الفطرة الإنسانية و خلقتها، و قطع لسبيلها التناسلي أو العائلي!.

و اما إتيان النساء شهوة قبلا أو دبرا أما ذا؟ فلا محظور فيه لأنهن خلقن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 93

للرجال: «نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» (2: 223) مهما كان أصل الحرث هنا الولادة الحاصلة بالمقاربة العادية، و لكن الأخرى ايضا هي على هامش الحرث، كما التفرج في حرث الزرع هو على هامش الحرث و لكن الأشبه الحرمة.

فقد برأ «ربكم» الذكر للأنثى و الأنثى للذكر، و فطر كلا منهما على الميل إلى قسيمه الإنسان تحقيقا للحكمة العالية الربانية في امتداد الحياة الإنسانية من طريق التناسل، فكلما يدفع لتعطيل التناسل كأصل، هو خارج عن أصل الحل، سواء أ كان لواطا أم مساحقة، أو عادة سرية، أو إتيان حيوان أو إفراغا للمني أو استعمال واسطة أمّاهيه من السبل القاطعة للنسل، اللهم إلّا في موارد استثنائية إلّا المنصوص على حرمته إطلاقا كالأربعة الأولى، أم أحيانا كإفراغ المني عن الزوجة الدائمة دون رضاها و لا محظور، أو الإفراغ دائما عن القبل، ام إتيانها دبرا كذلك مهما كان برضاها و دون محظور، فانها تخرج بذلك عن كونها حرثا عن بكرتها.

و من المحظور تعقيم الرجل أو المرأة بالوسائل المصطنعة و سواها، إلّا إذا لزم الأمر ترجيحا للأهم على المهم.

فكما ان إتيان الذكور لواطا لا يرمي لهدف صالح، و لا يحقق غاية إنسانية، كذلك إتيان النساء النساء، و العادة السرية ككل، و على الهامش منع التناسل بأية وسيلة كانت.

و هنا في‏ «أَ تَأْتُونَ‏ .. وَ تَذَرُونَ» لمحة لامعة لحرمة المذكورات على اختلاف دركاتها، فمبادلة ترك الزوجة بإتيان غيرها محظور، مهما كان المذكور هنا اللواط لشدة المحظور.

و في إهلاكهم لفعلتهم لمحة إلى عذابهم المستحق بها و هو القتل كما هو الثابت في باب الحدود، و ما كان جوابهم عن ذلك التنديد الشديد القرين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 94

ببيان الحكمة إلّا أن:

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ‏ 167.

إخراجا من قرية الدعوة بكل إحراج، دون عودة إلا بانتهاء الدعوة:

«فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» (27: 56)، و يتبين هنا ان آل لوط- و هم لوط و المؤمنون به أقارب و أغارب- كانوا يشاركونه في الدعوة، و كما لمحت لها «مِنَ الْمُخْرَجِينَ» دون «مخرجا» تهديدا لاستئصال جذور الدعوة عن القرية بأصلها و فصلها، ثم الجواب:

قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ‏ 168.

مقالة تظهر البراءة القاطعة عما كانوا يعملون، أ براءة في القلب حيث هدّد بالإخراج؟ لو كانت هكذا لما «قالَ إِنِّي ..»! بل هي استمرارية لقالة النهي و التنديد، ثم استنصار من اللَّه تعالى:

رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ‏ 169.

و «اهلي» هنا ليسوا هم- فقط- أقاربه و أنسبائه بل هم الآهلون للنجاة من المؤمنين معه، أقارب و أغارب، و لذلك لم يستثن عجوزه في الغابرين! و ليس‏ «فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (51: 36) لتدل على أهلية النسب و السبب فحسب، حيث الحالة الكارثة في القرية التي كانت تعمل الخبائث تقتضي جمعية المسلمين معه في بيت واحد و هم قلة قليلة، ثم عجوز البيت ما كانت من المسلمين.

«نَجِّنِي وَ أَهْلِي» من مسئوليات و خلفيات ما «يَعْمَلُونَ» أداء لواجب الدعوة دون تساهل و تغافل، و نجاة من أن يمسوا أهلي بسوء ما يعملون، فإنهم هارعون إليه دونما تمييز كما هرعوا إلى ضيفه المكرمين زعما منهم أنهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 95

غلمان، و نجاة من ان يشملهم عذابهم بينهم‏ فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ‏ 170.

«نجينا ..» من ثالوث العذاب، و قد صرح بثالث ثلاثة و هو استئصالهم عن بكرتهم و:

إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ 171 ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ‏ 172.

دليل على أن النجاة ليست فقط عن التدمير، بل و عن كلما كان يخاف منهم، و «عجوزا» هي امرأته المتخلفة عن شرعته و هداه، و الغابر هو الماكث بعد مضي ما هو معه، و كانت هذه العجوز ماكثة في كفرها بعد مضي ما معها من الدعوة الرسالية.

ف «الغابرين» هنا هم الماضون في كفرهم دون رجوع:

«فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ» (27: 58) لأنها- رغم كونها امرأة لوط- كانت من الغابرين رغم ملاصقة الدعوة طيلة حياة الزوجية.

و ترى كيف‏ «دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ» و هم غير أهله أجمعين و فيهم نساء لسن يقترفن ما اقترف الرجال، و أطفال من القبليين غير مكلفين؟.

النساء البريئات من هذه الوصمة ما كنّ البريئات من الإدمان على الشرك و التكذيب بالرسالة، فليشملهن مطر العذاب، و أما الأطفال فليس تدميرهم مع الكبار- إن دمروا- عذابا و كما سائر العذاب استئصالا و تدميرا، الشاملة للمذنبين و البريئين.

وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ‏ 173.

إنه مطر سوء و ليس مطر الماء الخير، لأنهم منذرون و متصلبون على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 96

الكفر: «فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ» (15: 74).

[سورة الشعراء (26): الآيات 176 الى 191]

كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (179) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ (180)

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185)

وَ ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190)

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 97

تأتي‏ «أَصْحابُ الْأَيْكَةِ» في أربع هذه منها، و «الأيكة» شجر ملتف، و أصحاب الأيكة نسبوا إليها و هي غيضة و ريفة من الأشجار كانوا يسكنونها و هي بلدتهم، و رسولهم شعيب فيمن أرسله إليهم من أهل مدين و هم الأصلاء و هؤلاء فروع‏ «وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً» (7: 85) إذ كان منهم، و هنا «إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ» دون «أخوهم» إذ لم يكن منهم‏ «1» و موقع مدين بين الحجاز و فلسطين حول خليج العقبة.

و لقد كانوا مخسرين الناس، يبخسونهم أشيائهم، عاثين في الأرض إفسادا، فلذلك بزغت الدعوة الأصلاحية من صالح وفقا لحالتهم البئيسة كما هي سنة الرسالات المستمرة.

فهنا أوامر و نواهي ثلاث في ناحية هذه الدعوة المصلحة، بعد ان طمأنهم برسالته الأمينة:

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ‏ 181.

فالكيل بين واف و طفيف و زائد، إيفاءه واجب، و طفيفه محرم، و زائده راجح، و هنا أمر بواجب الإيفاء و نهي عن محرم التطفيف و الإخسار، و لأن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 24: 163 و في الحديث ان شعيبا أخا مدين أرسل إليهم و إلى اصحاب الأيكة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 98

الكيل يخص المكيل فامر ثان يخص الموزون:

وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ‏ 182.

و هو الميزان أيا كان، و استقامته هو اعتداله في الوزن، و قد يكون القسطاس مستقيما و الوزن غير مستقيم، فليكن «المستقيم» وصفا لكلا الوزن و القسطاس، ثم و نهي يحلّق على كل إخسار و بخس كيلا أو وزنا أم أيا كان في المعاملات الجماعية اقتصادية و ثقافية و سياسية و أخلاقية أمّاهيه:

وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ‏ 183.

و البخس هو النقص، و «أشياءهم» تعم كل أشياءهم في مخمّس النواميس و ملحقاتها: نفسا و دينا و عقلا و مالا و عرضا، فالبخس إياها محرم، و تركها تخرم أيضا محرم، و محاولة التعاون في كمالها راجحة أم واجبة، فإخسار الكيل و اعوجاج القسطاس و بخس أشياء الناس إفساد، و العبث في الأرض إفسادا و هو السعي فيه إفساد على إفساد، في أية ناحية من واجب الصلاح و الإصلاح من النواميس الخمس.

فالإفساد الاقتصادي له دور هام بين سائر الإفساد، ينهى عنه كما ينهى عنها في سائر الشرائع الإلهية، إصلاحا للحالة المعيشية التي تلعب دورا عظيما في صالح الناس، و إبعادهم عن شر النسناس الخناس.

و أخيرا يستجيش شعيب مشاعر التقوى في نفوسهم كما بدأ، تذكيرا لهم بخالق الخلق أجمعين:

وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ‏ 184.

«الجبلة» هي الخليقة المجبولة المطبوعة بطابع الفطرة التي فطر الناس عليها، فهي كالجبل لا تحركه العواصف و لا تزيله القواصف، فمهما تحرك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 99

من الإنسان أيّ من أشياءه عقلا و علما و جسما، فالفطرة الإنسانية ثابتة كحجة بالغة لا تزول.

فالمؤمنون من الأوّلين كانوا يتقون، و المتخلفون منهم عن شرعة اللَّه هم المتخلفون عن جبلتهم فلما ذا قفوا آثارهم، فأنتم على آثارهم تهرعون؟! قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ 185 وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ‏ 186.

صيغة مطردة مكرورة بين المكذبين برسالات اللَّه، كأنهم تواصوا به! شيطنة مدروسة مدسوسة بينهم كشريطة تدار على أسماع الدعاة إلى اللَّه.

و لا فحسب التكذيب، بل و التحدي بأن يأتوا بعذاب اللَّه إن كانوا صادقين:

فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ 187 قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ‏ 188.

«رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ» فلست أنا و لا أنتم، و هو أقدر أن يأتيكم بعذاب، و ما أنا إلّا رسول لا أقترح على ربي أصل العذاب و لا كمّه و لا كيفه‏ «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ» (46: 23).

فحتى إن لم يأتكم عذاب لم يدل ذلك على كذبي في رسالتي، فانها رسالة و ليست ألوهية تقتضي القدرة على إتيان العذاب، و لا وكالة عن الرب أو نيابة تستدعي استجلاب العذاب.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ‏ 189.

هنا عذاب يوم الظلة و لمدين الصيحة: «وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 100

جاثمين» (11: 94).

إذا فيوم الظلة هي غير يوم الصيحة كما أن اصحاب الأيكة هم غير أهل مدين مهما كانت الرسالة إليهم واحدة فما هي- إذا- الظلة؟.

يقال هي السحابة المطلّة عليهم المظلة، و هم يحسبونها مظلّة حيث أخذهم حرّ خانق حانق يكتم الأنفاس و يثقل الصدور «1»، ثم تراءت لهم هذه السحابة الظلّة فاستظلوا بها فوجدوا لها بردا، فإذا هي تمطر عليهم نارا، أم صاعقة مجلجلة تفزعهم فدمرتهم تدميرا «2»، و على أية حال ليس هنا في النص إلا «يَوْمِ الظُّلَّةِ» و لا بد انها ظلة سماوية كما «نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ» (7: 171) و لكنها ظلة تدمير و ذلة و «إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» توحي بانه كان شعبة من عذاب الجحيم‏ «3».

ذلك شطر من قصص الرسل و المرسل إليهم، السبعة، و ما واجهوهم من التكذيب، و قبلها كلها «تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ» و هنا في الختام:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 64 عن تفسير القمي‏ «عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ» قال: يوم حر و كائم.

(2) المصدر في‏ «يَوْمِ الظُّلَّةِ» بلغنا و اللَّه اعلم انه أصابهم حرّ و هم في بيوتهم فخرجوا يلتمسون الروح من قبل السحابة التي بعث اللَّه عز و جل فيها العذاب فلما غشيهم اخذتهم الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين و هم قوم شعيب.

(3) في الدر المنثور 5: 93 عن ابن عباس في تفسير يوم الظلة: أرسل اللَّه عليهم سموما من جهنم فأطاف بهم سبعة ايام حتى أنضجهم الحر فحميت بيوتهم و غلت مياههم في الآبار و العيون فخرجوا من منازلهم و محلتهم هاربين و السموم معهم فسلط اللَّه عليهم الشمس من فوق رؤسهم فتغشتهم حتى تقلقلت في جماجم و سلط اللَّه عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم ثم انشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا تحتها جميعا أطبقت عليهم فهلكوا و نجى اللَّه شعيبا و الذين آمنوا معه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 101

[سورة الشعراء (26): الآيات 192 الى 227]

وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلى‏ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196)

أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (197) وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى‏ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (201)

فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (204) أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ (206)

ما أَغْنى‏ عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ (207) وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرى‏ وَ ما كُنَّا ظالِمِينَ (209) وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (210) وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ وَ ما يَسْتَطِيعُونَ (211)

إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216)

وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى‏ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (221)

تَنَزَّلُ عَلى‏ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (223) وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (224) أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (225) وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (226)

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 103

وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ‏ 192.

فقد يعني الضمير الغائب‏ «الْكِتابِ الْمُبِينِ»: القرآن، أم و يعني فيما يعني رسول القرآن، و «تنزيل» بديلا عن «المنزل» علّه للتدليل على انه كله منزل منه تعالى كأنه هو التنزيل، تنزيلا من عليا الربوبية إلى دنيا العبودية، و من عالي الغيب إلى ظاهرة الشهود للمربوبين، فليس تنزيلا من مكان عل إلى مكان دان، و انما من مكانة عالية إلى اخرى دانية، دنوّ الخلق عن الخالق مهما كان قلب الرسول العظيم (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)، و الناس كلهم فقراء إلى اللَّه و هو الغني الحميد الكبير المتعال العلي العظيم و القاهر فوق عباده، فرحماته رحمانية و رحيمية ليست إلّا تنزيلا من علوّ الربوبية إلى دنو العبودية. و التنزيل هنا تشمل مرحلتي: الإحكام في انزاله دفعيا، و التفصيل في تنزيله تدريجيا، و هو فيهما إحداث حديث الذكر «ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ ..» و ليس إبراز العلم الأزلي حتى يكون قديما كما الذات و صفات الذات.

و إضافة التنزيل إلى رب العالمين للتأشير إلى انه يحمل ربوبيته العالمية الكافلة لتربية العالمين إلى يوم الدين، دونما نظرة وحي آخر يكمّله أو ينسخه خلاف سائر الوحي.

ليس القرآن تنزيل الروح القدسي الرسالي، و لا الروح القدس على قلبه، فهذا وسيط الوحي و ذلك مهبطه، و ليس تنزيله إلّا من رب العالمين كما يراه صالحا للعالمين.

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ 193 عَلى‏ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ 194 بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ‏ 195.

نزل بالوحي الأمين الروح الأمين إلى الرسول الأمين‏ «عَلى‏ قَلْبِكَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 104

دون- فقط- سمعك، فمنزل القرآن هو قلبه المكين: «مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى‏ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» (2: 97). و «به» هنا هو القرآن المفصل المنزل نجوما، دون المحكم النازل عليه ليلة القدر، و السر النازل عليه ليلة المعراج، إذ لم يكن هنا و هناك لوحيه أي وسيط: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرى‏ لِلْمُسْلِمِينَ» (16: 102) و لا صلة لتثبيت المؤمنين إلّا بما يسمعونه منه من الوحي المفصل دون الأسرار المستسرة الخاصة بساحة الرسالة.

و دلالة اخرى‏ «بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» و ليس القرآن المحكم بلسان عربي أو سواه، فضلا عن «مبين».

فجبريل الروح الأمين القدس نزل بالروح القرآن المفصل على قلبه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو ايضا الروح القدس الأمين، فالنازل و المنزل و المنزل روح قدس أمين، نور على نور يهدي اللَّه لنوره من يشاء، و تراه كيف‏ «نَزَلَ‏ .. عَلى‏ قَلْبِكَ» و القرآن المفصل بما يحمل من ألفاظ تسمع لا بد لمنزله من أذن أو سمع؟ فهل انه نزول المعنى دون لفظ كيلا يحتاج إلى أذن؟

و القرآن يعني كلا اللفظ و المعنى، فالمعنى دون لفظ لا يقرء و إنما يلهم، و ليس الملهم قرآنا ينزل حيث القراءة تخص اللفظ!: «فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ».

فنازل الوحي إلى قلبه أعم من القرآن حيث يعم محكمه الذي لا يقرء و مفصّله الذي يقرء.

أجل و للقلب سمع هو أسمع من سمع الأذن كما له بصر، و ليس سمع الأذن إلّا ذريعة لسمع القلب كما بصر العين ذريعة لبصر القلب، و للقلب ان يسمع أو يبصر دون وسيط كما «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى‏ قَلْبِكَ» دونما وسيط.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 105

و كيف لا و «القلوب أئمة العقول و العقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمة الحواس و الحواس أئمة الأعضاء» فالقلب إمام الأئمة فكيف لا يؤم به الحس و هو- فقط- مأموم غير إمام! و كيف لا؟ و من لزامات الوحي ألّا يسمعه إلّا من يوحى إليه، فلو كان يحمل ألفاظا صوتية- و بطبيعة الحال جاهرة حتى يسمع- لكان يسمعه غير النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قد كان يوحى اليه بمرأى و مسمع من الناس، فهو يسمع و هم لا يسمعون، و إنما يرون كأنه يغشى عليه من وطأة الوحي! و كان ينفث في روعه قرآنا و سواه من وحي‏ «1».

فلا يسمع إلى قول القائل إن النازل إلى قلبه هو المعنى- فقط- و الألفاظ هي من صياغته‏ «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ ..»

(75: 18)! و اسخف منه ان القرآن بلفظه و معناه من منشآت النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الملقاة من روحه الأمين إلى قلبه المكين، إذ «ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ» (11: 49) فانما «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى‏ قَلْبِكَ ..» و هو «لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ» فهل أصبحت روحه الأمين ربّ العالمين حتى ينزّل القرآن على قلبه؟.!

ليس النص «قرأه الروح الأمين عليك» ام «نزل به عليك» حتى يحتمل قراءته على سمعه و انما «عَلى‏ قَلْبِكَ» و هو عمق الروح حيث تتفأد بنور الوحي، و لا بد للقلب من نورانية تامة طامة استعدادا لنزول الوحي القمة الأخيرة «مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» «لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»:

«نَزَلَ‏ .. لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» فالمنزل هو القرآن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 94- اخرج ابن أبي شيبة عن عبد اللَّه بن مسعود قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 106

العربي المبين‏ «عَلى‏ قَلْبِكَ» و الغاية من ذلك الإنزال ان تكون من المنذرين، و لك اختصاص أن إنذارك‏ «بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» أبين من سائر كتابات الوحي عربية و سواها، لو كان هناك قبل القرآن كتاب وحي عربي!، و «عربي» هو الواضح المعرب عن معناه، و «مبين»:

يبين الألسن و لا تبينه الألسن» «1».

وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ‏ 196.

هل «انه»: القرآن‏ «لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ»؟ كما و «إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى‏. صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏» (87: 19)؟ إذا فالقرآن نسخة عربية عن العهدين، و ليس وحيا يستقل عن زبر الأولين‏ «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ» «2».

و لا يعقل ان محمدا (صلى اللَّه عليه و آله و سمل)- و هو اعقل العقلاء- يدعي كذبا انه يستقل في وحي القرآن ليستغله في شرعة مبتدعة جديدة يدعيها أفضل مما قبلها، ثم يصرح ان القرآن نسخة عربية عن العهدين، هدما لما بناه و هدرا لما تبناه، لتطول ألسنة علماء العهدين الناقمين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 65 في اصول الكافي علي بن محمد عن صالح بن أبي حماد عن الجمال عمن ذكره عن أحدهما عليهما السلام قال سألته عن قول اللَّه عز و جل‏ «بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» قال: ...

(2) كتاب الهداية المطبوع بمعرفة المرسلين الأمر يكن بمصر سنة 1898 ص 4 ج 2 و كتاب «القرآن و الكتاب» للاستاذ حداد البيروتي تحت عنوان: هل بين القرآن و العهدين اتصال و نسب؟ قائلا: هنالك تصاريح من القرآن ان بينه و بين العهدين اتصال و نسب حيث: التوراة إمامه و هو في زبر الأولين و هو تفصيل و تعريب للكتاب المقدس و هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم و هم علماء أهل الكتاب و يجب ان يقتدي محمد في قرآنه بالكتاب و أهله و إذا شك فيه فليسأل أهل الكتاب ليعلموه! ثم يحتج لكل بآية أو آيات على حدّ زعمه نأتي عليها بجواباتها بطيات آياتها و كما فصلناها في كتابنا «المقارنات».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 107

عليه، و دون ان يأتي بشي‏ء جديد للمشركين! ثم واقع الحال في العهدين، المتوفرة فيهما التناقضات و المضادات للواقع و بين آياتهما، دون القرآن الذي لا اختلاف فيه، ثم اختلاف المواضيع بينه و بينهما تكميلا لنقص أو نقضا لباطل، و حتى في العرض القصصي، ذلك الواقع المتهافت بينهما و بين القرآن يبطل فرية انه نسخة عربية عن العهدين.

ثم المشركون الموجهة إليهم- في الأصل- هذه التوجيهات، لم يكونوا ليؤمنوا بالأصل المزعوم للقرآن فضلا عن الفرع القرآن! فكيف يقول لهم و لماذا؟ إنه نسخة عربية عن العهدين.

و كذلك الكتابيون حيث يعترضون: فإذا لست على شي‏ء جديد، فلتكن لنا تبعا و كيف ترجوا أن نتبعك؟.

ثم و كيف يصرح أولا: «وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى‏ قَلْبِكَ ..» ثم يناقضه ب «إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ» إذا فلم يوح اليه، إلّا إلى الأولين و هو راسم رسمهم في هذا القرآن.

ثم‏ «أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ» 197 عطفا على‏ «إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ» يعني دليلا ثانيا على استقلال وحي القرآن عما أوحي إلى الأولين، و لو كان علما لهم انه نسخة عربية لزبر الأولين لكان هدما لبرهان القرآن امام الكتابيين و المشركين بما «يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ»! أم «انه»: القرآن ببشارة له بوحيه بلسان عربي مبين، «لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ» و كذلك رسول القرآن؟ و هذان واقعان لا مرد لهما مهما حرفت عن جهات اشراعها.

فبالنسبة لبشرى القرآن: «... وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى‏ ... الَّذِينَ آتَيْناهُمُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 108

الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ» (6: 20)، و كما جاء في كتاب اشعياء نبأ هذا الوحي العربي و إليكم الأصل العبراني نصا (28: 9- 14):

«ات مى يوره دعاه و ات مي يا بين شموعاه غكمولي محالاب عتيمي مشادايم كي صولا صاو صولا صاو قولا قاو قولا قاو زعير شام زعير شام 10 كي بلعجي شافاه و بلاشون أحرت يدبر إل هاعام هذه 11 آشر آمر إليهم زئت همنوحاه هانيحو لعايف و زئت همرجعاه و لا آبوء شموع 12 و هاياه لاهم دبر يهواه صولا صاو صولا صاو قولا قاو قولا قاو زعير شام زعير شام لمعن يلخوا و خاشلوا آحور و نشبار و نقشوا و نلكادوا 13 لاخن شمعوا دبر يهواه أنشي لا صون مشلي هاعام هذه أشر ييرو شالام» 14:

«لمن ترى يعلّم العلم و لمن يفقّه في الخطاب أ للمفطومين عن اللبن للمفصولين عن الثدي 9 لأنه أمر على أمر أمر على أمر فرض على فرض فرض على فرض هنا قليل و هناك قليل 10 لأنه بلهجة لكناء بشفاه عجمية و بلسان غير لسانهم «العبراني» يعني «العربي» يكلم هذا الشعب 11 الذين قال لهم هذه هي الراحة فأريحوا الرازح و هذه هي الرفاهية فأبوا ان يسمعوا 12 لذلك سيكون كلام الرب لهم امرا على امر أمرا على أمر. فرضا على فرض ثم فرضا على فرض هنا قليلا و هناك قليلا. لكي يذهبوا و يسقطوا إلى الوراء فيحطّموا و يصطادوا فيؤخذوا 13 لذلك اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء ولاة هذا الشعب الذي في أورشليم» 14 «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 94- اخرج ابن مردويه عن عبد اللَّه بن سلام قال: كان نفر من قريش من أهل مكة قدموا على قوم من يهود بني قريظة لبعض حوائجهم فوجدوهم يقرؤن التوراة فقال القرشيون ماذا نلقى ممن يقرأ توراتكم هذه لهؤلاء أشد علينا من محمد و أصحابه فقال اليهود: نحن من أولئك براء أولئك يكذبون على التوراة و ما انزل اللَّه في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 109

فهذه الآيات البينات بشارة جميلة للقرآن و نبيه انه يكلم هذا الشعب الاسرائيلي بغير لغتهم «كي بلعجي شافاه» بلسان اعجمي- غير لسانهم ...، ثم و بالنسبة للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عشرات من البشارات سجلناها في «رسول الإسلام في الكتب السماوية» و يقول عنه القرآن: «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (2: 146).

فالقرآن بنبيه و المواصفات القرآنية و الرسالية المحمدية «لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ» على تحرّفها «1»: «يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ ..»

(7: 157).

أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ‏ 197.

الواو هنا عطف على آية القرآن نفسه و فيه الكفاية عن أيّة آية، ثم آية «إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ» لا فحسب للكتابين بل و كذلك للمشركين، حيث البشارة به فيها ملحمة غيبية تدل على انه من غيب الوحي على الرسول الأمين.

فان لم يكن لهم- كتابيين و مشركين- آية بنفسه و ببشاراته في زبر الأولين‏ «أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ» الأحرار، غير المحرفين الكلم عن مواضعه، إذ لم ينسوا حظا عما ذكروا به.

أم و كل علماء بني إسرائيل قبل نزول القرآن مهما كفر به بعضهم إذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الكتب إنما أرادوا عرض الدنيا فقال القرشيون فإذا لقيتموهم فسوّدوا وجوههم و قال المنافقون ما يعلّمه إلّا بشر مثله و أنزل اللَّه: و انه لتنزيل رب العالمين- الى قوله-: و انه لفي زبر الأوّلين يعني النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و صفته و نعته.

(1). راجع كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ص 108- 110.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 110

نسوا حظا مما ذكروا به و لا تزال تطلع على خائنة منهم‏ «وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» (2: 89): بنبإ القرآن و رسوله الآتي، فقد كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة و ينتظرون هذا الرسول، و يحسون ان زمانه قد أظلهم، و أيامه قد أطلتهم، يحدّث بعضهم به بعضا و يتحدثون على المشركين مستفتحين بذلك الفتح المبين!.

إنه‏ «بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» لا يثير قوميتهم، و «إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ..»

يعلمه علماء بني إسرائيل، فقد تمت عليهم الحجة و طمت المحجة.

وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى‏ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ 198 فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ‏ 199.

«لو» هنا تحيل تنزيله على بعض الأعجمين، أ عربيا ينزل على اعجمي‏ «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» (14: 4) و اختلاف لغة النازل عن لغة الرسول عرقلة في الدعوة، و نقص في الدعاية، و مثار للنكاية، فعذر للمعنيين بالدعوة الرسالية.

أم أعجميا على أعجمي؟ و هو نقص في اللغة حيث العربية قمة بين اللغات و الوحي الأخير قمة بين سائر الوحي، فليكن بلسان عربي مبين.

ثم و العرب الألداء و هم مبتدء الدعوة و منطلقها ما كانوا ليؤمنوا به، فليكن عربيا منزلا على عربي.

«وَ لَوْ نَزَّلْناهُ» عربيا أو أعجميا «عَلى‏ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ» أصلا أو ترجمانا «ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ» حيث النخوة العربية و قوميتها المتعرقة فيهم كانت تصدهم عن ان يؤمنوا به: «وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 111

(41: 44) «1».

اجل و

«لو نزلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب و قد نزل على العرب فآمنت به العجم فهذه فضيلة العجم» «2».

كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ 200 لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ 201 فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ‏ 202.

«وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ. وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ. كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ. وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ» (15: 10- 14) «كذلك» القويم القويم «نسلكه»: القرآن- إنفاذا «فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ» قطعا لكافة الأعذار القومية و الاقليمية و اختلاف اللغة أماهيه، و سردا لكافة البراهين القاطعة لوحي القرآن داخلية و خارجية، و لكنه ليس لينسلك في هذه القلوب المقلوبة «لا يُؤْمِنُونَ بِهِ» تخيّرا منهم رغم بارعة الحجج إلّا عند رؤية البأس: «حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ».

و «كذلك» البعيد البعيد «نسلكه»: عدم الايمان بالقرآن رغم ناصع البرهان‏ «فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ» طبعا عليها و ختما: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفصيل البحث عن الآية إلى سورتها.

(2) نور الثقلين 4: 65 في تفسير القمي في الآية قال الصادق (عليه السلام): ...

(3) فهنا مراجع لضمير الغائب في نسلكه: قرأنا و تكذيبا به و ايمانا به، و الأولان صالحان معنويا و الأخير لا يصلح كما بيناه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 112

و هذا السلك هو من مخلفات السلك الأوّل المواجه بالتكذيب جزاء وفاقا، و من مخلفات السلك الثاني: «لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ» هنا في الرجعة أو قبلها، ام في البرزخ و الأخرى: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا ... فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ» (40: 85)، فلا تعني‏ «كَذلِكَ نَسْلُكُهُ» سلك الايمان فان اللَّه ليس ليحمل المكذبين على الايمان، و لو حمل على ايمان فكيف‏ «لا يُؤْمِنُونَ بِهِ ..»؟: «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً» (10: 99).

«فيأتيهم» ذلك العذاب الأليم «بغتة» دون إخبار و لا إمهال‏ «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» به و «لا يشعرون» الايمان بالقرآن.

فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ‏ 203.

إنظارا لكي نؤمن به، و لات حين مناص، و قد فات زمن الخلاص.

أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ‏ 204.

فلقد كانوا يستعجلون بعذاب اللَّه الموعود للمكذبين تحدّيا على النبيين، استهتارا و اغترارا بما لهم من متع الحياة الدنيا، و هم بذلك الاستعجال العضال يكدّرون خاطر النبي الأقدس محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ 205 ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ 206 ما أَغْنى‏ عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ‏ 207.

فقد «رؤي النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كأنّه متحيّر فسألوه عن ذلك فقال: و لم؟ و رأيت عدوي يلون أمر امتي من بعدي فنزلت:

«أ فرأيت ...» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 95- اخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال رؤي ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 113

فلقد كان يغمّه متاعهم خوفة على شرعته و أمته، إمرة لمن لا يؤمن و لا يؤمن‏ «1» على المسلمين، فطمأنه ربّه أن أيديهم قاصرة عن القضاء على شرعة اللَّه، مهما كانت طائلة في متع الحياة الدنيا، فان للحق دولة و للباطل جولة، و سوف تزول كل المتع عن الكفار في دولة القائم المهدي (عج) «2».

وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ 208 ذِكْرى‏ وَ ما كُنَّا ظالِمِينَ‏ 209.

«منذرون» هنا تأشير إلى تواتر الإنذار بحق المهلكين «ذكرى» لهم عن غفوتهم فطريا و عقليا، فان مواد الهدى مرتكزة في الفطر و العقول، و لا يعني بعث الرسول كأصل إلّا «ذكرى» لمن استغفلوا عن دلائل الايمان، ايقاظا لأصول الهدى، ثم الفروع تتبناها واردة على قضايا الفطر و العقول.

«وَ ما كُنَّا ظالِمِينَ» في ذلك الإهلاك، و «كنا» هنا تستأصل أصل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 65 في الكافي بسند متصل عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال‏ أري رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في منامه بني امية يصعدون على منبره من بعده و يضلون الناس عن الصراط القهقري، فأصبح كئيبا حزينا قال: يا جبرئيل إني رأيت بني امية في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلون الناس عن الصراط القهقري فقال:

و الذي بعثك بالحق نبيا إني ما اطلعت عليه فعرج إلى السماء فلم يلبث ان نزل عليه بآي من القرآن يونسه بها قال: «أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ ...» و انزل عليه: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ...» جعل اللَّه ليلة القدر لنبيه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) خيرا من الف شهر ملك بني امية.

(2)

تفسير البرهان 3: 189 محمد بن العباس بسند متصل عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية قال: خروج القائم (عليه السلام) «ما أَغْنى‏ عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ» قال: هم بنو امية الذين متعوا في دنياهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 114

كينونة الظلم في اللَّه سبحانه و تعالى، إذ لا دافع له إليه، و لو كان لم يظلم لأنه عدل حكيم، و انما يحتاج إلى الظلم الضعيف، خوفة من القوي أن يغلبه، أو يساميه في القوة، و كلّ ذلك مسلوب عن ساحة قدسه سبحانه.

وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ 210 وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ وَ ما يَسْتَطِيعُونَ 211 إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ‏ 212.

«وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ»- «وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ» عن الملإ الأعلى، ردا على المتطاولين على الذكر الحكيم انه‏ «تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ».

«وَ ما تَنَزَّلَتْ» ببرهان القرآن نفسه انه ليس نازلا إلّا بعلم اللَّه، «وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ»: الشياطين أن ينزلوا به، و الابتغاء هو قبول البغي الطلب، فحتى لو طلب من الشياطين ان يتنزلوا بالقرآن‏ «ما يَنْبَغِي لَهُمْ» قبولا لذلك الطلب، فان قلوبهم مقلوبة عن الهدى مملوءة من الردى، فأنى لهم ان يحملوا بتلك القلوب المظلمة وحي القرآن؟.

ثم‏ «وَ ما يَسْتَطِيعُونَ» لو حاولوا في قبول ذلك التنزيل، ان يقبلوه، ل «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ»: «لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ ...» (37: 9).

فإذا كانوا عن السمع معزولين فلا يسمعون مهما تسمعوا، فكيف يحملون الوحي- بقلوبهم المقلوبة- إلى قلوب النبيين؟.

و حتى لو ساغ لهم سمعه و حمله بقلوبهم‏ «ما يَنْبَغِي لَهُمْ» سماحا لذلك الحمل العظيم لأنهم غير مأمونين، إذ يخلطون الحق بباطل يهوونه، رغم خالص الوحي الذي يحوونه! إذ «ما يَسْتَطِيعُونَ» حمله خالصا و أداء كما حمّلوه قضية غلبة الشقوة عليهم ل «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ» للحق الناصح «لمعزولون» و من الشروط الأصيلة للتنزل بالوحي سمعه في قرارة نفس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 115

الوسيط.

فلو تنزلت به الشياطين على ذلك النبي الأمين و هو يلعنهم ليل نهار، لكان أحرى ان تنزّل به على أولياءهم نقضا لما يدعيه من وحي الرحمن، و كيف تصبح الشياطين بهذه القدرة الخارقة أرحم بعدوّهم من أولياءهم و أنعم، و هم يحاولون دائبا نقض الوحي و نقصه، تعبيدا لطرق الشيطنات.

«وَ ما يَسْتَطِيعُونَ» بارزة كالشمس في رايعة النهار إذ ما تنزلوا به على أولياءهم، «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ» ظاهرة كالنار على المنار، فلو لم يكونوا معزولين لأتوا بمثله و أحرى لأوليائهم، فلا يرد أن ذلك البرهان دور مصرح، حيث التصديق ب «لا يستطيعون- و- معزولون» منوط بتصديق القرآن انه وحي الرحمن، كما ان هذا التصديق منوط ب «لا يستطيعون- و- معزولون»؟ حيث الانعزال و عدم الاستطاعة باهر واقعيا إذ لم يأتوا بمثله إلى أولياءهم مهما حاولوا و احتالوا! إذا:

فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ‏ 213.

و لماذا تدعو مع اللَّه إلها آخر و هو حسبك الكافي و نعم الوكيل؟ و ذلك النهي الصارم ليس صدا عن اقترافه اشراكا باللَّه، و اعترافه بغير اللَّه، و انما هو استئصال لآمال المشركين ان يركن إليهم و يميل بغية ايمانهم، ام تقليلا لثورة كفرهم.

ثم‏ «فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ» تنبيهة عالية للمؤمنين أن الداعي مع اللَّه إلها آخر يعذّب و لو كان هو الرسول العظيم، فضلا عمن دونه من المؤمنين! و القول إن التكليف لا يعني في نفيه و إثباته إلّا نفي النقص الحاصل و اثبات الكمال غير الحاصل، و الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بالغ ذروة الكمال فكيف ينهى عن الشرك و يؤمر بلزامات الايمان و الرسالة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 116

إنه مردود بان العصمة لا تنافي الإختيار، و لا حد- كذلك- للكمال، و ان تكليف السلب و الإيجاب لا يلازم اقتراف المنهي عنه و ترك المأمور به، بل هو كأصل إعلام بحكم اللَّه، و إعلان للأمة بمرادات اللَّه، و ان الرسول يحمله كرسول إلى الأمة بعد ما يحمله كمكلف من سائر المكلفين.

وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ‏ 214.

و هنا انتقاله في النذارة من نفس الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى عشيرته الأقربين، و من ثمّ إلى سواهم و إلى العالمين أجمعين، و هي طبيعة الحال في الدعوة الصالحة الرسالية، أن يبدأ الرسول بنفسه و ذويه الأقارب، ثم الأغارب، حيث الأقربين هم الحملة الأولى للرسالة بعد الرسول، و في تركهم إلى سواهم حجة على الرسول: كيف ترك ذويه و اتجه إلى سواهم، ويكأن في دعوته غضاضة لا يقبلها ذووه! و هم اعرف به و بدعوته فلو كان حقا لما تركوه، و ليعلم العشيرة الأقربون أنه لا تنفعهم قرابتهم منه شيئا إلّا بالايمان.

فلما نزلت هذه الآية بكى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ثم جمع اهله فقال: يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ثم التفت إلى فاطمة فقال: يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنكم من اللَّه غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 96- اخرج ابن مردويه عن انس قال لما نزلت: و انذر عشيرتك الأقربين بكى ... و فيه 97-

اخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و ابو نعيم و البيهقي في الدلائل من طرق عن علي (عليه السلام) قال: لما نزلت هذه الآية على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): و انذر عشيرتك الأقربين، دعاني رسول اللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 117

و قد يؤشر ذلك الأمر الإمر انه كان في بداية الدعوة و لما يتسع نطاقها، كما «فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» (15: 94) فانتفض لتحقيق الأمر فنفض يده من أمرهم و وكلهم إلى اللَّه، و بيّن لهم مرارا و تكرارا ان قرابتهم له لا تنفعهم و لا تغني عنهم من اللَّه شيئا، كيف و لا تنفعه رسالته لو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال: يا علي! إن اللَّه أمرني ان انذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعا و عرفت أني مهما أبادئهم بهذا الأمر أرى منهم ما اكره فصممت عليها حتى جاء جبرئيل فقال يا محمد انك إن لم تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك فاصنع لي صاعا من طعام و اجعل عليه رجل شاة و اجعل لنا عسا من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم و ابلغ ما أمرت به ففعلت ما امرني به ثم دعوتهم له و هم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون فيهم أعمامه أبو طالب و حمزة و العباس و أبو لهب فلما اجتمعوا اليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فجئت به فلما وضعته تناول النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بضعة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصفحة ثم قال: كلوا بسم اللَّه فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما نرى إلا آثار أصابعهم و اللَّه أن كان الرجل الواحد ليأكل ما قدمت لجميعهم، ثم قال اسق القوم يا علي فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعا و ايم اللَّه ان كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ان يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: لقد سحركم صاحبكم فتفرق القوم و لم يكلمهم النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فلما كان الغد قال يا علي ان هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل ان أكلمهم فعدلنا بمثل الذي صنعت بالأمس من الطعام و الشراب ثم اجمعهم لي ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا و شربوا حتى نهلوا ثم تكلم النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال يا بني عبد المطلب إني و اللَّه ما أعلم أحدا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدنيا و الآخرة و قد أمرني اللَّه ان أدعوكم اليه فأيكم يوازرني على امري هذا؟ فقلت:- و انا أحدثهم سنا- انا فقام القوم يضحكون.

أقول و قد أخرج القصة باختلافات يسيرة مع الحفاظ على أصلها جم غفير من المحدثين (راجع الدر المنثور و جامع البيان و نور الثقلين و البرهان و بحار الأنوار).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 118

لم يأتمر أمر ربه و هو في القمة المرموقة!.

وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ‏ 215.

خفض الجناح هو ابلغ اللين و الرفق و الضعة و الحنان، تصورا عن الطائر إذ يخفض جناحه إذ يهبط، و يخفضه حين يحتضن أفراخه، و كذلك يؤمر الرسول حين يهبط عن سماء الوحي برسالة الأرض و السماء، ان يخفض جناح الرحمة لأفراخه المؤمنين به، من أقارب و أغارب، دونما ممارات أو مماشاة مع المكذبين الأقارب، أم طرد للمؤمنين الأغارب، أم ترجيحا بين من آمن للأقارب، و انما «لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» و كما الطائر لا يطير عن أفراخه و لا يغيب في الحالات الحرجة، كذلك أنت يا ايها الطائر القدسي الرسالي دم على افراخك المؤمنين: «وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ» (15: 89) و قد كان خافض الجناح لهم على ما كان من بعضهم من جفاوة، فلا يواجههم- إذا- إلّا بكل حنان و حفاوة، بل و بالنسبة لغير المؤمنين ايضا علّهم يؤمنون.

فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ‏ 216.

و ترى ضمير الجمع في «عصوك» راجع إلى الكفار فقط؟ و هم أبعد مرجعا! و البراءة لا تخص عمل الكافر، بل و الأصل فيها كفره في قلبه حيث يخلّف تخلفه في عمله! أم هو راجع إلى‏ «لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» على قربها مرجعا؟ و كيف يواجه الرسول المؤمن الفاسق بتلك البرائة و من شروطات النهي عن المنكر لين الكلام بالحكمة و الموعظة الحسنة.

علّه راجع إليهما، و البراءة- إذا- يخص ما يعملون، إذ لا براءة من المؤمن نفسه إن كان فاسقا.

أم ان «ما تعملون» هي نفسه «ان عصوك» و العصيان يعم الجوانح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 119

إلى الجوارح، بل و عيان الجوارح هو من مخلّفات عصيان الجوانح، إن كفرا فأعمال كافرة، و إن فسقا ففاسقة، «مِمَّا تَعْمَلُونَ» في الكافر يعم قلبه و قالبه، و في المؤمن الفاسق عمله إلى تخلفه في قلبه أو نيته.

ثم «إني بري‏ء» في مواجهة الكافر تختلف عنها أمام المؤمن، و البراءة من العصيان هي قضية الرسالة، و المجاهرة بها هي من أخريات المطاف في النهي عن المنكر، و قد تلمح الآيات التالية أن المحور هنا في «ان عصوك» هم الكفار و على هامشهم عصاة المؤمنين.

وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ 217 الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ 218 وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ 219 إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ‏ 220.

و «الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» تلحيقة مكرورة طوال السورة في عرض الايمان و الكفر، ف «العزيز» أمام الكافرين و «الرحيم» أمام المؤمنين، ف «توكل» في كل المجالات الرسالية «عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» و لا يهمك بعد ماذا يحصل بعد ان تطبّق أمر اللَّه في دعوتك فانه: «الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ» في صلاتك و في الدعوة الرسالية «1». «يراك» بعين العلم و القدرة و العناية فلا تفلت عن رؤيته، إذ لا يلتفت عن رعايتك.

«يَراكَ حِينَ تَقُومُ، وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» منذ كنت في أصلاب طاهرة و أرحام مطهرة، و حتى رسالتك و إلى ارتحالك إلى رحمة ربك‏ «2» فهل ترى ان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 69 القمي حدثني محمد بن الوليد عن محمد بن الفرات عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية: الذي يراك حين تقوم «في النبوة» وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» قال: في أصلاب النبيين.

(2) المصدر. روى جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و

في الدر المنثور 5: 98- اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال‏ سألت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 120

اللَّه يتغافل عمن تكون حياته قياما لدينه، و تقلبه فيها سجودا «فِي السَّاجِدِينَ».

و قد يعني‏ «تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» إلى ما عناه، أنه كان يرى في صلاته من خلفه كما يرى من بين يديه، تقلب العلم و الرؤية للساجدين و هو في الساجدين، و كما

يروى عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «لا ترفعوا قبلي و لا تضعوا قبلي فاني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي ثم تلا هذه الآية» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقلت بابي أنت و امي اني كنت و آدم في الجنة؟

فتبسم حتى بدت نواجذه ثم قال: اني كنت في صلبه و هبط إلى الأرض و انا في صلبه، و ركبت السفينة في صلب أبي نوح و قذفت في النار في صلب أبي ابراهيم لم يلتق ابواي قط على سفاح لم يزل اللَّه ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفّى مهذبا لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما قد أخذ اللَّه بالنبوة ميثاقي و بالإسلام هداني و بين التوراة و الإنجيل ذكري و بين كل شي‏ء في شرق الأرض و غربها و علمني كتابه و رقى بي في سمائه و شق لي من أسمائه فذّ و العرش محمود و انا محمد و وعدني ان يحبوني بالحوض و أعطاني الكوثر و انا أوّل شافع و أوّل مشفع ثم اخرجني في خير قرون امتي و امتي الحمادون يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر. و رواه في البرهان 3: 192 عن ابن بابويه عن جابر قال سئل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) .. مثله و روى بطرق كثيرة.

و

في تفسير البرهان 3: 192 القمي قال حدثني محمد بن الوليد ممن محمد بن الفرات عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: الذي يراك حين تقوم و تقلبك في الساجدين قال: في أصلاب النبيين.

(1).

المصدر- اخرج مالك و سعيد بن منصور و البخاري و مسلم و ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هل ترون قبلتي هاهنا فو اللَّه ما يخفى عليّ خشوعكم و لا ركوعكم و اني لأراكم من وراء ظهري و فيه اخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: كان النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذا قام إلى الصلاة رأى من خلفه كما يرى من بين يديه و أخرجه مثله عن مجاهد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 121

أم و كل تقلّباته و تحولاته الحيوية في الساجدين و هم كل المؤمنين معه، و الآية تتحمل مربعة المعاني أدبيا و معنويا.

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى‏ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ 221 تَنَزَّلُ عَلى‏ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ 222 يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ‏ 223.

أجل إن الشياطين لا تتنزل إلّا على الشياطين و هم كل أفاك أثيم، دون المؤمنين الصادقين، و لا سيما المخلصين: «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (38: 83).

و الإفك هو قلب الخبر إلى غير واقعة، فالأفّاك هو المقلّب، و الأثيم هو الفعال لكل اثم و قبيح ذميم.

«يُلْقُونَ السَّمْعَ» تسمّعا و استراقا دون سماع صادق مسموح، فلذلك: «وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ» فيما ينقلون عن الملإ الأعلى.

و لأن «السمع» تعم المصدر و المفعول، فمصدره يعني إلقاء التسمّع إلى الملإ الأعلى، و مفعوله يعني إلقاء ما سمعوه منه إلى شياطينهم، «وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ» في تسمعهم و إسماعهم، و قد يعني يلقون- الى ما عناه- «كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ»- «يُلْقُونَ السَّمْعَ» إلى هؤلاء الشياطين دونما تثبت فيما يسمعون‏ «وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ» فيما ينقلون، و حتى القليل الصادقين في سمعهم إنما ينقلون ما يسمعون من الكذب، و نقل الكذب كذب مهما كان صدقا في النقل.

و في صيغة «يلقون» لمحة باهرة أنهم كانوا يسمعون بسمعهم دون أنفسهم بعقولهم و قلوبهم، ففي إلقاءهم سمعهم إلغاءه بانقطاع صلته عن نفوسهم، و لا سيما «كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ» يحوّلون أسماعهم إلى الشياطين بغير حساب، و مثله ك «يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ»- «إذ تلقون بألسنتكم» عناية إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 122

إلغاء الألسنة و الأسماع عن الرباط بالعقول و الأفكار، يقول و يسمع دون تعقل و تفكير.

و إذا كان‏ «أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ» يعني كلا الملقين و الملقى إليهم، سقط القول: كيف‏ «أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ» و الشياطين كلهم كاذبون فيما يقولون أو ينقلون، مهما خلطوا صدقا إلى كذبهم؟ حيث الأكثر يعني الملقى إليهم فيما ينقلون.

و لأننا لا نجد إفكا و لا إثما في هذا النبي الكريم، و لا كذبا في قرآنه العظيم، فليس إذا مما تنزل به الشياطين، فصدق القرآن بوحيه الأمين، هو من القضايا التي قياساتها معها دون حاجة إلى برهان آخر، بل هو البرهان لكل برهان، و الشاهد لكل حق.

وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ‏ 224.

جواب آخر عن فرية أخرى أنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ» (52: 30) يخيّل بشعره إلى الناس كلّ ما يقوله كأنه حق يوحى إليه، حيث الشعر باب من السحر.

و ترى من هم الشعراء؟ و ما هو الشعر؟

الشعر لغويا من الشّعر: الدقة و اللطافة في الإدراك، و يقال لما يقابل النثر حيث يجمع إلى لطائف المعاني و حقائقها لطائف الأوزان و دقائقها، و قد يضل المعنى الحق بين الأمرين فيضل، و يقال لكل واحد ايضا شعر، معنى دقيق دون وزن الشعر، وزن الشعر دون معنى دقيق، و الجامع للأمرين هو الشعر المطلق و أحدهما مطلق الشعر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 123

فقد كانوا يتهمون الرسول انه شاعر و قرآنه شعر لجمعه الأمرين وزنا و معنى، فهو يسحر الناس بشعره، لا أنه يسخرهم بحقائقه، فان لوزن الكلام تأثيرا في العقول و الأحلام ليس لغير الموزون من الكلام، كما ان للمتخيلات الملتوية تأثيرا ليس للحقائق الصافية!. و في الأصل العبراني؟؟- (شاعر): فكّر- تصور- اعتبر- حدس- قدّر- افترض.

و؟؟- (شعار) شعر- ألياف.

و الشعور دقة في الإدراك، كما المشعر هو مكان الدقة، و قد تغلب الشعر على الإدراكات الدقيقة المتخيلة الخليطة من حق و باطل، و يقال ايضا للحق الدقيق.

فالشاعر غير المؤمن الصالح يستعمل الشعر و الشعور في الباطل و الغواية «يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ» و الشاعر المؤمن الصالح يستعملها في الحق و الهداية «.. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ..». و قد تعم «الشعراء»

«من تعلموا أو تفقهوا بغير علم فضلوا أو أضلوا» «1»

حيث يتبعون الأهواء و الأوهام و الخيالات و

«هم القصاص» «2»

إذ يقصونها على غثاء الناس، و كل غاو من الشعراء له غواة من أتباعه يتبعونه فيما يقول‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 70 المجمع روى العياشي بالإسناد عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام): ...

(2)

في اعتقادات الصدوق‏ سئل الصادق (عليه السلام) عن الآية قال: هم القصاص.

(3) الدر المنثور 5: 99- اخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: تهاجى رجلان على عهد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أحدهما من الأنصار و الآخر من قوم آخرين و كان مع كل واحد منهما غواة من قومه و هم السفهاء فأنزل اللَّه‏ «وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 124

«و الشعراء» من النوع الأول هم غاوون و «يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ» حيث يذهبون في أقوالهم المذاهب المختلفة، و يسلكون الطرق المتشعبة، يهبون مع كل ريح، و يطيرون بكل جناح، فيرتكبون أي جناح، تابعين لكل قائد، و مجيبين لكل ناعق، سلسوا القياد لمن يجرّهم، متصرفين في وجوه الكلام من مدح و ذم و استزادة و عتب و غزل و نسيب و رثاء و تشبيب، أودية متشعبة و سبل مختلفة في الشعر فيها يهيمون:

أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ 225 وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ‏ 226.

الهيمان هو الذهاب على وجه الاسترسال دونما حساب، كما و هيمان الحب هو المسترسل، منه فوصفهم بالهيمان فرط مبالغة في صفتهم بالذهاب في أقطارها، و الإبعاد في غاياتها، و الهيمان صفة من صفات من لا مسكة له و لا رجاحة معه، فهي مخالفة لصفات ذي الحلم الرزين، و العقل الرصين.

و من طبيعة الشعراء استرسال القول دون حساب في كل الوديان،

«و في كل مذهب يذهبون» «1»،

وفق الانفعالات المسيطرة عليهم تحت وقع الدوافع الأحيانية و المؤثرات المصحلية الآنية.

يهيمون في كل الوديان حقا و باطلا، و يتلونون بكل الألوان حسب المصلحيات الوقتية، و الشهوات الأصلية و الجانبية، فلذلك‏ «يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ» أمثالهم، ثم: «وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ» نفاقا عارما بين أقوالهم المفرطة و المفرّطة، و بين أفعالهم، إذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 72 القمي في قوله جل ذكره: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ» يعني: يناظرون بالأباطيل و يجادلون بالحجج المضلين و في كل مذهب يذهبون و انهم يقولون ما لا يفعلون؟ قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 125

يعيشون في عالم من الخيالات و الشهوات، فيؤثرونها على واقع الحياة و الواقعيات، فيلقون القول مسترسلين دونما ضابطة أو رابطة إلّا ما تهواهم أنفسهم «يعظون الناس و لا يتعظون، و ينهون عن المنكر و لا ينتهون، و يأمرون بالمعروف و لا يعملون» (52).

طبيعة الإسلام و هي الواقعية المطلقة و الحقيقية المرسلة لا تلائمها طبيعة الشعراء الخياليين الهائمين في كل واد، حيث الإسلام يحرّض على تصديق الحقائق و تحقيقها، دون تهرّب منها إلى وهميات، و ليست معارضة الإسلام للشعر و الشعراء إلّا في هذين البعدين البعيدين عن الواقعية المطلوبة: «أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ، وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ» و هما من خلفيات عدم الايمان و عدم الثبات على خط الحق و الواقع المصاب.

و اما الشعر المستقر على الحق، المتبنّي إبطال الباطل و تحقيق الحق النابع عن الإيمان، البعيد عن التخيلات و الوهميات و عن كل تفريط و إفراط، فلا يعارضه الإسلام بل و يحرّض عليه.

فكما يقول الرسول عن الشعر: «لإن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من ان يمتلئ شعرا» «1»،

كذلك‏

هو يقول‏ جوابا عن: ماذا تقول في الشعراء؟: ان المؤمن مجاهد بسيفه و لسانه و الذي نفسي بيده لكأنما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 99- اخرج ابن أبي شيبة و احمد عن أبي سعيد قال بينما نحن نسير مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 126

ينضخونهم بالنبل» «1»

و

قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لحسان بن ثابت‏ أهج المشركين فإن جبريل معك» «2»

و

قال: «ان من الشعر حكمة» «3»

و كما اللَّه يقول:

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ‏ 227.

مواصفات اربع تستثني من الشعراء، الموصوفين بها، و هي الايمان و عمل الصالحات و ذكر اللَّه كثيرا و الإنتصار من بعد الظلم، و الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يتلوا آية الاستثناء على أصحابها «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 70 المجمع عن الزهري قال حدثني عبد الرحمن بن كعب بن مالك ان كعب قال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ماذا تقول في الشعراء؟ ...

(2) الدر المنثور 5: 100- اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ...

(3) المصدر اخرج ابن سعد و ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال: قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ... و

فيه اخرج عن ابن أبي شيبة عن ابن مسعود عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ان من الشعر حكما و ان من البيان سحرا.

(4)

الدر المنثور اخرج عن أبي حسن سالم البراد قال: لما نزلت‏ «وَ الشُّعَراءُ ..» جاء عبد اللَّه بن رواحة و كعب بن مالك و حسان بن ثابت و هم يبكون فقالوا: يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لقد انزل اللَّه هذه الآية و هو يعلم أنّا شعراء أهلكنا؟ فانزل اللَّه‏ «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ...» فدعاهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فتلاها عليهم،

و

فيه اخرج أحمد و البخاري في تاريخه و أوب يعلى و ابن مردويه عن كعب بن مالك‏ انه قال للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ان اللَّه قد انزل في الشعر ما انزل فكيف ترى فيه؟ فقال: ان المؤمن يجاهد بسيفه و لسانه و الذي نفسي بيده لكأنما بوجههم مثل نفج النبل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 127

هنا «وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً» يعني في شعر و سواه ليذهب بفضاضته، كما «وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا» تجعل الشعر ذريعة للانتصار لمن ظلم، و لا تخص «ظلموا» ظلما شخصيا بالشاعر، أم و بمن يحبه و اكثر من نفسه كالرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و من يحذو محذاه، أو و بأحرى أحب من كل محبوب و هو اللَّه، هتكا لساحة الألوهية أو الرسالة أو الإمامة أو الايمان أم أيا كان من ظلم حيث يرجع إلى الشاعر فهنالك‏ «انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا» دون إفراط أو تفريط و إنما جزاء وفاقا.

و

قد «قيل يا رسول اللَّه ان أبا سفيان بن الحرث بن عبد المطلب يهجوك فقام ابن رواحة فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ائذن لي فيه، قال: أنت الذي تقول: ثبت اللَّه؟ قال: نعم يا رسول اللَّه، قلت:

ثبت اللَّه ما أعطاك من حسن\* تثبيت موسى و نصرا مثل ما نصرا «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 100- اخرج ابن سعد عن البراء بن عازب قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ... قال: و أنت يفعل اللَّه بك مثل ذلك ثم وثب كعب فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ائذن لي فيه فقال: أنت الذي تقول:

همت؟ قال: نعم يا رسول اللَّه قلت:

همت سخينة ان تغالب ربها\* فليغلبني مغالب الغلاب قال: أما ان اللَّه لم ينس ذلك لك ثم قام حسان الحسام فقال يا رسول اللَّه ائذن لي فيه و اخرج لسانه اسود فقال يا رسول اللَّه ائذن لي فيه فقال: اذهب الى أبي بكر فليحدثك حديث القوم و ايامهم و أحسابهم و اهجم و معك جبريل.

و

فيه اخرج ابن سعد عن ابن سيرين قال: قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ليلة و هم في سفر ابن حسان بن ثابت فقال لبيك يا رسول اللَّه و سعديك قال أحد فجعل ينشده و يصغي إليه حتى فرغ من نشيده فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لهذا أشد عليهم من وقع النبل.

و

فيه اخرج ابن سعد عن مدرك بن عمارة قال قال عبد اللَّه بن رواحة قال لي رسول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 128

اجل و حماية اعراض المسلمين هي تلو حماية عقيدة التوحيد و الرسالة و الإمامة و قد أمر بها الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «1».

فهؤلاء الكرام ليسوا داخلين في الوصف العام للشعراء حيث امتلأت قلوبهم من عقيدة الأيمان و استقامت حياتهم على منهجه، فلا يعملون إلّا الصالح و لا يقولون إلّا الجميل، فتظهر سلبية الايمان «لا إله» و ايجابيته «إلّا اللَّه» في نثرهم و شعرهم.

و المذكورون هنا قد نافحوا عن العقيدة في إبّان المعركة المصيرية الضارية مع الشرك على الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فاذن لهم ان يهجوهم.

و هذه ضابطة سارية ان الشعر حين ينبع عن التصور الإسلامي و العقلية الإسلامية السامية، يعتبر من الأعمال الصالحة الايمانية- و أحيانا في قمتها.

.. وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ‏ 227.

«سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ» (54: 26) و المستقبل المفهوم من أداته هنا ليس بذلك البعيد في القيامة الكبرى فحسب، بل في البرزخ و الرجعة و قبلهما ايضا، فان اللَّه يجازي الظالم هنا كما يجازيه في الأخرى، مهما كان فيها الأوفى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كيف تقول الشعر إذا أردت ان تقول كأنه يتعجب لذاك؟ قلت: انظر في ذاك ثم أقول، قال: فعليك بالمشركين.

(1).

المصدر اخرج ابن سعد عن جابر ابن عبد اللَّه قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): من يحمي اعراض المسلمين؟ فقال عبد اللَّه بن رواحة: انا و قال كعب بن مالك: انا، فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أنت تحسن الشعر و قال حسان بن ثابت: انا فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أهجم فان روح القدس سيعينك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 129

فقد ختمت السورة بمثل ما ابتدأت به: «فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ»، و «منقلب» مصدر ميمي و اسم زمان و مكان، فهو الانقلاب نفسه و زمانه و مكانه كما كان‏ «وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا».

و «آل محمد حقهم» في بعض الروايات لا تعني أنها كانت في القرآن ثم حذفت، بل هي تفسير تطبيقي بأبلغ مصاديق الظلم! و لا يعني «آل محمد» إلا محمدا و آله عليهم السلام، أم هم فحسب كمصداق أهم ثان بعد محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

و قد تلى الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الآية كما هيه‏ «1» برواية اهل البيت فليست إلا هيه حسب القراءة المتواترة ان الظالمين سيعلمون منقلبهم علم اليقين و حقه ورد العذاب ولات حين متاب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 294- ابن بابويه قال حدثنا محمد بن علي ماجيلويه قال حدثنا علي عن أبيه عن علي بن معبد عن الحسين بن خالد عن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من أحب ان يتمسك بديني و يركب سفينة النجاة بعدي فليقتد بعلي بن أبي طالب (عليه السلام) و ليعاد عدوه و ليوال وليه فانه وصيي و خليفتي على أمتي في حياتي و بعد وفاتي و هو أمير كل مسلم و أمير كل مؤمن بعدي قوله قولي و أمره أمري و نهيه نهيي و تابعه تابعي و ناصره ناصري و خاذله خاذلي ثم قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): من فارق عليا (عليه السلام) بعدي لم يرني و لم أره يوم القيامة و من خالف عليا (عليه السلام) حرم اللَّه عليه الجنة و جعل مأواه النار و من خذل عليا خذله اللَّه يوم يعرض عليه و من نصر عليا (عليه السلام) نصره اللَّه يوم يلقاه و لقنه حجته عند المنازلة ثم قال: الحسن و الحسين اماما امتي بعد أبيهما و سيدا شباب أهل الجنة و أمهما سيدة نساء العالمين و أبوهما سيد الوصيين و ولد الحسين تسعة أئمة تاسعهم القائم من ولدي طاعتهم طاعتي و معصيتهم معصيتي الى اللَّه أشكو المنكرين لفضلهم و المضيعين لحقهم بعدي و كفى باللَّه وليا و كفى باللَّه نصيرا لعترتي و أئمة امتي و منتقما من الجاحدين لحقهم‏ «وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 131

سورة النمل مكية و آياتها ثلاث و تسعون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 133

[سورة النمل (27): الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَ كِتابٍ مُبِينٍ (1) هُدىً وَ بُشْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4)

أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5) وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

تتسمى هذه السورة باسم قهرمانتها: «النمل» المنقطعة النظير ذكرا في الذكر الحكيم، و قولا يخرق العادة الجارية ان الحيوان لا تنطق، بلى و كما «قالَتْ نَمْلَةٌ ... فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها ..»! و انها من الطواسين الثلاث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 134

و تنقصها عن أختيها «م» المذكورة في الشعراء و القصص.

تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَ كِتابٍ مُبِينٍ‏ 1.

«تلك النازلة في مثلث الزمان من الآيات المفصلات هي‏ «آياتُ الْقُرْآنِ» و هو جملة الآيات و هي أبعاضه‏ «وَ كِتابٍ مُبِينٍ» علّه النازل عليه ليلة القدر من حكيمة دون تفصيل، فانه يبين تفصيله في هذه الآيات، و هو أمّ الكتاب لدى اللَّه، فانه يبين محكمه للرسول ثم تفصيله إلى العالمين.

و علّه عبارة أخرى عن القرآن، فانه مبين نفسه بنفسه و مبين رسالة من جاء به، أم و هو نبي القرآن حيث «كان خلقه القرآن» و كما يقال عنه «أنا القرآن و السبع المثاني و روح الروح بل روح المعاني» كما و «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ» و كتاب حياة الرسول الرسالية مبين إشاراته و لطائفه و حقائقه، إبانة علمية و واقعية، فانه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) تفسير واقعي للقرآن مع ما يفسره علميا!.

اجل «تلك» البعيدة المدى، القريبة الهدى، من حروفها الرمزية ك «طس» و آياتها البينات المبينات، هي‏ «آياتُ الْقُرْآنِ» المقروّ على أسماع العالمين من إرسالية رسالية عليا لخاتم المرسلين‏ «وَ كِتابٍ مُبِينٍ».

هُدىً وَ بُشْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ‏ 2.

ليس‏ «هُدىً وَ بُشْرى‏» بل هو ككل بمادته و ماهيته‏ «هُدىً وَ بُشْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» به، فلو ان للهدى و البشرى المصدرين مثالا واقعيا لكان هو القرآن لا سواه، فانه خالص الهدى و البشرى. و لماذا- فقط- «للمؤمنين»؟ و هو «هدى للناس- و- للعالمين» أجمعين! إنه «بشرى» دون ريب- فقط- للمؤمنين، إذ لا يبشّر الكافرون و انما هم المنذرون، و أما «هدى» فهي هنا تعني «هدى» في مثلثها: هدى أولى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 135

هي طبيعتها لحاملها، حيث يتحرّى عن هدى اللَّه فيصل إلى القرآن و هو قمتها، و هدى ثانية هي حصيلة الأولى حيث يعيشها في القرآن تخلقا به علميا و معرفيا و عمليا، ثم ثالثة هي حصيلة الايمان بالقرآن و التدبر في آيه الكريمة.

ف «هدى» هنا «للمؤمنين» هي على غرار و قرار «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ»، فالقرآن هدى في مثلثها للمؤمنين المتقين‏ «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» و اما الذين في قلوبهم زيغ فليس لهم هكذا هدى، و انما دلالية و هم لا يتحرونها، و هي في كل زواياها و حواياها- و لا سيما الزاوية القمة- حقيقة عميقة ضخمة، فانه ليس- فقط- كتاب تفلسف و نظر بل هو في أصله كتاب القلوب و الأنفس: «وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً» (4: 63) فيسكب هداه على قلوب المهتدين، حيث يتلقونه بالايمان و اليقين، و كلما كان القلب أندى و الفؤاد أهدى، أدرك صاحبه من هداه أندى و أهدى.

ليس مفتاح تفهم القرآن- فقط- الصلاحات المكرورة، و إتقان الأدب لغويا و نحويا، بل هو القلب المفتوح، الفاضي عما سوى اللَّه، الفائض بنور معرفة اللَّه، فلن تفتح كنوز القرآن- بعد المفاتيح الظاهرة- إلّا بمفتاح الايمان، إذا فهو «هُدىً وَ بُشْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» على قدر ايمانهم و ايقانهم بوحي القرآن.

و ليس المؤمنون هم الذين يؤمنون- فقط- بقلوبهم فلا يظهر في اعمالهم، عبادة للَّه و خدمة و عونا لعباد اللَّه، بل هم:

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ‏ 3.

هنا يتوسط كلّ ما بين المبدء و المعاد عمليا بين المبدء: «للمؤمنين»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 136

فان قمة الايمان هي الايمان باللَّه، و المعاد: «وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» جمعا بين الأصول القمة و الفروع القمة، فالصلاة هي القمة بين الواجبات العبادية، و الزكاة قمة بين الواجبات الخلقية.

و لماذا «هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ» بدلا عن أخصرها «و بالاخرة»؟ لأن الايمان بالمبدء، الظاهر في التصديق بالوحي، الناتج عنه إقام الصلاة و إيتاء الزكاة، هو الدافع للإيقان بالآخرة، كما الإتيان بها يدفع إلى أعمال الايمان، فلا يؤمن بالآخرة إلا المؤمن باللَّه و بوحي اللَّه دون سواه، فإذ لا مبدء لا مجال للمعاد، و إذ لا وحي فما هي فائدة المعاد؟! كما الإيقان بالآخرة هو الذي يشغل بالهم بعد سائر الايمان، و يصدهم عن جموع الشهوات الطائشة، حيث يغمر أرواحهم بتقوى اللَّه و ينظّفها عن طغوى اللهو، و يقابلهم تماما:

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ‏ 4.

غير المؤمن بالآخرة، مهما كان مؤمنا باللَّه- على زعمه- اعماله- بطبيعة الحال- سيئة، و من سوء حاله على سوء أعماله‏ «زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ»- فهم يحسبون انهم يحسنون صنعا، هنا «زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ» نسبة الفعل الى اللَّه، و في غيرها «فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ..» (16: 63)

و كيف يضيف اللَّه الى نفسه فعلة الشيطان؟ و هو إغواء و اللَّه منه براء؟ إذ «قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» (15: 39)! انه تعالى يزين لهم سوء أعمالهم سلبيا ألّا يصد الشيطان عن تزيينه، و ايجابيا انه يزيغ قلوبهم بما زاغوا: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» كما «خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ عَلى‏ سَمْعِهِمْ وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» (2: 7).

«فَهُمْ يَعْمَهُونَ» لذلك التزيين، حائرين عن الهدى، مائرين إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 137

الردى، عمي البصيرة بما تغامضوا عنها، و قد تصبح النفس البشرية عمها عن اعمالها السيئة حين تخوض اللذات و لا تؤمن بالآخرة، و النفوس مطبوعة على حب الملذات، فتوجيها لها إلى حسنات ما لم تهتد بآيات اللَّه و رسالاته البينات.

فكما النفس الانسانية مستعدة للاهتداء إن تفتحت لدلائل الهدى متحرية عنها، كذلك هي مستعدة للعمه و العمى إن طمست منافذ الإدراك فيها: «أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ ..» (35: 8).

فالإيمان في أصله قيد الفتك، و الايمان بالآخرة بعد الايمان باللَّه هو الزمام الذي يكبح نزوات النفس و شهواتها، تضمينا للقصد و الاعتدال في الحياة الدنيا، ليضمن الفلاح في الأخرى، فالناكر للحياة الأخرى يظن الفرصة الوحيدة المتاحة له هي الحياة الدنيا، فتتزين له كل الشهوات و النزوات كغنائم يغتنمها فيها فيميد فيها و يعمه ..

أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ‏ 5.

«سُوءُ الْعَذابِ» ليس هو الظلم في الحساب- و عوذا باللَّه- «لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» و انما هو الحساب الدقيق الذي لا يبقي على أثر، دون سماح فيه عن كبيرة و لا صغيرة و لا تخفيف‏ «وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ»:

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (18: 104).

وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) «لتلقى» تلقيا دون وسيط يكدّره، و انما يلقّيك الروح الأمين كما يتلقّاه من رب العالمين، تلقيا حكيما «مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ» و عليما «من لدن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 138

عَلِيمٍ».

و انه ليس- فقط- تلقيا للسمع ألفاظه و انما هو تلق للقلب حيث يتفأد به بنور الوحي: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلى‏ قَلْبِكَ ..» (26: 193).

إذا فكما الملقّي للقرآن حكيم عليم، كذلك الملقّى يصبح به حكيما عليما، و الروح الأمين الوسيط حكيم عليم، و هما في اللَّه الأصيل، و في الملقّى و الملقّى به فرع ظرفا صالحا لتلقّيه.

و من ذلك الظرف- كأصل- اللقيا المعرفية و العبودية حيث التلقي تلقّن بلقاء في تكلف و صعوبة، فان تطهير القلب لحد يصلح لتلقي القرآن صعب مستصعب لا يحتمله أحد إلّا محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)، أن يصّعد قلبه في لقاء ربه إلى أعلى القمم الممكنة لمن سوى اللَّه، و «مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ» دون «اللَّه» ام سائر صفاته، قد تلمح الى ان ذلك التلقي انما هو بتلقية حكيمة عليمة ربانية، فالقرآن يحمل علما و حكمة ربانية، فليلقّ ظرفا حكيما عليما، و ليكون نورا نازلا على نور، و كما وسيط وحيه نور، نور على نور يهدي اللَّه لنوره من يشاء.

[سورة النمل (27): الآيات 7 الى 14]

إِذْ قالَ مُوسى‏ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (8) يا مُوسى‏ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى‏ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11)

وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 139

حلقة سريعة من الرسالة الموسوية تلقيا للوحي من النور النار في الشجرة، تدليلا على ان تلقي القرآن ليس بدعا من تلقي الوحي، فمن كان في ريب منه فليذكر:

إِذْ قالَ مُوسى‏ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ‏ 7.

هنا «اهله» لا تعني- فقط- زوجته بنت شعيب، بل و معها غيرها من ولد و سواهم لمكان‏ «سَآتِيكُمْ‏ .. تَصْطَلُونَ» و الجمع و لا سيما المذكر منه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 140

لا يؤتى به لواحدة.

«إِنِّي آنَسْتُ ناراً ..» و حقيقة الإيناس هي الإحساس بالشي‏ء من جهة يؤنس بها و يسكن إليها، و يا له من إيناس بعد الإياس في قرّ الليل المظلم بوعثاء السفر، و في خبر انه في رجوعه من مدين ضل الطريق في ليلة ظلماء «1».

و قد كانت النيران توقد في البرية فوق البرية فوق المرتفعات لهدي السالكين في الليالي، فظنها كأنها منها، دون تأكّد فيها حيث‏ «آنَسْتُ ناراً» و لا تنافيه‏ «إِذْ رَأى‏ ناراً ..» (20: 10) حيث الرؤية قد تكون إيناسا دونما اطمئنان، فلذلك‏ «سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ ..» ترددا بين «خبر» علّه خبر السماء، و بين‏ «بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ»: استيقادا بصلاء شهاب قبس مقتبس من النار، فالشهاب هو الشعلة الساطعة من النار المشتعلة، و القبس هو المقبس منها.

و علّ «لعلّكم» هنا تختص ب «آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ» فعندئذ «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» و أما «خبر» ف «سآتيكم ..» كأنه متأكد هنا من خبر السماء في النار، ام مطمئن اليه اكثر من اصل النار، و قد ذكرت في طه كما هنا و بعكس الترتيب: «إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً» فقد تختص «لعليّ» بالأولى، ثم «أو أجد» دون «نجد»- «عَلَى النَّارِ هُدىً» خارجة عن «لعلّي» كأنها متأكدة ام راجحة مطمئنة، ثم النص‏ «إِنِّي آنَسْتُ ناراً ..» دون «إنّا» و لو كانت هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 373 عن الباقر (عليه السلام) في‏ «آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ .. كان قد اخطأ الطريق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 141

النار المرئية لأي راء لرأته اهله معه! و هذه ترجيحة اخرى لما ذكرنا، ان الهدى الرسالية هي الراجحة، بل و لأنها كانت هي المترقّبة لموسى و بعد تأجيل ذلك الردح البعيد من الزمن، فيخبر- إذا- بهذه الفروسية اللّامعة:

«سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ» هنا، و «أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً»- و كما فصلنا- في طه!.

فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (8).

هنا «فَلَمَّا جاءَها» و في طه‏ «فَلَمَّا أَتاها ..» و هما تتجاوبان في معنى:

حضر عندها، ثم هنا «نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها ...» و في طه‏ «... نُودِيَ يا مُوسى‏. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ..» فقد كانت النداء من الشجرة المباركة الزيتونة المحلّقة عليها نار النور و نور النار: كما في القصص: «فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى‏ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» (30).

«.. نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها ..».

و ترى‏ «مَنْ فِي النَّارِ» هو اللَّه سبحانه و تعالى، بذاته المقدسة المتعالية عن الحدّ و المكان؟ و «بورك» الرامية إلى حادث البركة على من في النار تبعده عن ساحته تعالى، تقريبا إلى من باركه اللَّه في هذه النار، كما و «سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» تسبحه و تنزهه عن ان يحل في نار أو نور هي من مربوبيه و هو رب العالمين، فقد متّى المتى فليس له متى، و مكّن المكان فليس له مكان! ام‏ «مَنْ فِي النَّارِ» هو من ظهر سلطانه و قدرته و رحمته في النار؟ و لا يعبر عن سلطانه و رحمة ب «من»! و لا تحلّ قدرته في شي‏ء، نارا ام غير نار! فلا تعني‏ «مَنْ فِي النَّارِ» لا ذاته سبحانه و لا صفاته، حيث البركة هي منه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 142

إلى خلقه، فكيف «بورك»؟ و من هو الذي باركه؟ ام بارك نفسه ما لم يكن باركها من ذي قبل! «سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ»! قد يعني‏ «مَنْ فِي النَّارِ» روح القدس، المبارك هنا بحمل الوحي الرسالي لموسى، ف «من حولها» هو موسى حيث بورك بذلك الوحي.

ام‏ «مَنْ فِي النَّارِ» هو موسى بمن معه من وسيط الوحي أم ليس معه، حيث «أتاها» فحصل في جو النور النار، ف «من حولها» هم الأنبياء الإسرائيليون الذين بوركوا بوحي السماء و هم مدفونون حول الواد المقدس، في القدس و ما حولها.

و على أية حال فلا تخلوا هذه البركة الخاصة في «بورك» عن وسيط الوحي و من أوحي اليه، و المحور الأصيل هنا هو موسى، دون ذات اللَّه او صفاته تعالى‏ «وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» عن هذه الشطحات الزور و الغرور!.

إنها نور كانت تترائى نارا قضية ظلم الليل و عدم وضح الوحي فيه، نور وقّادة خلقها اللَّه على الشجرة المباركة في الواد المقدس، و لقد مضت هذه البقعة في سجلّ الوجود في الكيان الرسالي مباركة مقدسة بتجلي الوحي الموسوي فيها، تلقيا لوحي التورات كما «وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ».

يا مُوسى‏ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏ 9.

«إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً. وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى‏ ...» (20: 13)- «.. نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى‏ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» 30:

«إني أنا ربك- الله رب العالمين- العزيز الحكيم» تلمح كمجموعة ان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 143

صيغة النداء كانت تشملها كلها، فمثلت التعبير مطوي فيها، و في كل مجالة من عرضها تأتي ما تناسبها من هذه الثلاث.

وَ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى‏ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ‏ 10.

«لدي» هنا تعني لدنية القرب في القمة المعرفية الرسالية، إذ يلقّى فيها الوحي، لا فحسب العلم و القدرة إذ يشملان كل كائن أيا كان و أيان، و «جان» هي الحية الصغيرة الناعمة، فقد اهتزت عصاه بشاكلة كأنها جانّ على كبرها حية تسعى‏ «وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ» خوفة منها، فإذا بخطاب رب العزة «يا مُوسى‏ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» و لقد كان من حقه أن يخاف جانّ العصا و لمّا يتقدم من ربه الأمن و ألّا يخف، إذ كانت عصاه سلاحه الذي يدفع به، فإذا هي حية تسعى، فلا قرار- إذا- إلّا الفرار من عصاه المقلوبة من أمنه و تأمينه إلى بأسه، و قد ظلم نفسه من ذي قبل:

«رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ..»!.

و ترى ان «لا تخف» إخبار عن واقع يستغرق كل المرسلين قضية الرسالة و انهم «لدي»؟ فلما ذا خاف موسى هنا- و قد بدأت رسالته بالوحي الرسالي- من آيته الرسالية؟ و ذلك تكذيب لما أخبر اللَّه به‏ «إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ ..» أو تكذيب- لكونه رسول اللَّه! أ لأنه لم يكن «لدي»؟ و هو لدى اللَّه في موقف الوحي الرسالي بآية من آياته! أم لم يكن حينه من المرسلين؟

و هو رسول بسند الوحي و آية الرسالة، ام ان هذه الضابطة مخصصة في موسى؟ و هي آبية عن التخصيص! و لو خصصت فلما ذا إذا «لا تخف» سنادا إلى نفس الضابطة: «إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ»!.

علّه داخل في المستثنى: «إِلَّا مَنْ ظَلَمَ»: انتقاصا قبل الرسالة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 144

«قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (28: 16).

فقد ظلم نفسه من قبل دونما تقصير ثم بدل حسنا بعد سوء فغفر له ربه، إذا فقد يكون من:

إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ‏ 11.

فهو بعد غفره تعالى لا يخاف لدى اللَّه فيما يأمره به اللَّه مهما ظهر جانا أو ثعبانا، بل هو من الآمنين: «يا مُوسى‏ أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» مهما كنت قبل‏ «مَنْ ظَلَمَ» و لكنك بدّلت بعد حسنا بعد سوء «فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ»، ف «لا تخف» المعلل ب «إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» هناك، و ب «لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ..» هنا، نهي عن خوفه من ظلمه لمكان غفره تعالى، و كأنه خيّل إليه الجان المحوّل عن عصاه، عساه جزاء عن ظلمه، غضا عن غفره و تعالى تطامنا و تذللا.

و انقطاع الاستثناء هنا لا يرجع إلى معنى صالح فانه «لا يخاف .. إلا من ظلم ثم غفر» و ليس للمغفور له أن يخاف كما ليس لغير الظالم ان يخاف، فانما الخائف هو الظالم غير المغفور له و هو خارج عن نص الآية.

و قد يقال‏ «لا يَخافُ‏ .. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ» و لمّا يغفر له، فلا يخفف‏ «فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ»؟ و لكن حصر الخوف لدى اللَّه بمن بدل، حسر له عمن ظلم و لم يبدّل و هو أحق أن يخاف لدى اللَّه! «إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» اخبار حال كونها إنشاء لسلب الخوف لدى اللَّه عن ساحة المرسلين، و حتى من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فاني غفور رحيم، فهو إذا من الآمنين، ليس له ان يخاف لدى اللَّه بعد ذلك الغفر الأمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 145

و يا له من مسرح الخوفة المولية له مدبرا دون تعقيب، إذ ألقى عصاه فإذا هي تدب و تسعى بسرعة هائلة كأنها جان، فأدركت موسى طبيعة الانفعالية، و هزّته هزّتها المفاجئة التي لم تك تخطر ببال، و هو في تلك الحال المباركة «بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ» فيجري في جريه مولّيا دون تفكير في الرجوع، فيأتيه النداء الحنون المنون‏ «يا مُوسى‏ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ..» و هذه ضابطة شاملة انه انما يخاف لدى اللَّه «من ظلم» ثم لم يبدل حسنا بعد سوء، و هلّا يخاف غير الظالم اللَّه كما لا يخاف لدى اللَّه؟

طبعا يخاف اللَّه و يخشاه حيث الخوف و الخشية من اللَّه هما قضية الضعة الكاملة أمام اللَّه، «لا يَخافُ لَدَيَّ» لا تنفي إلا الخوف عما يخيف من الكائنات المخيفة كحية العصا أمّاذا؟ جزاء الظلم، فامّا اللَّه‏ «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» باللَّه، العارفين قدر اللَّه.

خوف و خشية عن اللَّه هما قضية العلم باللَّه، و خوف لدى اللَّه ام سواه عما سوى اللَّه هو قضية عصيان اللَّه،

«من خاف الله أخاف الله منه كل شي‏ء و من لم يخف الله أخافه الله من كل شي» «1».

فقد كان يخاف موسى لما ظلم نفسه‏ «وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (26: 14) «فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ» (34: 28)، و هذا خوف من غير اللَّه قضية الانتقاص بجنب اللَّه.

ثم هنالك خوف من اللَّه قضية العلم باللَّه‏ «فَلا تَخافُوهُمْ وَ خافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (3: 175) «إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً» (76: 20) أم خوف في اللَّه حفاظا على شرعة اللَّه: «وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى‏ سَواءٍ» (8: 58).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عيون الأخبار عن الامام الرضا (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 146

فهنا خوف صالح و خوف طالح و عوان بين ذلك، و موسى ينهى عن العوان، و كلنا منهيون عن طالحه الى صالحة.

و الآن بعد ذلك الحنان من الرب المنان، و قد اطمأن موسى الى أمن الحضور و رحمته يؤمر مرة ثانية بآية أخرى:

وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ‏ 12.

لماذا «في جيبك» دون كمّك الداخلة يدك فيه دونما حاجة إلى إدخال؟

علّه لم يكن له كم فليدخلها في جيبه، ام ليتأكد انها أصبحت‏ «بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» و إلّا فعلّها كانت في كمه، و منذ فترة قصيرة بيضاء من سوء برص، فلا يجديه نفعا: «و أخرج يدك من كمك»!.

ثم‏ «فِي تِسْعِ آياتٍ» هل تعني كل الآيات الموسوية و هي اكثر منها؟

كلّا، و إنما هي التي‏ «إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ» «1» دون الباقية الخاصة ببني إسرائيل كما فصلناها في الأسرى على ضوء: «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى‏ تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ ...» (101). و لم يأت هنا بعديد الآيات التسع إلّا ثنتين و السبع الأخرى مسرودة في الأعراف؟ حيث التركيز على قوة الآيات و هما نموذجتان من اقواهما لنعرف المكذبين بها ما أغواهم.

و قد تعني‏ «فِي تِسْعِ آياتٍ» اليد و العصا، حيث التسع كلها ظهرت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و التسعة هي: 1- اليد البيضاء، 2- ثعبان العصا، 3- الطوفان، 4- الجراد، 5- القمل، 6- الضفادع، 7- الدم، 8- ضرب الأموال بنقص و طمس و أخذهم بالسنين، 9- فلق البحر.

و الآيات الخاصة ببني إسرائيل هي: 1- نتق الجبل، 2- تفجير اثنتي عشرة عينا، 3- المن و السلوى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 147

منهما، إذا فهما التسع في الأصل و كل التسع فروعها.

فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ‏ 13.

و لماذا «هذا» و «آياتنا» تتطلب «هذه»؟ علّه لأنها قولتهم الهاتكة لها دون قول اللَّه، فهم تغامضوا عن عديد الآيات، و حتى عن أنها آية إلهية، فلم يعتبروها إلّا شيئا و امرا مّا غير خارق للعادة، رغم انها مبصرة لمن ابصر إليها و بها، و لكنهم كانوا قوما عمين‏ «قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ» لا ريب فيه حيث يبين سحره للناظرين، و قد سبق لهم المسرح العظيم من صراع السحرة مع موسى في محشر الناظرين، و ثبت للساحرين أنفسهم ان ما جاء به موسى آية بينة من رب العالمين! و لماذا مبصرة، و كل آيات اللَّه مبصرة؟ علّها توصيفة تأكيدية لفرقة و تبيينية لآخرين! أم أن الآيات غير المبصرة حسيا أبعد عن الحجة و ان كانت اقرب الى المحجة و اثبت، و آيات موسى كلها مبصرة.

و لماذا «مبصرة» و الإبصار إنما هو للناظرين؟ علّها مبالغة في وضوحها كأنها هي التي تبصر الناظرين لشدة لمعانها، فتجلب الناظر لينظر إليها، إذا فهي مبصرة في ذاتها، دون حاجة إلى دافع آخر، لكونها خارقة للعادة بينة لا غبار عليها.

وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ‏ 14.

هؤلاء الأغاد المناكيد «جَحَدُوا بِها»: الآيات المبصرة «و» الحال انهم‏ «اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ» حيث تجاوزت أبصارهم إلى عقولهم، و شملت أنفسهم اللهم إلّا قلوبهم المقلوبة عن الهدى، المليئة من الردى، «جَحَدُوا بِها» لا عن اقتناع أو شبهة فيها أو ريبة تعتريها، و انما «ظُلْماً وَ عُلُوًّا» جحدا بألسنتهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 148

رغم استيقان أنفسهم، حيث القلوب قاسية لا تحن إلى هدى مهما استيقنت النفوس.

ف «أنفسهم» هنا لا تشمل قلوبهم، فان ظنها فضلا عن استيقانها يحمل أصحابها على التصديق.

و قد يلمح هنا الاستيقان دون الإيقان إلى استثناء قلوبهم عن أنفسهم، فقد كانت حواسهم و افكارهم و عقولهم و معها فطرهم تتطلّب ايقان قلوبهم لأنها ذرائع الايمان و الإيقان، و لكنهم‏ «جَحَدُوا بِها» بألسنتهم و قلوبهم‏ «وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ» بسائر ادراكاتهم، تغافلا عنها و تجاهلا عن تطلباتها، «ظلما» بأنفسهم و بالحق و الذرائع الموصلة اليه، فقد ظلموا حواسهم الى فطرهم و فكرهم و عقولهم، و تنازلوا عن استيقانها لقلوبهم، «و علوا» على اللَّه و رسله برسالاته، فذلك الظلم الفاتك عبّد طريقهم إلى علوّهم، فصدوا منافذ الهدى عن قلوبهم، و فتحوا مسالك الردى إليها فختم اللَّه عليها بما ظلموا و علوا!.

هذه الآيات المبصرة كانت مستيقنة تطلب اليقين، ثم و حواسهم بسائر ادراكاتهم كانت تستيقن هذه الآيات تطلبا ليقين القلوب، و لكنهم‏ «جَحَدُوا بِها ... ظُلْماً وَ عُلُوًّا» تنازلا و تغافلا عن كل ادراكاتهم و حتى الحسية الحيوانية، فهم أصبحوا أنزل من الحيوان و أنذل و أضل سبيلا، حيث تحلّلوا عن كافة الإحساسات و النفسيات انسانية و حيوانية!.

و ذلك هو أسفل دركات الجحود بالحق‏ «1» «فانظر» عبر التاريخ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 75 بسند متصل عن أبي عمر الزبيري عن أبي عبد الله (عليه السلام): أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز و جل، قال: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه فمنها كفر الجحود على وجهين- الى قوله-: و اما الوجه الآخر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 149

«كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» نظرا إلى مهالكهم بما ظلموا و علوا «وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ» فقد أفسدوا ذوات أنفسهم، و أفسدوا بذلك البلاد و مستضعفي العباد!.

[سورة النمل (27): الآيات 15 الى 44]

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى‏ كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى‏ وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى‏ والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (19)

وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (24)

أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْ‏ءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (28) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (29)

إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (30) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (33) قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (34)

وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35) فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ (37) قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39)

قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَ هكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (44)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

من الجحود على معرفة و هو ان يجحد الجاحد و هم يعلم انه حق قد استقر عنده و قد قال اللَّه عز و جل: و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علوا ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 152

عرض حافل لملك سليمان و سلطته الروحية الرسالية مع الجن و الأنس و الطير فهم يوزعون، في حلقات من حياته المنقطعة النظير مع الطير و النمل و ملكة سبإ، تبرز سلطته الملكية بجنب سلطانه الرسالي، تبيينا لعدله في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 153

سلطانه الجامع غير الجامح، قصصا حافلة بحركات و مشاعر و مشاهد، نبراسا ينير الدرب على الزعماء في كل حقل كيف يجب عليهم رعاية الرعايا و التجنب عن الخطايا:

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى‏ كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ‏ 15.

«لقد» تأكيدان اثنان لوهبة العلم الربانية، و «آتينا» في جمعية الصفات تاكيدة ثالثة تلمح لمختلف صنوف العلوم الربانية، الممكن ايتاءها للصالحين الخصوص، ثم «علما» منكرا تأشير إلى فخامة ذلك العلم، كما و «آتينا» تشير إلى انه ليس مما يحصل بتحصيل متعوّد، بل هو إشراق رباني الى قلوب الطاهرين على قدر الفاعليات و القابليات «علما» و معرفة باللَّه يتبع العقيدة الصالحة و العمل الصالح «علما» يعلم صاحبه مصدره، متجها إلى اللَّه، منفقا له في مرضات اللَّه، مقرّبا له إلى اللَّه، دونما صدّ للقلب عن اللَّه، زائغا عن مصدره و مورده، لا يثمر إلّا شقاوة، لأنه منقطع الصلة صادرا و واردا، و بعيدا عن النور مادة.

و هنا نعرف موقف الواو في‏ «وَ قالا ...» كأنها عطف على محذوف معروف من «علما» هذا، و هو العقيدة الصالحة و العمل الصالح: «آتَيْنا ... عِلْماً»- فاعتقداه و عملا به‏ «وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ ..» فذلك الحمد باللسان يتبع الحمد بالجنان و الأركان، شكرا على عطية الملك المنان، و «فضلنا» ليس فقط في مجرد العلم، إذ لا فضل في مجرده عن أثماره، بل هو الذي قال اللَّه عنه‏ «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ»-:

باللَّه و «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» علم التقوى و التقوى في العلم، جناحان يطير بهما العبد الصالح إلى قمم المعرفة و الكمال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 154

ثم و ليس «فضلنا» هنا- فقط- بما علمنا مجردا عما يرام منه مادة و فاعلية، بل «فضلنا» بما يفضّل عبادا على عباد و قمته التقوى، و «عَلى‏ كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ» تعقيبة رقيبة على ذلك التفضيل في علم و سواه، انه في العبودية و الايمان، دون العلم الفاضي عنهما، و انما هو الفائض منهما، الصادر عنهما، و الوارد موارد الحق المرام فيهما.

و لقد أشير إلى العلم المؤتى لداود في‏ «وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ» (38: 20) و لسليمان‏ «فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً (21: 79) فهما المؤتيان حكما و علما، يشملان قمما معرفية عالية فضّلا بها على كثير من عباده المؤمنين.

اجل و هم من القلة القليلة بين‏ «عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ»: «أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ» (56: 14) فتلك الثلة و هذه القلة هم القلة القليلة «مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ».

و من فضل داود المشار إليه ب «فضلنا»: «وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ» (10) «وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ» (34: 12).

فقد كان داود يرتل مقاطع من الزبور فيتجاوب به ذرات الكائنات من حوله، مما يدل على العبودية العريقة القمة، و سليمان المسخر له الريح و الجن و الإنس بأمر اللَّه قضية طاعة اللَّه كما قال اللَّه: عبدي أطعني حتى أجعلك مثلي انا أقول للشي‏ء كن فيكون، أجعلك تقول للشي‏ء كن فيكون! لذلك لمّا

«سأل رجل رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عن أفضل الأعمال فقال: العلم بالله و الفقه في دينه و كررها، عليه، فقال: يا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 155

رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) اسألك عن العمل فتخبرني عن العلم فقال ان العلم ينفعك معه قليل العمل و ان الجهل لا ينفعك معه كثير العمل» «1».

وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ‏ 16.

«ورث» هنا لا تعني ارث النبوة، بل هو هنا المال، فالنبوة ليست لتورث لأنها وهبة إلهية كما هنا «وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً» فاللَّه هو الذي علم سليمان كما علم داود فلا مجال لأرثه عنه بعد ما آتاه اللَّه، إلّا تحصيلا لحاصل و من غير مصدره! فالمال يورث بما فرضه اللَّه كضابطة لا تستثنى: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ..» إرثا دون تحصيل، ثم العلم غير الرسالي قد يورث و لكنه بتحصيل كما

«العلماء ورثة الأنبياء»

تعلما منهم، و لكنهما النبوة لا تورث إذ لا تحصل بتحصيل، و إنما هي وهبة إلهية لا تنتقل من نبي إلى نبي، بل هي عطية ربانية لمن يشاء: «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» فطالما العلم مصداق مجازي هامشي للإرث، فالنبوة غير داخلة في ميراث و لا مجازيا «2» فكيف يختص هنا الإرث بالنبوة توجيها لغصب فدك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير روح البيان 6: 326.

(2) اللهم إلّا مجازا بعيدا و ضمن سائر الميراث، بمعنى ان اللَّه تعالى أورث نبيا مثل النبوة السالفة ام فوقها ام دونها، و بين النبوة و الميراث عموم من وجه، فقد يكون الابن نبيا دون أبيه أو يكون الأب نبيا دون ابنه فلا ميراث هنا و هناك أو يكون الأب و الأبن نبيين و لكن النبوة الثانية ليست في الحق ارثا من الأولى إلا بمجاز بعيد عن حقيقة الإرث و مجازه القريب.

و حتى إذا عم الإرث النبوة إلى المال فليس ليختص بغير المال على أية حال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 156

البتولة الزهراء (عليها السلام) سنادا إلى مختلقة مخالفة لكتاب اللَّه «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة»! و كما يروي الحجاج بهذه الآية و اضرابها عن الزهراء سلام اللَّه عليها بين جماهير المسلمين في مسجد النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على الخليفة أبي بكر «1»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و قد أخرجت بألفاظ تالية:

«فاطمة بضعة مني فمن أغضبها اغضبني»

«.. يؤذيني ما آذاها و يغضبني ما أغضبها»

«.. يقبضني ما يقبضها و يبسطني ما يبسطها»

«.. يؤذيني ما آذاها و ينصبني ما أنصبها»

«.. يريبني ما رابها و يؤذيني ما آذاها»

«.. يسعفني ما يسعفنا-

و:

«فاطمة شجنة مني يبسطني ما يبسطها و يقبضني ما يقبضها»

«فاطمة مضغة مني فمن آذاها فقد آذاني»

«.. يقبضني ما قبضها و يبسطني ما بسطها»

«.. يسرني ما يسرها».

اخرج على اختلاف ألفاظها أئمة الصحاح الست وعدة اخرى من رجال الحديث في السنن و المسانيد و المعاجم و إليكم جملة ممن رواها: 1- ابو محمد ابن عيينة الكوفي المتوفي 198 كما في الصحيحين. 2- ابن أبي مليكة 117 في رواية البخاري و مسلم و ابن ماجة و ابن داود و أحمد و الحاكم. 3- ابو عمر بن دينار المكي 125 كما في صحيحي البخاري و مسلم. 4- الليث بن سعد المصري 175 كما في اسناد ابن ماجة و ابن داود و احمد.

5- ابو النضر هاشم البغدادي 305 مسند أحمد. 6- احمد بن يونس اليربوعي 227 كما في صحيح مسلم و سنن أبي داود. 7- الحافظ ابو الوليد الطيالسي 227 صحيح البخاري. 8- ابو المعمر الهذلي 336 صحيح مسلم. 9- قتيبة بن سعيد الثقفي 240 مسلم و ابو داود.

10- عيسى بن حماد المصري 248. 11- ابن ماجة. 12- احمد بن حنبل 241 في مسنده 4: 322 و 328. 13- البخاري في صحيحه 5: 374. 14- مسلم 261 في صحيحه 2: 261. 15- ابن ماجة في سننه 1: 216. 16- ابو داود في سننه 1: 324. 16- الترمذي في جامعه 2: 319. 17- الترمذي في نوادر الأصول 308.

18- النسائي في خصائصه 35. 19- ابو الفرج الأصبهاني في الأغاني 8: 156. 20- النيسابوري في المستدرك 3: 154، 158، 159- و إلى (49) شخصا ذكرهم العلامة الأميني في الغدير 7: 231- 235.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 157

«أ فعلى عمد تركتم كتاب اللَّه و نبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول اللَّه تبارك و تعالى: «وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ» و قال عز و جل فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» و قال عز ذكره‏ «وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى‏ بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ» و قال‏ «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ» و قال‏ «إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» و زعمتم ان لا حظوة لي و لا ارث من أبي و لا رحم بيننا، افخصكم اللَّه بآية أخرج نبيّه منها؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟ أ و لست و أبي من أهل ملة واحدة؟

أم أنتم أعلم بخصوص القرآن و عمومه من النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»؟

أ أغلب على إرثي ظلما و جورا «وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ» «1».

و

رواية أبي بكر عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة،»

مضروبة عرض الحائط لمخالفتها نصوصا من الكتاب، فانها معلّلة عدم الايراث بالنبوة، «وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ» و اضرابها تورّث الأنبياء بعضهم عن بعض! اضافة إلى المتواتر عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار ج 6 نقلا لها عن كتاب‏ «بلاغات النساء لأبي الفضل احمد بن أبي طاهر قائلا انها من المشهورات بين الفريقين‏

و

في كتاب الاحتجاج روى عبد اللَّه بن الحسن باسناده عن آبائه عليهم السلام‏ انه لما اجمع ابو بكر على منع فاطمة فدك و بلغها ذلك جاءت اليه و قالت له: يا ابن أبي قحافة أ في كتاب اللَّه ان ترث أباك و لا ارث أبي لقد جئت شيئا فريا، أ فعلى عمد تركتم كتاب اللَّه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 158

الرسول في فاطمته أن أذاها أذاه و رضاها رضاه و قد تأذت و وجدت من فعلة الخليفة «1».

ذلك ارث المال، و اما الحال فلا ارث فيها و هي المذكورة قبل‏ «وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً وَ قالا ..» و كذلك بعد في قسم من قضاياها «وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ‏ .. وَ أُوتِينا .. إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ».

و لو كانت هذه مما ورثه داود لم يكن للواو مجال في «و قال» بل الصحيح إذا: قال، ام: فقال ..

.. وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ....

هنا نعرف ان للطير منطقا، فليس الإنسان هو الحيوان الناطق بين الحيوان، و لكن كيف تنطق الطير و ماذا؟ إن علمه بحاجة إلى تعليم رباني يختص بأمثال سليمان ممن آتاهم اللَّه علما.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في نور الثقلين 4: 75 في كتاب المناقب لابن شهر آشوب و ذكر مسلم عن عبد الرزاق عن معمّر عن الزهري عن عروة عن عائشة و في حديث الليث بن سعد عن عقيل عن ابن عروة عن عائشة في خبر طويل تذكر فيه‏ ان فاطمة أرسلت إلى أبي بكر تسأل ميراثها من رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) القصة- قال: فهجرته و لم تكلمه حتى توفيت و لم يؤذن بها أبا بكر يصلي عليها.

و

اخرج البخاري في باب فرض الخمس 5: 5 عن عائشة ان فاطمة (عليها السلام) ابنة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) سألت أبا بكر الصديق بعد وفات رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ان يقسم لها ميراثها ما ترك رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مما أفاء اللَّه عليه فقال لها ابو بكر: ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: لا نورث ما تركنا صدقة- فغضبت فاطمة بنت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فهجرت أبا بكر فلم تزل مهاجرة حتى توفيت.

أقول: ما تركنا صدقة قد تعني ان ما تركناه صدقة لا نورثها، لا و ما تركناه غيرها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 159

و هل ان الطير ايضا علّمت منطق سليمان إذ كلمته هدهد في حوار؟

طبعا نعم! و إلّا فكيف عرفت مقال سليمان ثم أجابت‏ «فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

اخرج في الغزوات باب غزوة خيبرة 6: 196 عن عائشة قالت: ان فاطمة (عليها السلام)- الى ان قالت-: فأبى ابو بكر ان يدفع الى فاطمة منها شيئا فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت و عاشت بعد النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ستة أشهر فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلا و لم يؤذن بها أبا بكر و صلى عليها.

و

اخرج مثله مسلم في صحيحه 3: 72 و احمد في مسنده 1: 6، 9 و الطبري في تاريخه 3: 202 و الطحاوي في مشكل الآثار 1: 48 و البيهقي في سننه 6: 300- 301 و كفاية الطالب 226 و تاريخ ابن كثير 5: 285 و قال في 6: 333: لم تزل فاطمة تبغضه مدة حياتها،

و ذكره بلفظ الصحيحين الديار بكري في تاريخ الخميس 2: 193.

و لقد بلغت من موجدتها

انها أوصت بان تدفن ليلا و ان لا يدخل عليها احد و لا يصلي عليها ابو بكر فدفنت ليلا و لم يشعر بها ابو بكر و صلى عليها علي و هو الذي غسلها مع اسماء بنت عميس: (طبقات ابن سعد- رسائل الجاحظ 300- حلية الأولياء 3: 43- مستدرك الحاكم 3: 163- طرح التثريب: 1: 150 اسد الغابة 5: 254- الاستيعاب 3: 751- مقتل الخوارزمي 1: 83- ارشاد الساري للقسطلاني 6: 362- الاصابة 4: 378- 380، تاريخ الخميس 1: 323).

و

قال الواقدي كما في السيرة الحلبية 3: 390 ثبت عندنا ان عليا كرم اللَّه وجهه دفنها رضي اللَّه عنها ليلا و صلى عليها و معه العباس و الفضل و لم يعلموا بها أحدا.

و من جراء تلك الموجدة منعت ان تدخلها يوم ذاك عائشة كريمة أبي بكر فضلا عن أبيها فجاءت تدخل فمنعتها الأسماء فقالت. لا تدخلي، فشكت إلى أبي بكر و قالت: هذه الخثعمية تحول بيننا و بين بنت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فوقف ابو بكر على الباب و قال يا اسماء ما حملك على ان منعت ازواج النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ان يدخلن على بيت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قد صنعت لها هودج العروس؟

قالت: هي امرتني ان لا يدخل عليها أحد و امرتني ان اصنع لها ذلك- راجع (الاستيعاب 3: 772- ذخائر العقبى 53- اسد الغابة 5: 524- تاريخ الخميس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 160

به» إلا انه ليس لزامه ان الهدهد تفهمت لغة الإنسان من سليمان، فالذي علّم منطق الطير يعلم نطقها و يعلم كيف ينطق معها نطقها، و «عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» تشمل النطق بلغتها بجنب تفهّمها لغته، بل لا فكاك بين ان يفهم منطقها و بين أن ينطق به.

و كما «علّمنا ..» تشمل العلمين سماعا و تكلما، كذلك «الطير»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

1: 313- كنز العمال 7: 114- شرح صحيح مسلم للسنوسي 6: 281- شرح الآبي لمسلم 6: 282- أعلام النساء 3: 1221.

و

قد اخرج ابن قتيبة و الجاحظ ان عمر قال لأبي بكر انطلق بنا إلى فاطمة فانا قد أغضبناها فانطلقا جميعا فاستأذن على فاطمة فلم تأذن لهما فأتيا عليا فكلماه فأدخلهما عليها فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام فتكلم ابو بكر فقال: يا حبيبة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و اللَّه ان قرابة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أحب الي من قرابتي و إنك لأحب الي من عائشة ابنتي و لوددت يوم مات أبوك متّ و لا أبقى بعده أ فتراني أعرفك و اعرف فضلك و شرفك و امنعك حقك و ميراثك من رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ألا إني سمعت أباك رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: لا نورث ما تركنا فهو صدقة، فقالت: أ رأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) تعرفانه و تفعلان به؟

فقالا: نعم فقالت: نشدتكما اللَّه الم تسمعا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: رضا فاطمة من رضاي و سخط فاطمة من سخطي فمن أحب فاطمة ابنتي فقد احبني و من ارضى فاطمة فقد ارضاني و من أسخط فاطمة فقد اسخطني؟ قالا: نعم سمعناه من رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قالت: فاني اشهد اللَّه و ملائكته أنكما أسخطتماني و ما ارضيتماني، و لئن لقيت النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لأشكونكما اليه، فقال ابو بكر: انا عائذ باللَّه تعالى من سخطه و سخطك يا فاطمة، ثم انتحب ابو بكر يبكي حتى كادت نفسه ان تزهق و هي تقول: و اللَّه لأدعون عليك في كل صلاة أصليها، ثم خرج باكيا فاجتمع الناس اليه فقال لهم: يبيت كل رجل معانقا حليلته مسرورا بأهله و تركتموني و ما أنا فيه لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني بيعتي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 161

تشمل سائر الطير دونما استثناء، مهما برزت الهدهد في ذلك المسرح.

و هل إن‏ «مَنْطِقَ الطَّيْرِ» هنا تختص علمه بمنطقها بين سائر الحيوان؟

فكيف علّم منطق النملة! أ لأنها كانت من طيرها فتشملها «الطير»؟ و لا يقال لذوات الأجنحة منها طير! أم لأن النملة اختصت بهذا النص بين الحيوان غير الطير، فلم يعلم منطق سائر الحيوان إلّا النملة؟ .. ليس لنا إلّا متابعة النص، فقد علّم منطق الطير و النملة ثم لا ندري هل علّم منطقا آخر ام لا؟ اللهم إلّا أن تلمح‏ «وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ» و «مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» شي‏ء من العلم بمنطق سائر الحيوان بل و سائر الكائنات‏ «1» و شي‏ء من الملك و الملك.

اجل‏ «مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» لا تعني البعض الذي يعرفه الكلّ علما فطريا أو تعلما، و انما «أوتينا» كعطاء خاص رباني كما «آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً» فذلك المؤتى له من كل شي‏ء، شي‏ء من العلم الخاص و القدرة الخاصة أمّا هيه من المخبؤ تحت ستار الغيب، لا يعلمها إلّا من علمه اللَّه، و «إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ» حيث يبين اختصاص الفضل على سائر العالمين، إذ لا يناله أحد إلّا بما يؤتيه اللَّه لا سواه.

إلّا أن هنا فرقا بين‏ «عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» و «أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المجمع روى الواحدي بالإسناد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: أعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض و مغاربها فملك سبعمائة سنة و ستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن و الانس و الشياطين و الدواب و الطير و السباع و أعطي علم كل شي‏ء و منطق كل شي‏ء و في زمانه صنعت الصنائع العجيبة التي سمع بها الناس و ذلك قوله‏ «عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 162

حيث الأول تلمح انه علم منطق الطير ككل، و الثانية لمكان «من» التبعيض تختص علمه و قدرته بالبعض، فقد علّم- إذا- بعض المنطق من سائر الحيوان و سواها، كما أوتي البعض غير العلم كما العلم، و ليس منطق الطير كلّ ما يسمع منها، فقد يكون صوتا دون معنى كما قد يكون منا، و قد لا يكون صوتا نسمعه كما في النمل و اضرابها، فما يناله الإنسان من الصوت انما هو عدد محدود من الارتعاش الصوتي و هو كما يقال ما بين ستة عشر ألفا إلى اثنين و ثلاثين ألفا في الثانية، و الخارج منها في الجانبين خارج عن حدود سمعه، و قد تنطق الطير أو سائر الحيوان دون صوت، و إنما بإشارات تلغرافية أو الرادار كما نراها من النمل و سائر الحيوان، فلا يختص المنطق بما له صوت، بل يعمه مسموعا لنا و سواه، ام رمزا لا يسمع، و النطق هو إبراز ما في الباطن بآلة ظاهرة لسانا و سواه، و «عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» تعم مثلث النطق.

اجل و للطير منطق كما لكل حيوان حيث الكل امم كما نحن: «وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» (6: 38).

ذلك! لضرورة التفاهم بينها لإدارة الشئون الحيوية لها، و ليس للإنسان التعرّف إلى منطقها مهما حاول و زاول، لأنه من الأسرار الربانية يعلّمها من يشاء!.

و حين يعلّم سليمان منطق الطير و يؤتى من كل شي‏ء فباحرى الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و الأئمة من آله الطاهرين سلام اللَّه عليهم أجمعين، أحرى بهم ان يعلّموا منطق الطير و يؤتوا من كل شي‏ء «1» فإنهم أئمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 77 في الخرائج و الجرائح قال بدر مولى الرضا (عليه السلام) ان إسحاق بن عمار دخل على موسى (عليه السلام) فجلس عنده و استأذن عليه رجل من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 163

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

خراسان فكلمه بكلام لم اسمع بمثله كأنه كلام الطير، قال اسحق: فأجابه موسى (عليه السلام) بمثله و لغته إلى أن قضى وطره من مسائله فخرج من عنده فقلت: ما سمعت بمثل هذا الكلام! فقال (عليه السلام): هذا كلام قوم من أهل الصين و ليس كل كلام أهل الصين مثله ثم قال: أ تعجب من كلامي بلغته؟ فقلت: هو موضع العجب! قال (عليه السلام): أخبرك بما هو اعجب منه ان الامام يعلم منطق الطير و نطق كل ذي روح خلقها اللَّه تعالى و ما يخفى على الإمام شي‏ء.

أقول «لا يخفى على الامام شي‏ء» قد يعني لغة كل شي‏ء لا كل شي‏ء من كل شي‏ء فانه خاص باللَّه الذي لا يعزب عن علمه شي‏ء.

و

فيه عن المناقب لابن شهر آشوب محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السّلام) قال سمعته يقول: «عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ»

أقول: و هذا يؤيد تبعيض العلم و كل شي‏ء من كل شي‏ء.

و

فيه عن بصائر الدرجات بسند عن الثمالي قال‏ كنت مع علي بن الحسين (عليهما السلام) فانتشرت العصافير و صوتت فقال: يا أبا حمزة أ تدري ما تقول؟ قلت: لا قال:

تقدس ربها و تسأله قوت يومها ثم قال: يا با حمزة «عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ».

و

عنه عن زرارة عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) لابن عباس: أن اللَّه علمنا منطق الطير كما علم سليمان بن داود، و منطق كل دابة في بر و بحر.

و

في تفسير البرهان 3: 201 محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات بسند متصل عن محمد بن جعفر عن أبيه قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): استوصوا بالصنانيات خيرا يعني الخطاف فانه آنس طير الناس بالناس ثم قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): أ تدرون ما تقول الصنانية إذ هي ترنمت تقول‏ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ‏ حتى تقرء ام الكتاب فإذا كان في آخر ترنمها قالت و لا الضالين.

أقول: و الروايات في انهم علموا منطق الطير و أوتوا من كل شي‏ء علّها متواترة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 164

سليمان و من فوقه من النبيين، و ما هم بعالمين كل شي‏ء خلافا لما يروى‏ «1» و ترى «علمنا و أوتينا»- و هو شخص- أ هي من سنة الرعونة و الكبرياء في الملوك؟ و سليمان من أفضل الصالحين! قد يعني نفسه و أباه داود، ام و من معه من النبيين و سائر المعصومين سلام اللَّه عليهم أجمعين، و كما «آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً».

و قد تلمح «علمنا و أوتينا» برجاحة الإعلان بما أنعم اللَّه أو اختص بكرامته، كما «وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» شرط ألّا تمازجه رعونة و كبرياء فان اللَّه منها براء، بل هو هنا إعلان رسالي تدليلا بذلك العلم على رسالته الى الناس، فليس فقط تحديثنا بنعمة ربه راجحا غير واجب.

فقد أذاع سليمان هذه العطية الربانية للناس تحدثا بنعمة اللَّه دون مباهاة و لا تنفّج على الناس، و كما يدل عليه بتعقيبه‏ «إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ».

و ليس منطق الطير و سائر الحيوان- ككلّ- بالساذج الحيواني دون العقول الإنسانية، و كما النملة و الهدهد تبرزان هذه الحقيقة، ان لها معارف كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و قد يعني ان علمهم عليهم السلام أوسع من علمه كما

عن نفس المصدر عن الفيض بن المختار قال سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام)، ان سليمان بن داود قال:

«عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» و قد و اللَّه علمنا منطق الطير و علم كل شي‏ء،

أقول: و لكن الكل نسبي لا يعني ككل ما يعلمه اللَّه، و انما البعض الأكثر شمولا مما علم و أوتي سليمان.

(1).

المصدر عن بصائر الدرجات احمد بن محمد بن خالد عن بعض رجاله عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) و تلا رجل عنده هذه الآية «عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» فقال ابو عبد اللَّه (عليه السلام) ليس فيها «من» انما هي «أوتينا كل شي‏ء»

أقول: انه مضروب عرض الحائط لمخالفته تواتر القرآن و كما في روايات العرض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 165

للإنسان ام و قد تكون أصغى و أوفى، و أنها تسبّح بحمد ربها كما نسبّح‏ «كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ» (24: 41) «وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» (17: 44) «1».

و إنما الميّزة البارزة للإنسان بين سائر الحيوان هو التقويم الأحسن فيه قلبا و قالبا، و انه لا يقف لحدّ، فله التكامل الى قم عليا من الكمال و أعلى من الملائكة المقربين، و للحيوان- ككل- مقام محدود، و حتى بالنسبة للحيوان الذي يتكامل و قليل ما هو، و ان الكمالات الإنسانية روحية و سواها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 78- المناقب عن تفسير الثعلبي قال الصادق (عليه السلام) قال الحسين بن علي عليهما السلام: إذا صاح النسر قال: يا ابن آدم أعش ما شئت آخره الموت، و إذا صاح الغراب قال: ان في البعد عن الناس أنسا- و إذا صاح القنبر قال:

اللهم العن مبغضي آل محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و إذا صاح الخطاف قرء الحمد للَّه رب العالمين و يمد الضالين كما يمدها القارئ.

و

فيه في مناقب أبي جعفر الباقر (عليه السلام) و سمع عصافير تصحن قال: تدري يا با حمزة ما يقلن؟ قلت: لا- قال:

يسبحن ربي عز و جل و يسألن قوت يومهن.

و

عن بصائر الدرجات بسند عن فضيل بن يسار عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: كنت عنده إذ نظرت إلى زوج حمام فهدر الذكر على الأنثى فقال لي: أ تدري ما يقول؟ قلت: لا- قال يقول: ياء سكني و عرسي ما خلق اللَّه أحب إليّ منك إلّا ان يكون مولاي جعفر بن محمد.

و

فيه بسند عن سليمان من ولد جعفر بن أبي طالب قال: كنت مع أبي الحسن الرضا (عليه السلام) في حائط له إذ جاء عصفور فوقع بين يديه و أخذ يصيح و يكثر الصياح و يضطرب فقال لي: يا فلان تدري ما يقول هذا العصفور؟ قال قلت: اللَّه و رسوله و ابن رسوله اعلم قال: انها تقول ان حية تريد ان تأكل فراخي في البيت فخذ معك العصا و ادخل البيت و اقتل الحية، قال: فأخذت النبعة- و هي العصا- و دخلت إلى البيت و إذا حية تجول في البيت فقتلتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 166

تتبنى المساعي على قدرها، و الحيوان أوتيت المعرفة باللَّه غريزيا في كل وظائفها «كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ»!.

وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ‏ 17.

الحشر هو إخراج جماعة عن مستقرهم بازعاج و دفع جماعة، و هكذا يحشر الجنود المتفرقون في مختلف مستقراتهم لهدف الغزو، أو عرضهم أمام قائدهم أمّاذا؟، و الإيزاع هو المنع، و هنا الحبس عن تفرقهم و حشرهم ان‏

«يحبس أولهم على آخرهم» «1».

فقد أصبح جنوده من الأقسام الثلاثة محشورة مع بعض، دون سماح لهم بالتفرق و الرجوع إلى مستقراتهم لفترة مقصودة فيما أهمه.

و «من» هنا تبعّض الجن و الإنس و الطير، فلم يكن الكلّ بأسرهم جنوده، فمن يبقى بعدهم اجمع حتى يحاربهم؟ أ يحارب الحيوان الوحش أو الملائكة أمّن هم؟ و لم يتجاوز ملكه ما يعرف الآن بفلسطين و لبنان و سوريا و العراق إلى ضفة الفرات! و الشيطان- و هو من الجن و زعيم مردة الشياطين- لم يكن من جنوده، و منهم محاربون له معارضون: «وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى‏ مُلْكِ سُلَيْمانَ وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا» (2: 102)، ثم الشياطين العمال لم يكونوا كلهم من جنوده، بل‏ «وَ الشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ» (38: 37) «وَ مِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ» (21: 82) و منهم من لم يطلع عليهم كمملكة سبإ حتى أخبره الهدهد! ثم الطير و هي البلايين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 82 القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 167

البلايين لم تكن لتحشر عن بكرتها، و منها الملايين من الهداهد، و هو يقول عند تفقد الطير «ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ ..» فهو هدهد خاص بين كل الهداهد، كان من الطير المشحورة، ام هو صاحب هذه النبوة الخاصة في هذا الحشر بين عدد من الهداهد.

إذا فجنوده من كل صنف من الثلاثة هم النخبة الصالحة لحرب أعدائه من محاربي الجن و الإنس، المكافحين فيها، و كيف يأتمن شياطين الجن في الحرب و لهم إدغال و إخلال؟! و أخيرا كيف بالإمكان ان يسافر بذلك الحشد الهائل من كل الجن و الإنس و الطير حتى يأتوا على واد النمل، و هو من الوديان الصغيرة المناسبة لطبيعة حال النمل؟!.

حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى‏ وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ‏ 18.

لقد سار الموكب الملكي الرسالي مصيره‏ «حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى‏ وادِ النَّمْلِ»، و ترى اين‏ «وادِ النَّمْلِ» و لها وديان في مختلف الأرض؟ فلو كان واديا كسائر الوديان لكان حق التعبير «واديا للنمل»! فقد تعني‏ «وادِ النَّمْلِ» واديا خاصا مميّزا عن سائر الوديان لجمهورية النمل العجيبة بين جمهوريات الحيوانات‏ «1» و قد ألفت لها كتابات و منها حياة النمل.

و مما يزيد ذلك التميّز اختصاصا «أَتَوْا عَلى‏» دون «مرو على» أو «مروا ب» مما يلمح انه إتيان قاصد دونما صدفة غير مقصودة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تبلغ اصناف النمل ألفا و تزيد، و كل صنف يمتاز عن غيره بميّزه، و كل جمهورية من هذه الجمهوريات لها ملكة أو اكثر ذات جناح، و قد تتألف قرية النمل من نصف مليون نملة ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 168

و لأن مملكة سليمان كانت فلسطين الواسعة و العراق، فقد يكون‏ «وادِ النَّمْلِ» واديا في فلسطين‏ «1» و ما يدرينا اين هو منها؟ و كيف هو؟ و النص مقتصر على‏ «وادِ النَّمْلِ».

فبصرت به نملة من النمال فارتاعت لذلك الحشد الحافل، و خافت على قومها ان تدوسهم جنود سليمان فتحطمهم على غفلة «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» فأهابت بهم ان‏ «ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ ..» و قد تلمح‏ «لا يَحْطِمَنَّكُمْ» و هو الكسر انها تعني فيما تعني كسرهم عن كيان العبودية انعطافا الى زينة الدنيا كما يروى‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 82 عن تفسير القمي في الآية فانه قعد على كرسيه و حملته الريح فمرت به على واد النمل و هو واد ينبت فيه الذهب و الفضة و قد و كل به النمل و هو

قول الصادق (عليه السلام) ان للَّه واديا ينبت الذهب و الفضة و قد حماه اللَّه بأضعف خلقه و هو النمل لو رامته النجاتي ما قدرت عليه.

أقول قصة حمله على كرسيه هنا تخالف‏ «حَتَّى إِذا أَتَوْا» الدالة على إتيانه بجنوده و كيف تحمله الريح على كرسيه و جنوده مشاة؟ و أما قصة إنبات الذهب و الفضة فمما لا نصدقها و لا نكذبها فهي مردودة الى قائلها.

و

في البحار 14: 94 يه باسناده الى حفص بن غياث عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) انه قال: ان سليمان بن داود عليهما السلام خرج ذات يوم مع أصحابه يستسقي فوجد نملة قد رفعت قائمة من قوائمها الى السماء و هي تقول: اللهم انا خلق من خلقك لا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب بني آدم، فقال سليمان (عليه السلام) لأصحابه: ارجعوا لقد سقيتم بغيركم.

(2)

بحار الأنوار 14: 92 ن. ع بسند متصل عن داود بن سليمان الغازي قال: سمعت علي بن موسى الرضا (عليه السلام) يقول عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عليهم السلام‏ في قوله عز و جل: فتبسم ضاحكا من قولها- قال لما قالت النملة «يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ ...» حملت الريح صوت النملة إلى سليمان و هو مار في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 169

أجل‏ «قالَتْ نَمْلَةٌ ..» فهل قالت بصوت ناعم أسمعه اللَّه سليمان و لا يسمعه أي انسان؟! حيث العدد في الارتعاش الصوتي للإنسان محدود ليس ليسمع ادنى منه و لا أعلى، ام قالت بالتلغراف اللاسلكي أو جهاز الرادار المودوع في قرنيها، فهي تبادل الخواطر بتلك الوسائل العجيبة، فتفهّم قولها هو من خوارق العادة للإنسان في بعدي مادة الخاطرة و إيصالها دون صوت، و البشرية اليوم مهما وصلت الى استخدام الرادار اللاسلكي في نقل الأقوال، لم تصل حتى الآن الى حد نقل الخواطر دون أية وسيلة صوتية، و حتى إذا وصلت اليه يوما مّا فليست لتفهم خواطر الحيوان ايّا كان، فانه من تعليم الملك المنّان!.

و علّ نملة هذه هي الملكة في واد النمل،- كما يلمح لها تأنيثها- أو الخطيبة الممثلة لها، فخاطبت النمل خطابها العجيب:

يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ ...

و يا لمساكن النمل من أعاجيب في هندساتها و تنظيماتها، و هل أتاك نبأ البيوت التي تتخذها تحت الأرض و تجعل لها أعمدة و بهوات متسعات:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الهواء و الريح قد حملته فوقف و قال عليّ بالنملة، فلما أتي بها قال سليمان: يا أيتها النملة اما علمت اني نبي اللَّه و اني لا اظلم أحدا؟ قالت النملة: بلى قال سليمان: فلم حذرتنيهم ظلمي و قلت‏ «يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ» قالت النملة: خشيت ان ينظروا إلى زينتك فيفتتنوا بها فيبعدوا عن اللَّه تعالى ذكره- و في العلل: فيعبدون غير اللَّه تعالى ذكره، و في العيون: فيعبدون عن ذكر اللَّه تعالى، ثم قالت النملة: هل تدري لم سخرت لك الريح من بين سائر المملكة (الملكة) قال سليمان: مالي بهذا علم، قالت النملة: يعني عز و جل بذلك: لو سخرت لك جميع المملكة كما سخرت لك هذه الريح لكان زوالها من يدرك كزوال الريح، فحينئذ تبسم ضاحكا من قولها. أقول: و للنظر في بعض فقراتها مجال إذ تخالف القرآن أم لا توافقه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 170

(صالات) في كل بهوة أبواب مفتّحات إلى حجر صغيرات تسكن فيها، و آخر تخزن فيها الحبوب و الغلال و بينها الطرق و المسالك و الشوارع بحيث تهتدي بها إلى أعلى الأرض و تجتمع من تلك البيوت و بهواتها و حجراتها و أعمدتها قرى كاملة ذات بيوت كثيرة.

و الأغرب من ذلك أنها قد تملك عدة قرى كأنها مستعمرات تصل بينها بطرق كما تفعل الأمم المتمدنة و تصل بين مستعمراتها بالسكك الحديدية.

و هي لا تقتصر على فن واحد من العمارات، فقد تبني بيوتا فوق الأرضية كما تحتها، من أوراق الأشجار و الأغصان و قصور الخشب المتساقطة من الأشجار العتيقة و تبني مساكن و ترى أمام الناظر كأنها آكام ما بين عشرة أقدام إلى خمسة عشر قدما، و يكثر ذلك تحت شجر الصنوبر، ثم نوع ثالث من مساكنها تنحت من الأشجار العتيقة بيوتا كما نتخذ نحن من الجبال بيوتا «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). للاطلاع إلى إجمال من حياة النمل راجع الى ما جمعه الشيخ الطنطاوي في تفسيره الجواهر، مما وصل اليه العلم حتى الآن، و مما جاء فيه ان النمل تفعل فعل الملوك فتدبر و تسوس كما يسوس الحكام، فتراه كيف يتخذ القرى تحت الأرض و لبيوتها أورقة و دهاليز و غرفات ذوات طبقات منعطفات، و كيف تملأ بعضها حبوبا و ذخائر و قوتا للشتاء، و كيف تجعل بعضها بيوتها منخفضا مصوبا تجري اليه المياه و بعضها يكون حولها مرتفعا لئلا يجري اليه ماء المطر. و من حكمة النمل ان الحبوب المخزونة عندها إذا أصيبت بماء المطر تنشرها ايام الصحو فيقطع حبة القمح نصفين و يقشر الباقلا و العدس و الشعير و يقطع حب الكربزة اربع قطع كيلا تنبت، مما وصل اليه الإنسان بعد تجارب عدة!.

ذكاء النمل:

و من عجائب تدبير النمل انه رأى رجل ان النمل يتكاثر على شجرة في حقوله فعمد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 171

و هناك عجائب اخرى في حياة النمل قد يقتضي سردها مؤلفات عدة، ثم لا نصل إلى كل اسرارها و كما قال اللَّه‏ «وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

إليها و حفر حولها و ملأ الحفرة ماء و ظن انه نجا منها و بات ليلا خالي البال منشرح الصدر مطمئنا على شجرته الغالية فأصبح فرأى الورق مغطى بالنمل و نظر الحفرة فوجدها مملوءة بالماء، و بينما يتفقد السبب إذ رأى اوراقا متراصة على سطح البركة من شاطئها الى جذع الشجرة و النمل يمر عليها كأنها قنطرة الى حيث تطلع على تلك الشجرة! و من عجائب كدحه في عمله الجبار انه قضى عالم من علماء الرومان طول حياته في التنظر في حال النمل فشاهد نملة تشتغل طول يومها فحسب ما حفرته و بنته في ذلك اليوم نسبة الى جسمها و شغل الإنسان و جسمه فوجد انها لو كانت رجلا مشتغلا هذا الشغل لكان يحفر خليجين كل منهما طوله اثنان و سبعون قدما و عمقه 5، 4 اقدام، و أخذ هذا الطين و صنع منه آجرا و بنى به اربع حيطان على الأربع الجوانب للخليجين كل حائط من قدمين الى ثلاثة ارتفاعا، و نحو 15 بوصة سمكا و غلظا و يدعك تلك الحيطان من الداخل فتصير ملساء و كل هذه الأعمال بلا مساعد آخر في النهار كله مع ان الأرض مملوءة بالأعشاب الصغيرة و الأخشاب و الأشجار و جذوعها الهائلة و الأرض و عرة المسالك فيها آكام من الردم! سبحان الخلاق العظيم.

قوة النمل:

و قد تبلغ قوة نملة أقوى من إنسان 3000 مرة و كما يروى عن المستر، د. دى بوا، العالم الطبيعي انه قال: رأيت نملة تحمل حصاة من أسفل العرامة إلى أعلاها فوزنت النملة و الحصاة وزنا دقيقا بادق الموازين و قسمت ارتفاع العرمة فوجدت بعد الحساب ان الرجل لكي ينافس النملة في رفع الأثقال يجب ان يحمل حملا وزنه نصف طن و يصعد به 25 درجة من درجات السلالم الاعتيادية، و قد أكد احد عار في طبائع النمل انه إذا كان رجل يزن (150) رطلا و له قوة بالنسبة الى وزنه كقوة النمل لاستطاع ان يحمل على ظهره قاطرتين من اكبر قاطرات السكك الحديدية من غير ترنّح.

و قد روى الأستاذ رفنون ان في افريقيا نوعا من النمل يسمى (بول دوج) يستطيع ان يمشي واثبا و كل وثبة نحو قدم، فإذا رام الإنسان ان يجاريه وجب ان يثب الوثبة الواحدة نحو 144 قدما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 172

يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» (6: 38).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

حشم النمل:

و من عجيب حياة النمل بقره و هو نوع من البعوض النباتي المائل الى الخضرة و هو كثير في الجناين فالنمل يقنص هذا البعوض و يأخذه إلى عشه و يحميه و يغذيه، و هذا البعوض يفرز مادة لزجة يستطيبها النمل و العجب انه لا يفرزها ما لم يدغدغه النمل بخرطومه و قد حاول دارون ان يجعل بعوضة تفرز عسلها إذ دغدغها فلم تفرز شيئا فلما اطلق عليها نملة دغدغتها فأفرزت العسل.

النمل جراح:

و هل خطر لك ان النمل جراح حاذق، ففي البرازيل نوع من النمل القاطع للورق يحسن الجراحة كأمهر جراح فمتى جاءت اليه نملة تقاسي من جرح خطرا يستدعي بعض الجنود الاختصاصيين ثم يضم شفتي الجرح معا و يأمر الجندي ان يمسكهما معا بفكيه و يبقى هذا ممسكا بهما الى ان يخيطهما الجراح على طول الجرح بواسطة خيوط يفرزها من نفسه!.

جبانة النمل:

و من اغرب الأمور للنمل انه يدفن موتاه في مقبرة خاصة و ذلك ان بعض النملات ترفع الجثة بواسطة خراطيمها و تتبعها النملات الأخرى في موكب جليل و تسير جميعا خارج الوكر الى مكان معين تدفن فيه موتاها!.

قرى النمل:

و قرية النمل تتشكل من ستة عشر قسما: 1- باب القرية، 2- مدخل القرية، 3- مكان الحرس لمنع دخول الغريب، 4- أوّل طبقة لراحة العمال في الصيف، 5- الطبقة الثانية لراحة العمال في الصيف، 6- مكان تناول الغذاء، 7- مخزن الأقوات، 8- ثكنة الجنود، 9- الغرف الملوكية حيث تبيض فيه ملكة النمل، 10- إصطبل لبقر النمل مع علفه، 11- إصطبل آخر لحلب البقر، 12- مكان لتفقؤ البيض عن الصغار، 13- صغار النمل و بيضه، 14- صغار النمر، 15- مشتى النمل و بيمينه جبانة لدفن الموتى، 16- مشتى الملكة. و قد وردت روايات في عجائب شأن النمل، يراجع فيه الى المفصلات كالبحار و سواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 173

.. قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ‏ 18.

خطيبته متأمرة في شعبها تنادي من تحت إمرتها حفاظا عليهم من التحطم، سياسة قيادية حيادية للنمل الخارج عن مساكنها للحاجة المعيشية «ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ» عن بكرتكم، كي‏ «لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ» ثم حفاظا على كرامة سليمان و جنوده و هي تعرفهم كما هم، تعقب على نداءه‏ «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» إذ لا يرون ما تحت اقدامهم، فلا يحطمونكم عمدا و عداء، و إنما غفلة لا شعورية! و قد تعني‏ «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» جنوده دون نفسه و لكنه لا يناسب إضافة سليمان إلى جنوده في «لا يحطمنكم».

و أعجب بنملة من النمل تبرهن نداءها الحيادية بأن ذلك الحشد العظيم من الإنس و الجن و الطير «لا يشعرون» و هي النملة تشعر تحطيمهم لا عن شعورهم! أدرك سليمان قالة النملة و هشّ لها و انشرح صدره بها كما يهش الكبير العادل الحنون للصغير الذي يحاول النجاة من أذاه، دون ان يضمر أذاه:

«فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها ..» تبسّمة ضاحكة، فرحة بما عرف، و تعجبا مما تعرّفت و قالت، و كيف تبسم ضاحكا و هو دون الضحك آتيا قبله، فلا تبسّم حال الضحك كي تصح‏ «فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً»؟ علّه لأنه تظاهر بحالة التبسم و هو ضاحك، حفاظا على سؤدد الملك، تبسما يخفي ظاهر الضحك فيه إلى باطنه، كيلا يجلب انظار جنوده كيف يضحك سليمان لا من شي‏ء يضحكه؟ إذ لم يسمع قالة النمل إلّا سليمان.

لقد شعرت النملة عصمة سليمان و اعتصام من في إمرته من جنود، لحد لا يحطّمون النمل قاصدين، فضلا عن حطم الإنس، فما لأناس- بعد- لم يشعروا أن الأنبياء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 174

معصومون؟! و ترى النملة أرادت بما قالت الحذار عن حطم النمل بحياتها المادية، ام حيويتها المعنوية إذ خافت هي على النمل- إذا رأت سليمان و جنوده في تلك الحشمة العالية- أن تتأرجف عما هي عليها فتقع في كفران نعمة اللَّه، و كما تلمح له قالة سليمان: «أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ ..». و تحطيم الحيوية اخطر من تحطيم الحياة؟ أم هي مريدة كلا الأمرين، لا ندري ..

و هنا ندرس ان تحطيم النمل و أي حيوان غير مسموح في شرعة اللَّه اللهم إلّا دون شعور، فليشعر الإنسان في مشيه ألا يحطّم دون مبرر، جويا أو بريا أو بحريا، و كما ندرس كف الأذى عن كل حيوان، بل و نبات، حالة الإحرام و في حرم اللَّه، فنتمرّن هكذا حتى نعيش غير محطّمين الضعفاء أيا كانوا و أيان حتى النبات و الحيوان فضلا عن الجن و الإنسان.

فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى‏ والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ‏ 19.

«فتبسم» تبسم الفرحة بهذه النعمة الناعمة أن علّم منطق النمل، فاستفاد منه التحذر عن تحطيمها «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» مما يشعرنا أن علينا أن نشعر و ندرك من حولنا و تحت أقدامنا، فلا نتمشى تحطيما غافلا لذي روح، فضلا عما فوقه من تحطيم في تقصّد.

و الإيزاع هو الحبس عن التفرق، حبس الأوّل إلى الآخر و الآخر إلى الأوّل و هو هنا حبس طاقات سليمان عن التمزق و التفرق، جمعا لجوارجه و جوانحه كلها في شكر اللَّه، و حشرا لطاقاته كلها في خدمة اللَّه، و هكذا إيزاع للشكر ليس- بطبيعة الحال- إلّا بطريقة الوحي و الإلهام، حيث الإنسان- أيا كان- لو خلي و طبعه، لا يستطيع أن يجنّد كل طاقاته و امكانياته‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 175

في سبيل شكر نعم اللَّه كما يحق و يليق بساحته.

فسليمان هنا يتطلب الى ربه ان يلهمه شكر نعمته، اضافة الى ما تدعوه إليه فطرته و عقليته و شرعته، شكرا إلهاميا ليس فقط من مقولة الألفاظ، و ليس الشكر- كذلك- قالة تلفظ، بل هي حكاية عن واقع الشكر بجانحة أو جارحة، فقد تعني‏ «أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ ..» هنا ما تعنيه‏ «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» (21: 73)، ثم‏ «وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ» كخلفيّة لذلك الإيزاع الحبس الإلهام، أو هو مصداق عملي للشكر بعد مصداقه الروحي، فإيزاع الشكر هنا يحلّق على الشاكر بكل كونه و كيانه، و كأنه الشكر بعينه، بقلبه و قالبه، و لا يتيسر ذلك الشكر التام الطام إلّا بإلهام من الرحمن‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»! «أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ...» و هي الوحيدة:

- لمكان نعمتك- النعمة الرسالية، معرفية و عملية، و لحدّ «عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ»- و منطق النمل و سائر الحيوان! و كذلك التي‏ «عَلى‏ والِدَيَّ»: والدي داود حيث أوتي ما أوتي من ملك النبوة السامية، و والدتي إذ ولدتني من والدي بكل طهارة و نزاهة، دون ما تتقوله التوراة المحرفة، إن سليمان ولد من امرأة أورياه التي اغتصبها منه داود و حاشاه‏ «1» و هو هبة اللَّه لداود

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ففي صموئيل الثاني الاصحاح 11 «و كان وقت المساء ان داود قام عن سريره و تمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم. و كانت المرأة جميلة المنظر جدا. فأرسل داول و سأل عن المرأة فقال واحد أ ليست هذه بثشبع بنت اليعام امرأة أوريّا الحثّي. فأرسل داود رسلا و أخذها فدخلت اليه فاضطجع معها و هي مطهرة من طمثها. ثم رجعت الى بيتها و حبلت المرأة فأرسلت و أخبرت داود و قالت اني حبلى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 176

«وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» (38: 30)- «وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى‏ وَ حُسْنَ مَآبٍ» (40) فهل إن الهبة الإلهية يولد من امرأة ذات بعل يغتصبها داود؟!.

اجل و ان سليمان هو من المشهود لهم بما نقول: و اشهد انك كنت نورا في الأصلاب الشامخة و الأرحام المطهرة لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها و لم تلبسك من مدلهمات ثيابها» و ما هذه الفرية الوقحة التوراتية المزورة إلا تسترا لأهلها وراءها فيما يفتعلون من دعارات و افتضاحات، و سليمان المفترى عليه يستوزع ربه شكر النعمة الغالية على والديه كما عليه، و منها عرض براءته في هذه الإذاعة القرآنية، قضاء صارما على هذه التهم المزورة.

«أَنْ أَشْكُرَ ... وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ» دون ما لا ترضاه مهما أنا أرضاه، و إنما «صالِحاً تَرْضاهُ» فسليمان الذي يستوزع شكر نعمة اللَّه، ليس ليقف على حالة الشكر و قالته، بل و «صالِحاً تَرْضاهُ» جمعا لشكر العمل إلى شكر الحالة و القالة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فأرسل داود إلى يوآب يقول أرسل اليّ اوريّا الحثّي. فأرسل يوآب اوريّا الى داود. فأتى اوريّا اليه فسأل داود عن سلامة يوآب و سلامة الشعب و نجاح الحرب. و قال داود لاوريا انزل الى بيتك و اغسل رجليك- الى ان يقول في احتياله على اوريّا- اجعلوا اوريّا في وجه الحرب الشديدة و ارجعوا من ورائه فيضرب و يموت .. الى قوله: فلما سمع امرأة اوريّا انه قد مات اوريّا رجلها ندبت بعلها و لما مضت المناحة أرسل داود و ضمها الى بيتها و صارت له امرأة و ولدت له ابن ..».

هذا! و في إنجيل متى 1: 6- ان داود الملك ولد سليمان من أوريا! لا فحسب بل داود نفسه ايضا كما في المزامير 51: 5: هانذا بالإثم صوّرت و بالخطيئة حبلت بي امي!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 177

«.. وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ» هنا و في يوم الدين، فنراه يضرع إلى ربه بعد ملكه و نبوته بنعمته ان يدخله في الصالحين، و هكذا تكون الحساسية المرهفة بتقوى اللَّه و خشيته، و التشوّف و التشرّف إلى رضاه و رحمته في الآونة التي تتجلى فيها نعمته تعالى عليه.

و الملاحظ في ذلك المسرح من دعاء سليمان و التجاءه انه لا تزهيه زهوة الملك و رعونته، خلاف كل من يزدهي من الملوك و الزعماء بكل زهوة و زهرة، فهم يسطون كلما ازدادوا سلطة و قوة، و سليمان يزداد تطامنا في عبوديته و شكر النعمة الربانية عليه قائلا: رب ازعني- كأنه غير موزع: ان أشكر- كأنه غير شاكر: و أن اعمل صالحا ترضاه- كأنه تارك أو مقصر:

و ادخلني برحمتك في عبادك الصالحين- كأنه ليس من الصالحين، حين يتخوف على نفسه من غلب النعمة ان تنقلب عليه نعمة، ملتجيا إلى ربه مستدعيا أن يثبته على الروحية الرسالية و يزداد.

وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ 20 لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ‏ 21.

«الطير» هنا هي مختلفها من جنوده المحشورين معه في مسيرته، و لما «تَفَقَّدَ الطَّيْرَ» كما تفقد الإنس و الجن من جنوده، فلم يجد الهدهد «فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ» مما يلمح انه واحد منتخب من الهداهد، ام قائد في جيش الهداهد، و تعريفه باللّام يخصصه بالتفقد، إما لوحدة في شخصه أم شخصيته القيادية «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 105- اخرج عبد بن حميد و ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: ذكر لنا ان سليمان أراد ان يأخذ مفازة فدعا بالهدهد و كان سيد الهداهد ليعلم مسافة الماء و قد كان اعطي من البصر بذلك شيئا لم يعطه شي‏ء من الطير لقد ذكر لنا انه كان يبصر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 178

و التفقد هو تعرّف فقدان الشي‏ء حين فقده لماذا فقد، و لمكان «الطير» ككل لم يكن تفقده يختص بالهدهد، بل يشمل جنود الطير كلها، فلما لم ير الهدهد من بينها «فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ ..» مما يدل على ان سائر الطير كانت حاضرة لديه و هو يراها- بما فيها سائر الهداهد المجندة- إلّا أن تعنى غيّب آخرون من‏ «كانَ مِنَ الْغائِبِينَ»- و لكنه هنا يعني الهدهد الخاص، المعين لنوبته في ذلك العرض.

و قد يلمح ذلك التفقد لمدى اليقظة و الدقة و الحزم من سليمان في عرض جنوده، حيث لا يتغافل عن جندي واحد من حشره الضخم الهائل من الجن و الإنس و الطير، الذي يوزع جمعا لأوله إلى آخره و آخره إلى أوّله كيلا يتفرق و ينتكث.

و ليدرس قواد الجنود من سليمان درسهم في هذه المراقبة التامة و التفقد الشامل، تحكيما لعرى التجنيد، دونما تغلّب و لا تلفّت.

«فقال» هنا قولة جاهرة أمام الجيوش، ليعلم الجميع و يعرفوا غائبهم، فلو أسرّه أم أجمل شأن الغائب لكان سابقة سوء لكل الجند إذ لا يعرف المتخلف بعينه، «فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ ..» و نراه هنا لا يوجه التخلف إلى «الهدهد» حين يتفقده فيفقده، أخذا بالحائطة متهما نفسه:

«مالي» كأنه حاضر و هو لا يراه لنقص في رؤيته، ام حاجز عن مرئيه، فلما تأكد من سلامة نظره، انتقل الى مرحلة ثانية «أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ» و قد تلمح «كان» للغياب عن الحضور في حشر الجنود، انه‏ «كانَ مِنَ الْغائِبِينَ» عن الحشر، لا انه غاب بعد الحضور، و إلا لم يكن ل «كان» مكان.

كما قد يلمح جمع «الغائبين» ان هناك غيّب غير الهدهد، أمن الجن أو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الماء في الأرض كما يبصر أحدكم الخيال من وراء الزجاجة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 179

الإنس أو الطير أم و من الهداهد؟ لا ندري، إلّا أن هناك «غائبين» و علّ تخصيصه التحذير بخصوص هذا الجندي الغائب، كان لحاجة حاضرة إليه، و قد تكون دلالته على موضع الماء كما يروى‏ «1» و لأن الغائب عن حشر الجنود

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 83 في بصائر الدرجات بسند متصل عن أبي الحسن الأوّل (عليه السلام) قال‏ قلت له جعلت فداك أخبرني عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) ورث النبيين كلهم؟ قال لي: نعم، قلت من لدن آدم إلى أن انتهى الى نفسه؟ قال: ما بعث اللَّه نبيا إلا و محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) اعلم منه، قال قلت: ان عيسى بن مريم كان يحيي الموتى بإذن اللَّه؟ قال: صدقت- قلت: و سليمان بن داود كان يفهم منطق الطير هل كان رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) يقدر على هذه المنازل؟ قال فقال: ان سليمان قال للهدهد حين تفقده و شك في امره‏ «ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ» فغضب عليه فقال: «لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ» و انما غضب عليه لأنه كان يدله على الماء، فهذا و هو طير قد أعطي ما لم يعط سليمان و قد كانت الريح و النمل و الجن و الإنس و الشياطين المردة له طائعين و لم يكن يعرف ما تحت الهواء، و ان في كتاب اللَّه لآيات ما يراد بها امر الآن الى أن يأذن اللَّه به مع ما يأذن اللَّه مما كتبه للماضين جعله اللَّه لنا في ام الكتاب ان اللَّه يقول في كتابه‏ «ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ» ثم قال‏ «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا» فنحن الذين اصطفانا اللَّه فورثنا هذا الذي فيه كل شي‏ء.

و

فيه عن تفسير القمي قال الصادق (عليه السلام) قال آصف بن برخيا وزير سليمان لسليمان (عليه السلام) أخبرني عنك يا سليمان صرت تحب الهدهد و هو أخس الطير منبتا و أنتنه ريحا؟ قال: انه يبصر الماء وراء الصفا الأصمّ، فقال و كيف يبصر الماء من وراء الصفا و انما يوارى عنه الفخ بكف من تراب حتى يؤخذ بعنقه؟ فقال سليمان:

قف باوقاف انه إذا جاء القدر حال دون البصر ..

و

فيه عن المجمع و روى العياشي بالإسناد و قال‏ قال ابو حنيفة لأبي عبد اللَّه (عليه السلام) كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير؟ قال: لأن الهدهد يرى الماء في بطن الأرض كما يرى أحدكم الدهن في القارورة فنظر أبو حنيفة إلى أصحابه و ضحك قال ابو عبد اللَّه (عليه السلام) ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 180

دون إذن يؤدّب كيلا يكرر غيابه و ينتبه الآخرون ف: «لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ» مما يلمح ثانية أن الحاجة إليه كانت مدقعة حيوية لصالح الجنود، و قد يعني شديد العذاب نتف ريشه‏ «1»، و أشد منه ذبحه، أو عذابه هو ما دون ذبحه في الشدة كأن يلقى بعد نتف ريشه في الشمس بين النمل و يقرن بالأضداد.

و لكن سليمان لم يكن ملكا جبارا يحكم دون حجة، و لمّا يسمع حجة الهدهد الغائب، و لا حكم على الغائب، فلذلك يبدّل تهديد العذاب و الذبح ب «أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ» فما لم يأت بسلطان مبين فالحكم كما حكم لأنه عصى ..

و ترى الهدهد هو من المكلفين حتى يعصي أمرا فيهدّد بشديد العذاب؟

بصورة عامة نعم! فيما يرجع إلى حيونة الشعور بالمحبور و المحظور: «وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» (6: 38) و لا يعني حشرهم يوم الحشر إلّا جزاءهم بما عملوا فضلا و عدلا.

ثم بصورة خاصة حين يأمر النبي حيوانا أو ينهاه بأمر اللَّه، و هو يشعر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يضحكك؟ قال: ظفرت بك جعلت فداك، قال: و كيف ذلك؟ قال: الذي يرى الماء في بطن الأرض لا يرى الفخ في التراب حتى يؤخذ بعنقه؟ قال ابو عبد اللَّه (عليه السلام) يا نعمان اما علمت انه إذا انزل القدر أغشي البصر؟

(1). و من العذاب الشديد ايداعه القفص، و التفريق بينه و بين إلفه، و إلزامه صحبة الأضداد، أو خدمتهم أو خدمة الأقران.

و

في البحار 14: 112 عن تفسير القمي في سرد القصة و قال الصادق (عليه السلام) ... لأعذبنه عذابا شديدا: لأنتفن ريشه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 181

مكانة النبوة و يعرف اللَّه فهو- إذا- مكلف في ذلك الحقل، مهما لم تشمله الشرعة الإلهية العامة للمكلفين.

فآية الأنعام في وجهة عامة، و آية النمل هذه في وجهة خاصة برهان قاطع لا مرد له ان الهدهد كسائر الجنود من الطير و الجن و الإنس كان من المكلفين في حقل التجنيد، مهما اختصت الشرعة الإلهية ككل بالجن و الانس و اضرابهما من ذوي العقول.

و سلطان مبين من الهدهد الذي يخلصه من شديد العذاب، هو الحجة التي تبين عذره أن‏ «كانَ مِنَ الْغائِبِينَ».

و فائدة أخرى من ذلك التهديد السماح في تأديب الحيوانات إذا عصت عارفة و لحد القتل، إلّا ان تتبين حجة تعذرها فيما عصت، و عدم السماح في إيذاءها دون تقصير، قصورا أم بغير قصور، فقد يعمل الحيوان خلاف رضاك و هو لا يعرف رضاك فكيف تعذبه بقصوره، إلّا تنبيها لكيلا يكرر فعلته شرط أن ينتبه.

فحين تضرب حمارك العاصي في مشيته، و قد عرّفته واجبه في مشيته، فما أنت- إذا- بظالم، انما أنت مؤدب تأخذ حقك ممن تنفق عليه، و أما إذا لم تنفق عليه واجب النفقة فله العصيان في واجب الخدمة، ام إذا لم تعرّفه واجبه، فلا ضرب هنا و هناك إذ لا تخلف تقصيرا عن واجب الخدمة، و ضربتك هنا و هناك ضربة ظالمة تعاقب بها وقت المعاقبة.

فحذار حذار عن ظلم من لا يجد عليك ناصرا إلّا اللَّه، فانه من اظلم الظلم و أنكاه، أم كيف تظلم من سخّره اللَّه لك، و ذلك مس من كرامة اللَّه، فلتكرم حيوانا هو تحت إمرتك، و لتنفق عليه ما يقيم أوده، و يقوى به على واجبه، و لتعف عنه ما وجدت إليه سبيلا، ثم تأديبه تقصيرا عن خدمة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 182

ام تعديا عليك.

عليك ان تراعي الحيوان كما الإنسان، بل و الحيوان أحرى برعايتك إذ لا يقدر- في الأكثر- على الدفاع عن نفسه، فلا تغتنم سلطتك عليه أن تعتدي عليه.

و هكذا ندرس في مدرسة الإحرام أن ظلم الحيوان حرام أيا كان، إلّا ما تستثنيه شرعة العدل و قضية العقل.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ‏ 22.

هل إنه «فمكث» سليمان، فانه ثبات مع انتظار و لم يكن إلّا لسليمان، و الهدهد كان ناظرا للرجوع دون مكوث؟ أم «فمكث» الهدهد في تفتيشه عن سبإ و هو بانتظار الرجوع خوفا من سليمان ان يؤنبه أو يعذبه؟ و المعنيان يناسبان ادب اللفظ و المعنى، فهما- إذا- معنيّان، تقريبا للأوّل لسابقه سليمان موضوعا للقصة، و للثاني للاحقه: «فَقالَ أَحَطْتُ ..».

و «غَيْرَ بَعِيدٍ» هو في زمن قريب لمكث سليمان و الهدهد، و غير بعيد أن تعني مكث الهدهد بعد رجوعه‏ «غَيْرَ بَعِيدٍ» عن موقف سليمان، إذ لم يكن يخافه لغيابه و له حجته و هو عدل لا يجور، و قد يعني بعدي الزمان و المكان، و في الثاني يخص مكث الهدهد و الأول يعنيهما، إذا فقد يعني من‏ «فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ» مثّلت المعنى و هو غير بعيد.

«فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ ..» مفاجأة- بداية لقاء سليمان- تطغي على موضوع غيابه، و تكسر من حدة الغضب الملكي بغيابه، حيث يترفع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 183

عليه علما بما جهل و حيطة بما لم يحط به.

و كيف تحيط الهدهد علما بما لم يحط به سليمان و هو نبي معصوم؟ ذلك حيث العلم المحيط ككل مختص بمن يحيط بكلّ شي‏ء، ثم الحيطة بما لا صلة له لازمة للرسالة ليست لزام الرسول، فللَّه ان يعلّمه مثل الهدهد دون الرسول، و

قد يروى‏ انه «سئل علي (عليه السلام) و هو على منبر الكوفة عن مسألة فقال: لا أدري، فقال السائل ليس مكانك هذا مكان من يقول: لا أدري، فقال (عليه السلام): بلى و اللَّه هذا مكان من يقول: لا أدري، و اما من لا يقول ذلك فلا مكان له، يعني به اللَّه‏ «1».

فقد كان المسئول عنه بين ما يختص علمه باللَّه، ام لا صلة له بالرسالة و الإمامة.

«.. أَحَطْتُ‏ .. وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ» و قد سميت سورة من القرآن بسبإ، حيث اختصت بهم آيات سبع منها، طيا لدورهم الحائر و كورهم البائر في دركاتهم السبع من نوازل البلاء بعد منازل الترح و الخيلاء.

و نبأ سبإ اليقين هو خبر ذو فائدة عظيمة رسالية لسليمان لتصل دعوته إلى هؤلاء الضالين الساجدين للشمس من دون اللَّه.

و تراه كيف يصدّق في دعواه- و بين الشام و اليمن مسيرة شهر أو اكثر- يصدّق أنه طار في مكثه غير بعيد مسيرة شهرين في سفرته المرجّعة إلى اليمن و منه إلى الشام؟ إنه حري به ان يحتمل صدقه كما «قالَ سَنَنْظُرُ ..» حيث المجال مجال خوارق العادات، فما قالة النملة الحكيمة العاقلة و تفهّم سليمان بأقل عجبا من هذه السفرة الطائلة، و لا تجنّد الطير له و الجن بأقل خارقة منها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير روح المعاني 19: 188.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 184

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ‏ 23.

«تملكهم» هي الملوكية المطلقة العنان و كأنهم عبيدها، و قد تعني «تملكهم» الملك و الملك معا، فإن عنى الملك أتى بلفظه الخاص «امرأة ملكة» فقد عنى الأمرين و ذلك انحس استبداد و استعباد.

فالسلطة المالكة للشعب هي الاستبدادية كما تؤيدها «وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ» مهما دلت‏ «أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ» على لون من الشورى الملكية، إلا أن «في أمري» هي امر السلطة المتأرجفة بما هددها سليمان، فاضطرت الى استفتائهم، و لا تدل‏ «حَتَّى تَشْهَدُونِ» بعد «ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً» إلّا على أنها كانت تقطع أمورها برأيها على مشهدهم و مرآهم، و علّه دون شورهم و هواهم كما هو طبيعة الحال في الملكية، و قد تعني «تشهدون» شهودهم لقطع أمرها كرئيسة للشورى، و لكنها لها أمرها فيها إلّا أن تقنع بعدم صلوحه لحقل الحكم، كما في قصتها الحاضرة إذ لم تقبل آراءهم و خطّأهم فيما رأوا.

«وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» هي بمناسبة «تملكهم» ليست إلا من كل الأشياء الملكية، دون‏ «مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» لداود و سليمان فانها بمناسبة الملكية الرسالية هي من لزامات السلطة الرسالية من خوارق العادات.

«وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ» ما يدل على عظمها في سلطتها الملكية، فهو عظيم في كونه، عظيم في كيانه السلطوي على شعبها، فما العرش إلّا رمزا للسلطة الملكية، و قد خص بالذكر بين الحزم الملكي و ثراءه وسعته و جنوده المجندة و رعيته المطيعة المملوكة، لأنه يكفي اشارة نموذجية إليها كلها.

و مملكة سبإ واقعة جنوبي الجزيرة باليمن، و قد كانت في تلك الفترة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 185

تملكها امرأة:

وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ‏ 24.

و تراهم حين‏ «زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ» إذا فهم قاصرون في ضلالهم حيث يخلي اللَّه بينهم و بين الشيطان ليزين سوء اعمالهم فيحسبونها حسنة، فهم- إذا- مصدودون عن سبيل اللَّه و لذلك لا يهتدون؟.

و لكن الشيطان لا يقدر على ذلك التزيين و الصد إلّا لمن يطيعه تخلفا عن الهدى، و تجلبا الى الردى‏ «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» و الشيطان يزيدهم ضلالا على ضلالهم ثم اللَّه لا يحول بينه و بينهم جزاء وفاقا لما ضلوا و هم مبصرون‏ «وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ» (43: 36) «وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ ..» (41: 25).

و لقد كان الهدهد يعرف اللَّه و الشيطان و الشمس و الملكة و قومها، و نظر إلى جو المملكة فوجد ما وجد، و أنبأ سليمان كما وجد، مما يدل على عقلية بارعة مؤمنة للهدهد، و سليمان يسمعه دونما مهانة له و لا استصغار، على صغاره و عظم نباءه و خارقة سفره! مما ينبّه السلطات الملكية أن الإصغاء إلى المنبئ أدب بارع مهما كان صغيرا و كان نبأ غريبا محيرا و بعيدا عن التصديق، و هو في نفس الوقت متخلف لغيابه دونما استئذان!. و هنا بعد عرض النبإ يلحّق تلحيقا رساليا كأنه رسول أو مرسل من جانب الرسول:

«أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْ‏ءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ 25 اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ‏ 26.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 186

فان كانت الشمس تخرج بعض الخب‏ء إشراقا عليه من ظلمة، فاللَّه يخرج كل خب‏ء في السماوات و الأرض دون إبقاء، و الشمس ايضا من خبئهما حيث أخرجها من دخان السماء و أشرقها!.

و مهما نحتمل ان الآيتين هما من كلام اللَّه دون نقل لكلام الهدهد، حيث السجدة واجبة عند سماعه أو استماعه أو قراءته، و لكنه يناسب و كونه كلام الهدهد، لأنه على أية حال كلام اللَّه، نقلا أم سواه، و ظاهر السياق انه من كلام الهدهد تفسيرا لثالوث الشيطنات: «وَ زَيَّنَ‏ .. فَصَدَّهُمْ‏ ..

فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ» و ان كان ايضا كلامه تعالى في ذلك المسرح ام هو الذي يفسر الثالوث بما فسّر، فالمحتملان- إذا- معنيّان، و أعجب بعظة الهدهد في ذلك الموقف الحرج، ما ينقلها اللَّه في القرآن و يصدقها، سبحان الخلاق العظيم! و «ألّا» هنا مشددة «أن لا» كعطف تفسير ل «أعمالهم» «زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ» ايجابية إذ «يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» و سلبه‏ «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ..» و «أن» هنا تفسيرية ف «لا يسجدوا» نهي عن السجود للَّه بعد الأمر بالسجود لغير اللَّه، معاكسة المضادة ل «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» فهما خطوتان رئيسيتان من خطوات الشيطان في صده عن سبيل اللَّه.

فكلمة التوحيد بادئة بالسلب و خاتمة بالإيجاب تأكيدا للإيجاب الذي هو خالص التوحيد.

و كلمة الإشراك بادئة بإيجاب العبادة لغير اللَّه‏ «يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» و خاتمة بالسلب‏ «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ» لا توحيدا و لا اشراكا، توحيدا في السجود لغير اللَّه! و «الخب‏ء» مصدر بمعنى المفعول مبالغة في معناه و هو الاستتار

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 187

الشديد، إذا فهو المستور الأشد فلا تدركه الحواس الظاهرة و لا العقول الباطنة، فما تدركه الحواس بآثاره قد يخرجه الإنسان في محاولات علمية، و ما تدركه العقول بآثاره قد تخرجه في محاولات عقلية، و اما «الخب‏ء» المستور عن كل الإدراكات، البعيد عن تناول العقل و العلم، فاللَّه هو الذي يخرجه في السماوات و الأرض.

و «الخب‏ء» هنا يعم كل خب‏ء، 1- من المادة الأولية التي كانت خبأ في علم اللَّه 2 و قدرته، فأخرجها الى الوجود، 3- ثم زبد الأرضين و دخان السماوات المخرجان من تفجرة المادة الأولية، 4- ثم كل منهما من أصله الثاني: دخان السماء و زبد الأرض فكانت السماوات و كانت الأرضون، 5- ثم اخرج خب‏ء الماء من السماء و خب‏ء النبات من الأرض بماء السماء، 6- ثم كل خلق من شي‏ء في كلّ منهما و في تبدلات كيماوية و فيزيائية، مادة الى طاقة و طاقة الى مادة أماهيه و «اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ»، 7- ثم الخواطر المخبوءة لكلّ عن كلّ فقد يخرجها اللَّه تعالى بعباد مخلصين‏ «فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏»، 8- ثم النيات و العقائد و الأقوال و الأعمال المخبوءة يوم الدنيا بعد مضيها حيث يخرجها اللَّه يوم الأخرى‏ «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ...» ..

و لكن‏ «فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» تختلف ظرفا و سواه في هذه الثمانية، ففي الأربعة الأولى ليست السماوات و الأرض ظرفا لإخراج الخب‏ء فإنهما هما الخب‏ء فيهما على اختلاف مراحلهما، فالمعنى إذا «يخرج الخب‏ء الكائن في السماوات و الأرض» لا انه يخرجه فيهما.

ثم في الخامس و السادس هما ظرفان لإخراج الخب‏ء حيث يخرج اللَّه فيهما كل خب‏ء من خلق جديد شيئا من شي‏ء، فيهما، و في السابع ظرف الإخراج خاص لعباد اللَّه الخصوص، و في الثامن هو الآخرة، «يُخْرِجُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 188

الْخَبْ‏ءَ» الكائن في السماوات و الأرض» يخرجه بعد انفطارهما، في يوم الجزاء.

و من الخب‏ء و أخبأه وحي النبوة، فانه غيب عمن سوى اللَّه، يخرجه عن غيب علمه في أم الكتاب الى غيوب القلوب الرسالية ملائكية و بشرية، مراحل تسع من الخب‏ء الذي يختص إخراجه باللَّه دون سواه‏ «وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ» من سر أو أخفى‏ «وَ ما تُعْلِنُونَ» فلا خب‏ء لنا و لا غيب إلّا و هو خارج عنده دون إخراج، و إنما يخرج لنا الخب‏ء في السماوات و الأرض.

و ذلك هو «اللَّه» دون سواه‏ «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» كما هو، و هو لا سواه‏ «رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» السلطة الشاملة على كل خب‏ء بإخراجه و إدراجه في مختلف مدارج الكون، دون عرش ملكة سبإ و سواها من ملوك لا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا.

هذا العرش الضئيل الذليل الرذيل الذي يؤتى به قبل ارتداد طرف من مسافة شهر، و تأتي صاحبتها الى سليمان طائعة مستسلمة مسلمة، فأين عرش من عرش، و اين صاحبة عرش من صاحب عرش، فلا تشابه بينهما إلّا في الاسم!.

هنا و بعد ما تم العرض من الهدهد لسبب الغياب، و ان اللَّه أخرج خب‏ء سبإ لسليمان بما غاب جندي له عن حشره، هنا لا يتسرع في تصديقه لزهوة الاتساع فى ملكه، و لا تكذيبه لاستصغاره و انه ادعى حيطة له علمية أحوط من سليمان الملك النبي، و انما يأخذ في التفتيش عن نبإه تأكدا من صدقه او كذبه:

قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ 27 اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ‏ 28.

«سننظر» هنا هي نظرة الواقع انتظارا، كما هي النظر في الواقع فلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 189

تحصل إلا نظرة نفس الواقع، دون نبإ آخر من شاهد آخر، ثم المحمّل لذلك التحقيق هو الهدهد نفسه، قطعا لعذره، و حملا عليه ما ادعاه من سفرته البعيدة لوقت قريب غريب، دون سائر الأمناء: عفريت من الجن امّن عنده علم من الكتاب، فأحسن بنظر في أمر يحمله صاحب الدعوى فيه!.

«اذْهَبْ بِكِتابِي هذا» الذي كتبته إليها و قومها «فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ» بهاء السكت في كل القراآت دون كسر، دون أعطه إياهم، علّه كيلا يأخذوك فيذبحوك أو ياسروك، و انما «ألقه» و طبعا من فوقهم جوا أو كوّة، و لكي ينتبهوا من الإلقاء نفسه انه امر خارق للعادة «ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ» الى مكان بعيد عن أخذك، غير بعيد عن نظرك‏ «ما ذا يَرْجِعُونَ» «فانظر» إليهم نظر البصر و السمع‏ «ما ذا يَرْجِعُونَ» القول بعضهم الى بعض، و «يرجعون» كلهم إلينا، و «ما ذا يَرْجِعُونَ» ردة فعل بعضهم الى بعض ثم إلينا، ثم خبّرنا بما «يرجعون».

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ 29 إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ 30 أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ‏ 31.

ذهب بكتابه المختوم غير المعلوم فألقاه إليهم، و طبعا إليها كأصل في خطابه كما النص‏ «إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ» دون «إنّا» مهما كان خطاب الكتاب الى الكلّ، و قد تلمح «ألقي» المجهول انها لم تعلم من ألقاه و كيف ألقاه مهما عرفت متاه، فلو كانت عارفة لأعلنت هذه العجيبة المنقطعة النظير، عجبا على عجب الإلقاء، بعجب‏ «كِتابٌ كَرِيمٌ» و لتحرّز الملأ اكثر مما حرضتهم على إفتاءهم في أمرها.

«قالت» بعد ما قرأت الكتاب، و هو طبعا كان بلغتها لكي تفهمه‏ «يا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 190

أَيُّهَا الْمَلَأُ» و هم ملأ الحاشية الملكية المساعدة للسياسة في المملكة «إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ» إذ تلقته بإلقاء دون إيتاء، فهو تلقّ خلاف المتعود من لقيا الكتاب و لكنه‏ «كِتابٌ كَرِيمٌ» و طبعا من كريم، فكتاب الكريم كريم الى أيّ كان، و كتاب اللئيم لئيم إلى ايّ كان، و ليدرس الدعاة الى اللَّه كيف عليهم ان يكتبوا كتاباتهم الدعائية الى اضدادهم، فضلا عن أعضادهم، و كما نرى كتابات الرسول محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) الى الملوك و الشيوخ و سائر الزعماء، كيف تحوي كرامات و كرامات، و قد أثرت في الأكثرية الساحقة منهم حسنا.

لقد كانت لغة الكتاب الكريم و صيغته تحمل كل حزم و جزم، ابتداء ببسم اللَّه و انتهاء إلى الإسلام للَّه، و لم يكن ليخفى صيت سليمان و صوته عن الملكة و ملئها، و على أية حال فقد حق كرم الكتاب رغم دعوته المرة عندها، لحد تصارح ملأها رغم ملكتها البارزة أمامهم، انه‏ «كِتابٌ كَرِيمٌ».

«إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ» مجردا عن كل مواصفة و تعريفة به، إذ كان معروفا لديها و سائر الملوك «و انه» فالتأكيد الأوّل يؤكد كونه من سليمان، و الثاني مضمونه في عرضها لمتنه الكامل، و قد تلمح «إنه» هنا و هناك انهما تعليلان لبيان كرم الكتاب، فكونه من سليمان من كرمه، و افتتاحه بسم اللَّه الرحمن الرحيم، من أكرمه، حيث المشركون كانوا يتعقدون في اللَّه انه رب الأرباب، فلا يتأنفون- بطبيعة الحال- عن ذكر اسمه، بل و يؤصّلونه في عبادتهم لأصنامهم: «هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ»- «ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏»! «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» افتتاحية بارعة ترعبها، و هي أفضل آية في الوحي كله، و علّها تختص الرسالة القرآنية، و من قبل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 191

لسليمان (عليه السلام)، و كونها في النمل دليل قاطع لا مرد له انها آية من كتاب اللَّه خلاف ما يزعمه البعض من إخواننا السنّة إذ لا يبتدءون بها في الفاتحة أم و سواها من السور.

فكيف يصح كونها آية في النمل و ليست آية في سواها و ليست هي إلّا هيه؟! و هنا ندرس الأدب في مفتتح كل كتاب مهما كان الى المشركين، و ليعلموا شرعة الكاتب و عقيدته.

ثم‏ «أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ» هو كل محتوى الكتاب، مسنودا الى البسملة، «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ» لا باسمي و بسمة الملك و القوة، و إنما بسم اللَّه، فالعلو علي كرسول علوّ على اللَّه، و إتياني مسلمين إتيان في الإسلام للَّه، فقد فسّر متن الكتاب فرعا من فروع‏ «بِسْمِ اللَّهِ» و «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» «أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ» هي «لا إله» «وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ» «إِلَّا اللَّهُ» فقد كان الكتاب «بسم الله- و- لا إله إلا الله»!.

ثم‏ «وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ ..» كمتن الكتاب، قد تلمح أن سليمان كتب اسمه آخر الكتاب و كما هو قضية الحال في أدب الكتاب الحاوي اسم اللَّه ألّا يقدم عليه اسم لسواه.

و هنا «أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ» دون‏ «عَلَى اللَّهِ» تفسر «وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ» ان ليس هو- فقط- الإسلام للَّه، بل هو بالفعل إسلام لسليمان، مهما كانت النتيجة الإسلام للَّه، فكما قالت‏ «أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ».

و قد تعني‏ «أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ» كرسول، علوا على رسالة اللَّه، إذا «وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ» للَّه، و لكنه قد يكون تكليفا بالإسلام قبل وصول الحجة، فليأتوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 192

مسلمين له حتى يجدوا مجالا لإسلامهم للَّه.

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ‏ 32.

بطبيعة الحال هؤلاء كانوا ملأ الفتيا السياسية في البلاط، لا كل الملإ العائشين تحت إمرتها، و الفتوى من الفتى: الطري من الشباب، فهي النظرية الفتية فيما يطرح من هامة المسائل التي هي محط السئوال و القيل و القال، ف «افتوني» تعني ابدوا لي بالرأي الفتي الناضج «في أمري» الإمر بأشد المآزق السياسية الملكية، حيث حار دونها لبها، فليشر عليها المشاركون معها في صالح الملك، لا سيما و انني لا أخبئ عنكم امرا أقطعه في سياسة البلاد، و قد ابتليت بأمر هو المحور الأصيل فيها «ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ» كسرا: حتى تشهدونني كيف أقطعه، استصوابا له بمشهدكم، و قطع الأمر هو الرجوع بعد إجالة الآراء و مخض الأقوال الى رأي واحد يصح العزم على فعله، و العمل عليه دون غيره، تشبيها بالإسداء و الإلحام في الثوب النسيج، ثم القطع له بعد الفراغ منه، فكأنها أجالت الرأي عند ورود ما ورد عليها من دعاء سليمان لها الى الايمان به و الاتباع له فميلت بين الاجابة و الامتناع و الملاينة و المخاشنة، فلما قوي في نفسها امر الملاطفة عزمت على أمرها، و ذلك هو قطع الأمر.

و حيث الكتاب الملقى إليها بمضمونه زلزل كيانها و كسر من سورتها فهي لا تضمر حربا ضد سليمان، و إلا فلما ذا المشورة، إلا ان رجال الحاشية حسب عادتهم أبدوا قوة و استعدادا للحرب، و خضوعا لأمرها على أية حال:

قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ‏ 33.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 193

«نحن» بكامل استعدادنا للحرب‏ «أُولُوا قُوَّةٍ» عدّة و عدّة، لا فحسب بل و «أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ» تقديما لكافة قواتنا و استعداداتنا للذب عن العدو، و على أية حال «و الأمر» الملكي امرا أو نهيا في كل مأزق «إليك» و ليس إلينا، مما يؤكد أن السلطة كانت فردية استبدادية، مهما تشاورت الملكة في هذا الأمر الخاص، و لكنهم عطفوه الى أمرها المتداول على سائل الأحوال «فانظري» أنت في نفسك‏ «ما ذا تَأْمُرِينَ» و لكنها في موازنة القوة بين الجانبين مالت إلى سلاح الحيلة و الملاينة، قبل سلاح المخاشنة، و بطبيعة الحال حين تنحل المشكلة بملاينة لا تصلح المخاشنة، فتمهيدا للمصالحة تنذرهم بإفساد الملوك المتغلبين في الحروب حين تلمّح ميل رجال الحاشية الى الحرب فزيفت هواهم و سفهت رأيهم في شوراهم، و أبانت لهم ان الصلح خير و إن أحضرت الأنفس الشح، و أن الأجدر بذوي العقول الصائبة البداية بالتي هي أحوط و احسن ف:

قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ‏ 34.

هذه شيمة الملوك و طبيعتهم قضية زهوة الملك و التوسع فيه، فإذا دخلوا قرية أفسدوها عن بكرتها، إباحة لذمارها و انتهاكا لحرماتها، و تحطيما للقوات المدافعة عنها «وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها» الحافظين لمكتها «اذلة» تذليلا لعناصر المقاومة فيها «و كذلك» البعيد البعيد عن الكرامة «يفعلون» بطبيعة أحوالهم.

و مما يطفئ نائرتهم، و يسكن ثائرتهم و فائرتهم إعلان الحب و إعلام الود بذريعة «هدية».

وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ‏ 35.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 194

و لماذا «بهدية» و مرسلة متعدية بنفسها؟ لأن مفعولها محذوف هو المرسلون بها، و لماذا «إليهم» دون «اليه»؟ علّه حفاظا على سؤددها و جبروتها، كأنها لا تحسب هنا حساب الشخص، ام انها تحسبه مثلها مشاورا ملأه في امره كما شاورت ملأها في أمرها، أم لأن الهدية تهدّء من ثورة الحاشية فيهدء الملك ..

هدية هي في الحق تجربة، فان قبلت فما أمرهم إلا الدنيا و بالإمكان ان تعالج المشكلة بها، حيث وسائل الدنيا تجدي في حل مشاكلها، و ان لم تقبل فهو- إذا- أمر العقيدة، فلنتّبعها إن صحّت بحججها، فلما إذا المحاربة المفسدة المذلّة المدمّرة «1»؟.

إنها ترسل هديتها برسلها زعما منها ان سليمان ملك كسائر الملوك الذين لا يريدون بالقتال إلّا فتح البلاد و غنم الأموال و أسر العباد، فعملت وفق ما زعمت و أرسلت إلى سليمان ما أرسلت.

هنا يسدل الستار على واقع تصميمها في ذلك المشهد المتضارب الآراء، و إلى مشهد الهدية الواصلة الى سليمان:

فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ‏ 36.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 89 عن تفسير القمي في القصة: ثم قالت: ان كان نبيا من عند اللَّه كما يدعي فلا طاقة لنا به فان اللَّه عز و جل لا يغلب و لكن سأبعث اليه بهدية فان كان ملكا يميل إلى الدنيا قبلها و علمت انه لا يقدر علينا فبعث حقة فيها جوهرة عظيمة و قالت للرسول قل له يثقب هذه الجوهرة بلا حديد و لا نار فأتاه الرسول بذلك فأمر سليمان ببعض جنوده من الديدان فأخذ خيطا في فمه ثم ثقبها و أخذ الخيط من الجانب الآخر ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 195

«فَلَمَّا جاءَ» الرسول بالهدية مهما كان معه غيره‏ «سُلَيْمانَ قالَ»:

«أ تمدونني»: تجذبونني امدادا «بمال» ضئيل قليل و كل متاع الدنيا قليل، أو تمهلونني لكي أمهلكم، أو أهملكم في دعوتي «بمال» أو تؤجلونني تأخيرا عن دعوتي «بمال» إمدادا ضد الدعوة الرسالية «بمال»؟.

و هو بطبيعة الحال أقبل عليهم قبل إبراز المال بوجه طلق يرحب بقدومهم و يتهلل للقائهم كما هو دأب الداعية الربانية بالنسبة لكل وارد أو شارد، ثم استشفّ غرضهم من وفودهم و تعرّف رأيهم، فتقدموا بما حملوه من مال يبتغون بها رضى و قبولا من النبي الكريم.

و

«الهدية على ثلاثة أوجه هدية مكافأة و هدية مصانعة و هدية لله عز و جل» «1».

و لو كانت الهدية هدية التحية كان يقبلها، كيف لا و قد قبل فخذ جرادة من نملة؟ و لكنها كانت هدية المصانعة و التعمية عن الدعوة، رشاء لعينا بديلا عن تصميم الداعية، فاستنكر موقفهم استهزاء بالمال، و انها هدية مضلة في مجال التعويض عن عامة الدعوة الربانية، أ تقدمون هذا الرخيص التافه البخيس و عندي خير منه‏ «فَما آتانِيَ اللَّهُ» كرسول ملك‏ «خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ» على الإطلاق، و حتى في كل المنال، فضلا عن خير الحال و الكمال، فما عاد شي‏ء من عرض الأرض التافه يسرني، فكيف يرضى مثلي ان يمدّ بمال يصانع به دعوة ربه، و لا يلهيني عن دعوتي مل‏ء الأرض ذهبا، و لا حيطتها ملكا.

«بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ» في مقياس الملك بقسطاس الزهوات و الشهوات و المعطيات المادية، و انا لست ممن يصانع الملكة بمالها أو جمالها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 86 في كتاب الخصال عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 196

اللهم إلّا بإيمانها و كما لها «بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ» و نحن بقضيتنا فارحون، و اين هدية ملكية من قضية رسالية؟.

أنتم تهشّون بهذه القيم التي لا قيمة لها عندنا؟ و لا نحسبها في حساب، إلّا ما يرضي ربنا!.

هنا «آتاني» بينّ لا ريب فيه لسليمان فانه ككلّ عطية ربانية، فكيف تقابله «ما أتاكم» و ليست السلطة الجبارة الملكية مما آتاه اللَّه؟.

الجواب‏ «تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ ...» فكل المحاولات للحصول على الملك فاشلة إلّا ان يشاء اللَّه، و لكنها مشية المحنة و العذاب للملك الجابر: «أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ. نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ» (23: 56) فالملك الحق يحمل المشية التشريعية الربانية الى التكوينية، و الباطل يحمل الثانية و تخييرا دون تسيير، ألا يحجز- أحيانا- بين طالب الملك و طلبه، مهما حجزه تشريعيا.

و كيف يخاطبهم و هم رسل الملكة «أَ تُمِدُّونَنِ‏ .. مِمَّا آتاكُمْ» و لم يكن الإمداد إلّا من الملكة، و لا إيتاء الملك إلا لها؟.

«أ تمدونني» تعنيها بحاشيتها الملكية و رسلها الأعضاد، حيث الهدية كانت بهم أجمع مهما كانت هي الأصل، ثم في تعبير الجمع تصغير لشأنها، قصدا الى دمجها في ملئها إذ لا يرى لها شأنا تليق به ان تذكر باسمها أو رسمها و كما قالتها هي‏ «إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ ..» إذ دمجت سليمان في ملإه، و هكذا يعنى من «ما آتاكم» حيث العطية الملكية تشملهم مهما كانت هي الأصل، فهم بأجمعهم يحملون أوزار الملك بأوضاره.

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ‏ 37.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 197

«ارجع» خطابا للرسول الأصل، و كما قال من قبل‏ «فَلَمَّا جاءَ» الرسول بالهدية «إليهم» الملكة بملئها، و طبعا رجوعا بالهدية إذ لم يقبلها «فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها»: لا طاقة لهم في قبالها و مقابلتها في عدة أو عدة أو قوة «1» تهديدا شديدا لهم، حيث الهدية كانت ناطقة بأنهم غير آتيه مسلمين، و قد تطلّب منهم في كتابه: «أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ».

«وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً» بعد ما كانوا أعزة «وَ هُمْ صاغِرُونَ»، فقد يخرج المحارب من بلده ذليلا غير صاغر، بل هو مكابر تذله القوة، و لكنهم‏ «أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ» حيث يلمسون الذل و الصغار بكل كيانهم أمام جنود اللَّه.

و لأن سليمان تلمّح من حالة الملكة و قالتها و هويتها أنها لا تريد العداء، بل و يدفعها ذلك التهديد الحديد أن تأتيه بملئها مستسلمين، لذلك يعد لها عدّة لإتيانها إيّاه صاغرة مستسلمة، فحاول في إحضار عرشها قبل حضورها لتفاجأ برؤيته فتدفعها الى إسلامها بعد استسلامها، حيث إن في هكذا مفاجأة لرؤيتها عرشها حجة بارعة ربانية «2» بعد حجة الكتاب الملقى إليها.

قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ‏ 38.

و هنا «الملأ» بطبيعة الحال هم الملأ القيادي سياسيا و روحيا، لأنهم من أعضاد الملك الرسالي، فهم النخبة المنتخبة من كل الإنس و الجن الذين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 14: 112 و قال الصادق (عليه السلام) ... «لا قِبَلَ لَهُمْ بِها» يقول:

«لا طاقة لهم بها».

(2)

نور الثقلين 4: 87 عن جوامع الجامع يروى‏ انها أمرت عند خروجها إلى سليمان فجعل عرشها في آخر سبعة أبواب و وكلت به حرسا يحفظونه فأراد سليمان ان يريها بعض‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 198

هم في حيطته الرسالية الملكية، و ليعرف بالنخبة بينهم اقترح عليهم‏ «يَأْتِينِي بِعَرْشِها» فتقدم في ذلك السباق‏ «الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ» فتبين انه الشخصية الثانية بعد سليمان (عليه السلام).

و تراه متى «قال ..» أدون فصل عن رجوع المرسلين و لمّا يصلوا؟

و صيغته الفاصحة «و قال ..» عطفا على «ارجع» ثم و «قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي» تلمح لما قبل وصولهم لا قبل شروعهم في سفرتهم، فهنا اقتراح للإتيان بعرشها عنده قبل إتيانهم إياه، و ليست خارقة العادة في الإتيان بعرشها إلّا أن يكون بعد خروجها ثم وصوله قبل وصولها، و حراك العرش- بطبيعة الحال- أبطأ من حراكهم، فليصل بعدهم، فوصوله قبلهم حجة إلهية، إضافة إلى أنه لم يكن له التصرف في عرشها بعد ان يأتوه مسلمين، ثم و أراد أن يختبر عقلها «نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي» و لا يجوز تنكير عرشها بعد إسلامها، و لا تستفيد منه حجة إذا أتي به بعدها! كما و أراد ألّا يبقى لقلبها تعلق بما وراءها حين تأتيه مسلمة و قد كانت تحب عرشها هائمة فيه! و لكن يبقى مجال القول في‏ «قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ» إنه قبل رحيلهم حالة إسلامهم، كما تؤيده قولها بعد ما رأت عرشها «وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ» و ليؤكد سليمان أحلامها أمر أن ينكّروا عرشها اختبارا لفراستها و مدى إسلامها.

و هل عجز سليمان نفسه عن أن يأتي بعرشها قبل قيامه من مقامه أم قبل أن يرتد إليه طرفه، فتطلّب إلى ملإه‏ «أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها»؟ طبعا لا، فانه كان إمامهم و أقوى منهم كلهم في كلّما لهم و منهم، ثم‏

«و لم يعجز سليمان عن معرفة آصف لكنه أحب أن يعرف أمته من الإنس و الجن أنه الحجة من بعده و ذلك من علم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ما يخصه الله به من المعجزات الشاهدة النبوية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 199

سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته و دلالته كما فهم سليمان في حياة داود ليتعرف إمامته و نبوته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق» «1»

فقد امتاز من بين الملإ عفريت من الجن بين الجان، و الذي عنده علم من الكتاب بين الأنس، و ليعلم من هو أحرى بخلافته بين الجن و بين الإنس، فامتاز آصف بن برخيا وزير سليمان، انه هو خليفة بين الملإ كلّهم.

قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ‏ 39.

يقال: عفريت من الجن هو المارد الخبيث! و كيف مارد؟ و هو أول المستجيبين لسليمان في مهمة إلقاء الحجة الرسالية! و كيف خبيث؟ و هو «عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ»!؟ و قضية القرآن البيان ان يرد على دعواه في قوته و أمنه لو كان خبيثا ماردا! و المارد الخبيث من الجن يعبر عنه بالشيطان كما «وَ مِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 14: 127 روى العياشي في تفسيره بالإسناد قال‏ التقى موسى بن محمد بن علي بن موسى عليهم السلام و يحيى بن أكثم فسأله عن مسائل قال: فدخلت على اخي علي بن محمد عليهما السلام بعد ان دار بيني و بينه من المواعظ حتى انتهيت إلى طاعته فقلت له جعلت فداك أن يحيى بن أكثم سألني عن مسائل افتيه فيها فضحك فقال فهل أفتيته؟

قلت: لا قال: و لم؟ قلت: لم اعرفها قال: و ما هي؟ قلت: قال اخبرني عن سليمان أ كان محتاجا إلى علم آصف بن برخيا؟ ثم ذكر المسائل الأخرى قال: اكتب يا أخي:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم سألت عن قول اللَّه تعالى في كتابه‏ «قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ» فهو آصف بن برخيا و لم يعجز سليمان ..

(2)

البحار 14: 110 عن تفسير القمي في تفصيل القصة .. فلما اخبر اللَّه سليمان بإقبالها نحوه قال للجن و الشياطين «أيكم يأتيني بعرشها قبل ان يأتوني مسلمين. قال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 200

ثم «عفريت» لغويا من عفره في التراب: مرّغه و دسّه فيه، إشارة إلى قوته، كما التعفير هو المس بالتراب، و من معاني العفريت النافذ في الأمر مع دهاء، و قد يكون تفسيره بالخبيث المنكر تفسيريا لا لغويا، دون سناد إلى أية حجة إلّا تناقله بين المفسرين!.

و كما الذي عنده علم من الكتاب كان أفضل من سواه بين الإنس، فليكن عفريت من الجن أفضل من سواه بين الجن، و عله من مرسليهم، و كيف يؤتى المارد الخبيث من الجن تلك القوة الخارقة و لا يؤتاها المؤمن التقي منهم و بينهم رسل الجن؟.

و «قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ» قد تعني قيامه عن شغله المرسوم في سلطته، و هو يناسب نصف النهار و إلى ساعة و دقيقة و اقل منها، إذ لم يعلم متى- هي- قالة عفريت.

أم قيامه من مقامه تحديد زمني قدر ما يعرف من الزمان لمجرد القيام عن الجلوس؟ كلّ محتمل، و علّ الثاني اضبط و أفضل، حيث الأوّل لنا غير محدّد، فلا يناسب كتاب البيان، و لكن العبارة الصالحة عنه «قبل قيامك» لا «قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ»! و قد تكفي في ذلك المجال معرفة الحاضرين عنده بمدى قيامه من مقامه، و لنا اجماله، و كما في‏ «قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» إذا فالأوّل أولى، و أبعد تقدير لذلك القيام و هو نصف نهار، يكفي خارقة للعادة في الإتيان بعرشها فيه من مسيرة شهر للسفر العاديين فضلا عن عرشها، ثم القادر على ان يأتي به في ساعة أم سويعات من مسيرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عفريت (من عفاريت الجن) أَنَا آتِيكَ ..»

أقول لو كان العفريت شيطانا ماردا لما تحول عن الشيطان الى‏ «عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ». و في الدر المنثور 5: 108- اخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله: قال عفريت من الجن، قال: عظيم كأنه جبل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 201

شهر، قادر على الإتيان به في ثوان.

قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ‏ 40.

أ ترى من‏ «الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ» هنا؟ و ما هو الكتاب؟ و ما هو علمه؟ و كيف أتى بعرشها قبل أن يرتد اليه طرفه و هو بحاجة إلى سرعة هائلة و دون موانع في الطريق لا تناسب و جسم العرش بثقله؟

هل‏ «الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ» هو من الجن، عفريت أقوى من الأوّل؟ و تعبيره الصالح «عفريت آخر»! ثم تقابله لعفريت من الجن يحكم أنه من الإنس! و كيف يحرم مؤمنوا الإنس عما يقدر عليه عفاريت الجن، و الإنس أفضل من الجن- ككل- و لا سيما في المجال الرسالي أصالة و وصاية ..

أم هو سليمان نفسه مخاطبا عفريت الجن، حيث «الذي» للإشارة إلى شخص معين معلوم و لا معلوم هنا إلّا سليمان نفسه و قد مضى دور العفريت و لا ثالث هنا معروفا في السياق، و ان القدسية الخاصة المتميزة لسليمان تقتضي ان تكون الخارقة بيده لا سواه؟.

لكنه لا يلائم السياق الفاصح الواضح، حيث ان سليمان هو المتطلّب لإحضار العرش عنده، فكما «أَنَا آتِيكَ» لعفريت الجن تعني إتيانه إلى سليمان، كذلك‏ «أَنَا آتِيكَ» للذي عنده علم من الكتاب ليس يعني إلّا سليمان، كما «مقامك» و «رآه» و «عنده» و «قال ..» كلها تعني سليمان المحضر عنده العرش! و حين يأتيه بعرشها أحد من حواشيه، لم يكن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 202

هذا ليدل على أنه أقوى منه و أحرى‏ «1» بل انما يدل على أن الآتي به بأمره يصلح أن ينوبه حيا و ميتا! ثم «الذي» بوصفها تعرّف مكانة الآتي به مسنودا إلى لياقته و لباقته، و مكانة سليمان عرفت من ذي قبل بأكثر من ذلك! أم هو «خضر» (عليه السلام)؟ قد يجوز في نفسه و لكنه لا دليل عليه يتّبع، مهما كانت لخضر مكانته العالية، ثم لا رجاحة له على من سواه في ذلك المسرح مهما كان أرجح منهم في سواه، حيث النص: «يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها» و لم يكن خضر من ملئه و حواشيه و أعضاده الملكية.

إنه آصف بن برخيا وزير سليمان و وصيه و خليفته كما في متظافر الأحاديث.

و منها ما

يروى عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ذاك وصي أخي سليمان بن داود «2».

و أما الكتاب! فهل هو كتاب التشريع؟ و كثير هؤلاء الذين يعلمونه تماما و فوق‏ «عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ» اللامحة إلى بعض العلم، و لا يقدرون على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد مضى‏

رواية العياشي عن علي بن محمد الهادي عليهما السلام و فيه: و ذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر اللَّه ففهمه اللَّه ذلك لئلا يختلف في إمامته و دلالته ..

(2)

نور الثقلين 4: 88 في روضة الواعظين للمفيد قال ابو سعيد الخدري‏ سألت رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) عن قول اللَّه جل ثناءه‏ «قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ» قال ذاك ..

و مثله ما عن بصائر الدرجات عن جابر عن الباقر (عليه السلام) و عن عمر الحلال عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) و عن عيون الأخبار عن عمر بن واقد عن موسى بن جعفر عليهما السلام، و عن الكافي عن أبي الحسن صاحب العسكر علي الهادي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 203

ذلك و لا ما دونه من خارقة ربانية! و ليس الإتيان به من الواقعات الشرعية المكلف بها مدراء الشرعة حتى يكفيهم علمهم بها لتحقيقها!.

أم هو كتاب التكوين- المعبر عنه في أحاديثنا بالاسم الأعظم و له ثلاثة و سبعون حرفا، و قد أوتي الذي عنده علم من الكتاب حرفا منه و أوتي الرسول محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و أهل بيته المعصومين ذلك الاسم إلا حرفا واحدا-؟

و التكوين و التشريع هما من مختصات الربوبية علما و قدرة، و ليست الآيات الرسالية مما يعلمها أو يقدر عليها الرسل، و الرسول محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو أول العابدين و أفضل العارفين لم يكن عنده هذه الآيات مخوّلة: «وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ» (6: 109).

فإنما الرسل مجاري لتحقق الآيات الرسالية بإذن اللَّه على أيديهم، لتدل على اختصاصهم باللَّه و رسالتهم من اللَّه، فقد خاف موسى من حية تسعى محولة عن عصى‏ «قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى‏» فلو كانت آية بعلمه و قدرته لما خافها.

و في عيسى‏ «وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى‏ بِإِذْنِي» و هو القدرة الإلهية بعلم هما المصدر لآياته و سائر أفعاله الخاصة به.

و ما علم آصف بن برخيا بجنب علم محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) بالكتاب إلا كقطرة من يم‏ «1» فهل هو بعد كان عنده علم من كتاب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 204 عن الكافي عن ابراهيم بن هاشم عن سليمان عن سدير قال: كنت أنا و أبو بصير و ميسر و يحيى البزاز و داود الرقي في مجلس أبي عبد اللَّه (عليه السلام) إذ خرج إلينا و هو مغضب فلما أخذ مجلسه قال عجبا لا قوام يزعمون انا نعلم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 204

تكوين لم يكن عند محمد؟! قد يعني «الكتاب» هنا كتاب المعرفة الربانية، فكلما كانت معرفة اللَّه أكمل فآيات اللَّه الجارية بإذنه على ايدي العارفين به اكثر و أكمل.

فعلم الكتاب كله يختص باللَّه، إذ لا يعرف اللَّه حق المعرفة إلّا هو، ثم المعرفة القمة الممكنة لمن سوى اللَّه هي التي كانت لمحمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و أهليه المعصومين، و هي تنقص حرفا واحدا من كتاب المعرفة الكاملة، و هو حرف الذات القدسية، ثم الاثنان و السبعون حرفا الباقية «1» من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الغيب ما يعلم الغيب إلّا اللَّه لقد هممت بضرب خادمتي فلانة فذهبت عني فما عرفتها في أي البيوت هي من الدار فلما ان قام من مجلسه و صار إلى منزله دخلت انا و أبو بصير و ميسر على أبي عبد اللَّه (عليه السلام) فقلنا له جعلت فداك و سمعناك تقول في امر خادمك و نحن نعلم انك تعلم علما كثيرا لا ينسب إلى علم الغيب؟ فقال: يا سدير ما تقرأ القرآن؟ قلت: قد قرأناه جعلنا اللَّه فداك فقال هل وجدت فيما قرأت من كتاب اللَّه‏ «قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» قلت جعلت فداك قد قرأته قال فهل عرفت الرجل و عرفت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال قلت فأخبرني حتى أعلم، قال: قدر قطرة من المطر الجود في البحر الأخضر ما يكون ذلك من علم الكتاب، قلت: جعلت فداك ما اقل هذا؟ قال يا سدير ما أكثره لمن لم ينسبه إلى العلم الذي أخبرك به يا سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب اللَّه‏ «قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ» و اللَّه عندنا ثلاثا.

(1).

المصدر بصائر الدرجات محمد بن عيسى عن علي بن الحكم عن محمد بن الفضيل عن ضريس الوابشي عن جابر عن أبي جعفر عليهما السلام قال‏ قلت: جعلت فداك قول العالم‏ «أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» فقال: يا جابر ان اللَّه جعل اسمه الأعظم ثلاثة و سبعين حرفا فكان عند العالم منها حرف فأخسفت الأرض ما بينه و بين السرير التفت القطعتان و حوّل من هذه على هذه و عندنا اسم اللَّه الأعظم اثنان و سبعان حرفا و حرف في علم الغيب.

أقول: و بهذا المعنى استفاضت الأحاديث عنهم عليهم السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 205

ذلك الكتاب تعني معرفة اللَّه القمة لهم عليهم السلام إلّا معرفة الذات، فهم مهما حرموا من حق معرفته الخاصة به «ما عرفناك حق معرفتك و ما عبدناك حق عبادك» و لكنهم زوّدوا المعرفة الحقة الممكنة في حقهم، فهم يعرفون اللَّه بكل حروف المعرفة و جوانبها إلّا حرف الذات و جانبها.

و الحرف الواحد من هذا الاسم الأعظم المختص باللَّه، هو جانب الذات و صفات الذات و حقيقة الصفات الفعلية، و سائر الحروف و هي سائر الجوانب المعرفية، مقسمة بين المخلصين من عباد اللَّه، و كلما ازدادت هذه الحروف المعرفية، زاد اللَّه صاحبها حملا لشرعته، و مظهرا لآيات علمه و قدرته:

«عبدي اطمعني حتى أجعلك مثلي انا أقول للشي‏ء كن فيكون، و أجعلك تقول للشي‏ء كن فيكون»

مهما اختلفت «كن» التكوينية من الرب، عنها في المربوبين، فانها فيهم بأمر اللَّه دون توكيل و لا تخويل، «إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ» دون سواه، «الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ» المعرفي في الاسم الأعظم، يأتي به قبل ان يرتد إليه طرفه، فأوتي من فوق سليمان و آصفه ما فوقهما من الخوارق و كما يروى عن أئمتنا المعصومين عليهم السلام‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و مما ورد في علمهم عليهم السلام أفضل من آصف ما

في عيون الأخبار باسناده إلى عمر بن واقد قال: إن هارون الرشيد لما ضاق صدره مما كان يظهر له من فضل موسى بن جعفر عليهما السلام و ما كان يبلغه عنه من قول الشيعة بإمامته و اختلافهم في السير اليه بالليل و النهار خشية على نفسه و ملكه ففكر في قتله بالسم- الى ان قال-: ثم ان سيدنا موسى (عليه السلام) دعى بالمسيب و ذلك قبل وفاته بثلاثة ايام و كان موكلا به فقال له يا مسيب! قال: لبيت يا مولاي، قال: إني ظاعن في هذه الليلة إلى المدينة مدينة جدي رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) لأعهد إلى ابني عليّ ما عهده إلي أبي و أجعله وصيي و خليفتي و آمره أمري، قال المسيب: فقلت: يا مولاي كيف تأمرني ان افتح لك الأبواب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 206

و هذه الحروف المعرفية من الاسم الأعظم يمنحها اللَّه لمن يشاء، فهي الكتاب المعني هنا، فلا يعني الاسم الأعظم مقولة اللفظ، إذ لا اسم لفظيا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و أقفالها و الحرس معي على الأبواب؟ فقال: يا مسيب ضعف يقينك باللَّه عز و جل وفينا؟

قلت: لا يا سيدي قال: فمه؟ قلت: يا سيدي ادع ان يثبتني فقال: اللهم ثبته، ثم قال: إني ادعو اللَّه عز و جل باسمه العظيم الذي دعا به آصف حتى جاء بسرير بلقيس و وضعه بين يدي سليمان (عليه السلام) قبل ارتداد طرفه اليه حتى يجمع بيني و بين ابني علي بالمدينة، قال المسيب فسمعته (عليه السلام) يدعو ففقدته عن مصلاه فلم أزل قائما على قدمي حتى رأيته قد عاد إلى مكانه و أعاد الحديد إلى رجله فخررت له ساجدا لوجهي شكرا على ما أنعم به عليّ من معرفته ...

أقول: و ما أهم السرعة الهائلة الخارقة لإنسان دون تحوّل إلى طاقة فإنها الموت- من السرعة في جماد لا حياة له فلذلك‏

يقول ابو عبد اللَّه (عليه السلام) في رواية سدير عنه‏ يا سدير الم تقرء القرآن؟ قلت: بلى- قال: فهل وجدت فيما قرأت من كتاب اللَّه عز و جل‏ «قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ ...» قال قلت: جعلت فداك قد قرأته، قال فهل عرفت الرجل و هل عرفت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال: قلت اخبرني به، قال:

قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر، فما يكون ذلك من علم، قال قلت جعلت فداك ما اقل هذا؟!.

و

فيه في الخرائج و الجرائح روي‏ ان خارجيا اختصم مع آخر إلى علي (عليه السلام) فحكم بينهما بحكم اللَّه و رسوله فقال الخارجي: لا عدلت في القضية، فقال (عليه السلام) اخسأ يا عدو اللَّه، فاستحال كلبا و طارت ثيابه في الهواء فجعل يبصبص و قد دمعت عيناه فرقّ له فدعا اللَّه فأعاده إلى حال الإنسانية و تراجعت إليه ثيابه من الهواء، فقال: آصف وصي سليمان قص اللَّه عنه بقوله: «قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ ...» أيهما اكبر على اللَّه؟ نبيكم ام سليمان؟ فقيل: ما حاجتك إلى قتال معاوية إلى الأنصار؟ قال: إنما ادعو على هؤلاء بثبوت الحجة و كمال المحنة و لو أذن لي في الدعاء لما تأخّر.

و

في البحار 14: 115 عن الاختصاص للمفيد بسند متصل عن ابان الأحمر، قال قال الصادق (عليه السلام) يا ابان كيف تنكر الناس قول امير المؤمنين (عليه السلام) لمّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 207

له ثلاثة و سبعون حرفا! و حتى لو كان فلا أثر لما دون كل حروفه و ان نقص حرفا واحدا فضلا عن حرف واحد منه! ثم و لا تأثير للعلم بالاسم اللفظي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: لو شئت لرفعت رجلي هذه فضربت بها صدر ابن أبي سفيان بالشام فنكسته عن سريره و لا ينكرون تناول آصف وصيّ سليمان، عرش بلقيس و إتيانه سليمان به قبل ان يرتد اليه طرفه؟ أ ليس نبينا (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) أفضل الأنبياء و وصيه أفضل الأوصياء؟ أ فلا جعلوه كوصي سليمان (عليه السلام) حكم اللَّه بيننا و بين من جحد حقنا و أنكر فضلنا.

أقول: و في الأثر المستفيض ان من عنده علم الكتاب هو علي (عليه السلام) و بنوه المعصومون و ممن‏

أخرجه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن 1: 336 عن عبد اللَّه بن عطاء ما لفظه: قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنهم زعموا ان الذي عنده علم الكتاب عبد اللَّه بن سلام فقال: انا ذلك علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه.

و الدشتكي الشيرازي في روضة الأحباب و السيوطي في الإتقان 1: 13 حيث قال:

و قال سعيد بن منصور في سننه حدثنا ابو عوانة عن أبي بشر قال: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى‏ «مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ» أهو عبد اللَّه ابن سلام؟ فقال: كيف و هذه السورة مكية، و منهم الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي 49 نقله عن المحدث الحنبلي انه روى عن أبي حنيفة انه قال‏ «وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ» هو علي (عليه السلام) لشهادة

قول النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): انا مدينة العلم و علي بابها

و

نقل عن الثعلبي في تفسيره عن عبد اللَّه بن سلام‏ انه سئل عن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) عن الآية؟ قال (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): انما هو علي (عليه السلام)،

و

سليمان القندوزي في ينابيع المودة 102، و روى الثعلبي و ابن المغازلي بسنديهما عن عبد اللَّه بن عطاء قال: كنت مع محمد الباقر رضي اللَّه عنه في المسجد فرأيت عبد اللَّه بن سلام فقلت هذا ابن الذي عنده علم الكتاب؟ قال: إنما ذلك علي بن أبي طالب (عليه السلام)

و

روى الثعلبي و أبو نعيم بسنديهما عن زادان عن محمد بن الحنفية قال‏ «مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ» علي بن أبي طالب (عليه السلام)

و

روى عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال‏ سألت رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) عن هذه الآية «الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 208

أيا كان، فاسم «اللَّه» و «هو» هما أعظم الأسماء الإلهية على الإطلاق، و لا تأثير لهما بمجرد العلم بهما و لقلقة اللسان فيهما فضلا عن اسماء سواهما و هي كلها دونهما!.

و في الحق إن الاسم و هو الدال على مسمى، هو واقعه بدلالة واقعية، و الاسم اللفظ هو المعرفة الكاملة باللَّه و هي الاسم الأعظم معنويا، فالذي عنده علم من الكتاب منحه اللَّه ما ياتي به العرش من مسافة شهر قبل ارتداد الطرف! و طبعا بدعائه ربه دونما استقلال، فهل أتى به دون تغيير و لا تحوير فيه و لا في مسيره؟ و موانع الجدران و الأتلال و الأشجار تمنعه! و سرعة السير هكذا تحوّله، فان لكل عنصر قابلية خاصة لسرعة مّا، لو تجاوزها لتجاوز عن كيانه إلى ما يقبلها!.

قد يقال ان ذلك كله بسيط بجنب القدرة الإلهية، ما لم يكن محالا ذاتيا، و كما في السرعة المعراجية فوق الضوئية بملايين الأضعاف لاجتياز تلك المسافة الهائلة مرجّعا في سويعات؟ و لكن المركبة الفضائية المعدة للسفرة المعراجية كانت تحافظ على الحياة الروحية و البدنية لصاحب المعراج دونما تحويل (راجع تفسير سورة النجم من الفرقان).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الكتاب» قال: ذلك اخي سليمان بن داود، و سألته عن قول اللَّه عز و جل: «قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ» قال: ذاك اخي علي بن أبي طالب (عليه السلام)

و

روى في المناقب عن احمد بن محمد عن موسى بن جعفر عليهما السلام و عن زيد بن علي (عليه السلام) و محمد بن الحنفية و عن سلمان الفارسي و عن أبي سعيد الخدري و إسماعيل السدي‏ انهم قالوا في الآية: هو علي بن أبي طالب (عليه السلام)

(ملحقات احقاق الحق للعلم الحجة السيد شهاب الدين الحسيني المرعشي 3: 280- 282).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 209

و على أية حال فلا بد لهذه السرعة الهائلة للعرش من خارقة هي مصدّقة فلسفيا و علميا، و قد أثبت علم الفيزيا إمكانية تحول كلّ من المادة و الطاقة إلى الأخرى، و واقع التحويل معروف على ضوء المحاولات الجادة العلمية المتحضرة الحاضرة.

و قد اثبت العلم إمكانية تحويل المواد إلى طاقات و أمواج بالإمكان إرسالها سريعا كإرسال الصور التلفزيونية و الأصوات الراديوئية أماهيه، مهما لم يقدر العلم حتى الآن على تحقيقه.

فقد يجوز أن عملية الإتيان بالعرش في هذه السرعة الهائلة كانت بتحويلها إلى طاقة و أمواج ثم استجلابها بسرعة تناسب‏ «قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» ثم رجعها إلى ما كانت عرشا كما هو، إذا فهو مثلث من خوارق العادات دون محاولة علمية تجريبية، و إنما بما أراد ابن برخيا بقدرة اللَّه، دون إرسالية للأمواج المحولة عن العرش في مكانه، بل هو استرسال من مسافة شهر بارادة آصف مزودة بمشيئة اللَّه! و قد يعنيه‏

المروي عن أئمتنا عليهم السلام‏ «ان آصف بن برخيا قال لسليمان (عليه السلام) مد عينيك حتى ينتهي طرفك، فمد عينيه فنظر نحو اليمن و دعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب ثم نبع عند مجلس سليمان بالشام بقدرة الله قبل ان يرد طرفه» «1»!.

فلا يعنى غوره ذهابه في الأرض كما هو مثل الماء الغائر، حيث نبع و لا ينبع العرش بحاله كما لا يغور، بل يلمح غوره إلى تحوّله إلى غيره من طاقة لطيفة، فكما الماء يغور في جانب من الأرض ثم ينبع من جانب آخر، كذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 87 في جامع الجوامع و روى ان آصف بن برخيا ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 210

غار العرش في الجو غور الطاقات الموجية، ثم نبع عند مجلس سليمان كما كان.

و قد يعنيه ايضا انخساف الأرض و انخراقها بينه و بين العرش تأويلا له بانخراق جو الأرض، إذ لا يكفي في تخطي هذه السرعة الهائلة- فقط- تحويل العرش إلى الأمواج، فلا بد لها من تعبيد المسيرة الجوية خرقا و خسفا حتى تتم الخارقة الربانية كما تمت و هذه خارقة رابعة.

و الظاهر من ارتداد الطرف هو التقاء الجفنتين بعد افتراقهما، فجفن العين هو دائم الانطباق و الافتتاح كعملية أوتوماتيكية دون ارادة، كما تلمح لها «يرتد» دون «يرد» و ذلك أبلغ ما يوصف به في السرعة، و قد يعنيها «أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» بعد «كَلَمْحِ الْبَصَرِ» «قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ» أقل من طرفه إلى أن يبلغ إلى واحد الزمان الأم‏ «1».

فليكن غور العرش تحولا له إلى ابسط طاقة موجية كأخفها وزنا و أسرعها قابلية للحركة لكي تجتاز مسيرة شهر في واحد من الزمان أم يزيد لأقل من ارتداد الطرف.

و مهما استطاع العلم في مستقبل ان يحوّل- حسب المحاولات و المعادلات الفيزاوية- مادة إلى طاقة موجية و لمّا، فليس بمستطاعه- و إن بلغ القمة المستطاعة لمن سوى اللَّه- ذلك المربع البارع من خرق العادة بمجرد المشيئة و دون محاولة عملية إلّا دعاء «2» فتلك- إذا- هي من آيات الرسالة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 88 بصائر الدرجات عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) ... ثم عادت الأرض كما كانت اسرع من طرفة عين ..

(2)

نور الثقلين 4: 92 عن مهج الدعوات في دعاء العلوي المصري عن علي (عليه السلام): الهي و اسألك باسمك الذي دعاك به آصف بن برخيا على عرش ملكة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 211

الربانية، و هي هنا كحجة ثانية لاهتداء الملكة إلى اللَّه كما اهتدت فأسلمت مع سليمان للَّه رب العالمين.

كلام حول تبدل المادة طاقة و موجة

فالذرة هي طاقة متكاثفة معقّدة كما الطاقة هي ذرة منطلقة متحررة، و لا اختلاف بينهما إلّا بالتكاثف و الانتشار، و العلم الحديث بدء بمحاولة تبديل المادة إلى طاقة خالصة، أي نزع الصفة المادية للعنصر بصورة نهائية، و ذلك على ضوء جانب من النظرية النسبية ل «البرت انيشتاين» إذ تقرر أن كتلة الجسم نسبية و ليست ثابتة، فهي تزيد بزيادة السرعة، كما تؤكد التجارب التي أجراها علماء الفيزياء الذرية على الإلكترونات التي تتحرك في مجال كهربائي قوي، و دقائق (بيتا) المنطلقة من نويّات الأجسام المشعّة «1».

و لما كانت كتلة الجسم المتحرك تزداد بازدياد حركته، و ليست الحركة إلّا مظهرا من مظاهر الطاقة، فالكتلة المتزايدة في الجسم هي إذن طاقته المتزايدة.

فلم يعد في الكون عنصران متمايزان أحدهما المادة التي يمكن مسّها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

سبأ فكان اقل من لحظ الطرف حتى كان مصورا بين يديه ..»

و

فيه (90) عن الامام علي الهادي (عليه السلام) كان عند آصف حرف فتكلم به فانحرقت له الأرض فيما بينه و بين سبأ .. و مثله في سائر روايات‏ القصة انه دعا، فلم تكن منه المشية دون دعاء، أو عملية علمية تجريبية.

(1). يقال اولى الاستحالات التي حصلت لعنصر ثابت كانت في 1919 م بواسطة راذفورد بآلية ساذجة جدا و قد فصل في كتاب الطاقة الذرية من السلسلة العلمية: ماذا أدرى ص 61.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 212

و تتمثل لنا في كتلة، و الآخر الطاقة التي لا ترى و ليست لها كتلة، كما كان يعتقد العلماء سابقا، بل أصبح العلم يعرف أن الكتلة ليست إلّا طاقة مركزة.

و يقول انيشتاين في معادلته ان: «الطاقة كتلة المادة\* مربع سرعة الضوء، و سرعة الضوء 816000 ميلا في الثانية» كما ان الكتلة الطاقة/ مربع سرعة الضوء، و بذلك ثبت ان الذرة بما فيها من بروتونات و الكترونات ليست في الحقيقة إلّا طاقة متكاثفة، بالإمكان تحليلها و إرجاعها إلى حالتها الأولى.

فهذه الطاقة هي الأصل العميم للعالم في التحليل الحديث و هي التي تظهر في اشكال مختلفة و صور متعددة: صوتية و مغناطيسية و كهربائية و كيماوية و ميكانيكية أمّاهيه؟، و على هذا الضوء لم يعد الازدواج بين المادة و الإشعاع بين الجسمانيات و الموجات، أو بين ظهور الكهرب على صورة مادة أحيانا، و ظهوره على صورة كهرباء أحيانا أخرى، لم يعد ذلك غريبا، بل أصبح مفهوما بمقدار، ما دامت كل هذه المظاهر صورا لحقيقة واحدة هي الطاقة.

و لقد أثبتت التجارب علميا صحة هذه النظريات، إذ أمكن للعلماء ان يحوّلوا المادة إلى طاقة و الطاقة إلى مادة.

فالمادة تتحول إلى الطاقة عن طريق التوحيد بين نواة ذرة الهيدروجين و نواة ذرة ليثيوم، فتنتج عن ذلك نواتان من ذرات الهليوم، و طاقة هي في الحقيقة الفارق بين الوزن الذري لنواتين من الهليوم، و الوزن الذري لنواة هيدروجين و نواة ليثيوم.

و الطاقة تتحول إلى المادة عن طريق تحويل أشعة «جاما» و هي أشعة لها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 213

طاقة دون وزن، تتحول إلى دقائق مادية من الإلكترونات السالبة و الإلكترونات الموجبة، التي تتحول بدورها إلى طاقة، إذا اصطدم الموجب منها بالسالب.

و من أعظم التفجيرات للمادة الذي توصّل إليها العلم، هو التفجير الذي يمكن للقنبلة الذرية و الهيدروجنية أن تحققه، إذ يتحول بسببها جزء من المادة إلى طاقة هائلة.

و تقوم الفكرة في القنبلة الذرية على إمكانية تحطيم نواة ذرة ثقيلة بحيث تنقسم الى نواتين أو اكثر من عناصر أخف، و قد تحقق ذلك بتحطيم النواة في بعض اقسام عنصر اليورانيوم، الذي يطلق عليه اسم اليورانيوم 235 نتيجة لاصطدام النيوترون بها.

و تقوم الفكرة في القنبلة الهيدروجينية على ضم نوى ذرات خفيفة إلى بعضها، لتكون بعد اتحادها نوى ذرات أثقل منها، بحيث تكون كتلة النواة الجديدة أقل من كتلة المكونات الأصلية.

و هذا الفرق في الكتلة هو الذي يظهر في صورة طاقة، و من أساليب ذلك دمج أربع ذرات هيدروجين بتأثير الضغط و الحرارة الشديدين، و إنتاج ذرة من عنصر الهليوم، مع طاقة هي الفارق الوزني بين الذرة الناتجة و الذرات المندمجة و هو كسر ضئيل جدا في حساب الوزن الذري.

رجوع إلى الآية بتكملتها

: «فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ» استقرارا عن تلك السرعة الهائلة، و استقرارا إلى أصله عن الموجة المحول إليها، فقد تمت في ذلك الاستقراء خوارق اربع تكفي كل واحدة حجة بارعة.

«قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي» ليس من فضلي أنا و لا آصف‏ «لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ» بلوى حسنة تبرز شكرانا أم كفرانا بهذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 214

النعمة السابغة الفائقة و سواها مما أنعم به عليّ، و لقد استشعر أن النعمة كهذه الخارقة البارقة ابتلاء مخيف ضخم، أمامها مسئولية هامة خطرة، فالمنعم بحاجة إلى يقظة ليجتازها سليما مسلما شاكرا، فان زهرة الحياة و زهوة النعمة قد تدفع الإنسان إلى الكفران، بل هو طبيعة الحال إلّا لمن اعتصم باللَّه فعصمه اللَّه.

«وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ» دون ربه‏ «وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ» غني عن ان يشكر، و غني عن ألّا يكفر، فإنما الشكران و الكفران راجعان إلى الشاكر و الكافر.

قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ‏ 41.

«نَكِّرُوا لَها» غيروا معالمه المميزة له بحيث لا يعرف لأوّل وهلة «نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي» إلى عرشها المستأنس لها طيلة ملكتها، و كان من حقها في نظرتها البدائية ألّا تعرفه لتنكّره و استبعادها الإتيان به بهذه السرعة.

و من خلال ذلك الهدي «تهتدي» إلى ربها حيث تجوزّ خارقة السرعة، اهتداء ذا بعدين في ذلك المضمار «أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ» كملإها الذين كانوا معها، إذ لم يهتدوا لا إلى معرفة العرش، و لا بمعرفته إلى معرفة اللَّه، و هنا تعرّف سليمان إلى ذكائها و إسلامها بذلك الاختبار و الاعتبار.

فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَ هكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ‏ 42.

هنا ينكّر السئوال‏ «أَ هكَذا عَرْشُكِ» دون «أ هذا» كما نكّر عرشها، فهو بين مثلث من التنكير ثالثه بعد المسافة و سرعة السير، و انها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال، فأين عرشها في سبإ و عليها أقفالها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 215

و حرّاسها، و اين بيت المقدس بمسيرة شهر، و كيف جي‏ء به و من ذا الذي جاء به؟ و لكن العرش رغم كل ذلك التنكير هو عرشها، و هي تعرفه، فانتهت إلى جواب محتاط أريب أديب: «قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ» فروسية بارعة في مواجهة هذه الظاهرة المريبة العجيبة، و ما قولة «كأنه هو» في هذه المجالة المريبة إلّا تصديقا لأنه هو و كما يؤيده‏ «وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ» فانه في ظاهر السياق من قولها تثيبتا ل «كأنه هو» و انها بعد ليست بحاجة إلى آية للإسلام.

و قد يعني الضمير المؤنث في «قبلها» آية العرش، فقد علمنا من إلقاء الكتاب إلينا و من مضمونها أنك على حق‏ «وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ» و ما قصة الهدية إلّا تأكّدة لما علمنا أنك لست من أهل المتع الدنيوية، و يا للعرش آية مؤكدة لآيات سبقته، و قد كان من قبل عرشا للسلطة المشركة، و هكذا يبدل اللَّه آية الضلال آية الهدى.

و قد يعني‏ «وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها» أن عرشها أتي به قبل ارتداد طرف و هي بعد في قصرها، حيث فقدته بأسره دون ان تفتح الأبواب أو ترى حملة يحملونه، و صالح الآية البينة يقتضيه حتى تعزم على الرحيل إلى سليمان مسلمة عارفة بالقضية، مهما كان إسلام التسليم أم إسلام الاستسلام، و لكنها أسلمت بعد مع سليمان للَّه رب العالمين.

وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ‏ 43.

الصد، بمعنى الفصل المانع، يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد و هو هنا «ها» الملكة، و «ما كانَتْ ..» فاعله- بطبيعة الحال- فالواو- إذا- حالية، و المصدود عنه هو سبيل اللَّه، فهي تقول هنا «وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ» حال انها قبل استسلامها و إسلامها صدها ما كانت تعبد من دون اللَّه عن عبادة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 216

اللَّه، فانها كانت من قوم كافرين، و قد زال ذلك الصد- منذ بلوغها كتاب سليمان إلقاء إليها، و رجوع المرسلين بهديتها بما حملوه من تهديد- زال لحد الاستسلام، ثم هنا الإسلام «و أسلمت ..»، و احتمال ان فاعل الصد هو سليمان بما فعل، أو العرش بما تحول وارد، مهما لا يحتمل كلّ بمفرده إذ يقتضي تقدير «عن» ل «ما» تعدية إلى ثاني المفعولين، و الجمع بينهما أحلى و أحرى، فكما صدها ما كانت تعبد من دون اللَّه، عن اللَّه، كذلك و بالمآل صدها سليمان و العرش عما كانت تعبد من دون اللَّه‏ «إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ» إذا ف «ما كانت» فاعل و مفعول، و يصح الثاني ضمن الأوّل حذفا للجار فيه و دون حذف في فاعله.

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ‏ 44.

«الصرح» هو القصر العالي، ثم‏ «حَسِبَتْهُ لُجَّةً» و «مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ» ترفعانه على أرضية قارورية فوق الماء، لذلك حسبته في تلك المفاجأة البديعة لجة الماء، و «كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها» دليل على عمق طفيف للماء خفيف، لا يخاف منه الغرق.

فقد «كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها» كيلا تبتلّ، و بعد خوض المفاجئة كشف لها سليمان عن سرّ الصرح‏ «قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ» و هو المملّس منها، لا فقط تملّسا أرضيا إذ ليس إلّا أرضه، و النص «صرح» فليكن كله مملسا من قوارير، و منه أرضه القائمة قواريرها على الماء، لحد يحسبه غير العارف بحاله أنه لجة.

و هنا تقف الملكة مفجوءة مندهشة أمام هذه العظمة المنقطعة النظير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 217

للملك النبيّ‏ «1» فترجع عقليتها متصاغرة أمام العظمة الرسالية، معترفة أنها كانت ظالمة نفسها «قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» في سابق حالي لحد الآن‏ «وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» دون ارباب مختلفة مختلقة سواه، و التعويض عن «رب» ب «رَبِّ الْعالَمِينَ» للإفصاح الصريح عن رفضها لسائر الأرباب شمسا و سواها.

و معية الإسلام هنا تصريحة أخرى بخالص الإسلام، فليس إسلامي لسليمان لأنه وسيط، و انما «أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ» تذرعا برسالته الربانية «لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» و ذلك بعد إسلامها له بمعنى التسليم و الاستسلام قبل بلوغ الحجة و اتضاح المحجة.

اجل و ان رسل اللَّه لا يدعون إلى أنفسهم، و إنما إلى اللَّه، فكل من أسلم للَّه كان معهم كإخوة في اللَّه، فأين سليمان النبي بأعلى درجات التوحيد، و ملكة سبإ بأسفل دركات الشرك، بون بعيد لا صلة فيه بينهما، و لكنما الإسلام للَّه يرفعها إلى درجة الأخوة مع سليمان‏ «وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ»! و تراه تزوج بها؟ قد يلمح له‏ «وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها» فما أمرها بدخول الصرح و هو يعلم انها تكشف عن ساقيها، إلّا قاصدا زواجها فلينظر إلى ساقيها كما نظر إليها، و لو كان القصد مجرد اظهار العزة لكان يكفي البيان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من طريف ما يروى في ذلك المضمار ما في الدر المنثور 5: 112- اخرج ابو نعيم في الحلية عن مجاهد قال لما قدمت ملكة سبأ على سليمان رأت حطبا جزلا فقالت لغلام سليمان هل يعرف مولاك كم وزن هذا الدخان؟ فقال: أنا اعلم فكيف مولاي؟

قالت: فكم وزنه؟ فقال الغلام: يوزن الحطب ثم يحرق ثم يوزن الرماد فما نقص منه فهو دخانه!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 218

قبل كشفها، و طبيعة الحال في هذه الحالة العجيبة من تحولها إلى الإسلام، أن يتزوجها سليمان إكراما لها لكي تملك مؤمنة بعد ما ملكت كافرة، فلا يحسب إسلامها خسارا لها حتى في ملكها «1».

[سورة النمل (27): الآيات 45 الى 53]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى‏ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (48) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (49)

وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (53)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 112- اخرج البيهقي في الزهد عن الأوزاعي قال كسر برج من أبراج تدمر فأصابوا فيه امرأة حسناء دعجاء مدمجة كان اعطافها طي الطوامير، عليها عمامة طولها ثمانون ذراعا مكتوب على طرف العمامة بالذهب: بسم اللَّه الرحمن الرحيم أنا بلقيس ملكة سبأ زوجة سليمان بن داود ملكت الدنيا كافرة و مؤمنة ما لم يملكه أحد قبلي و لا يملكه أحد بعدي صار مصيري إلى الموت فاقصروا يا طلاب الدنيا، و فيه اخرج ابن عساكر عن سلمة بن عبد اللَّه بن ربعي قال: لما أسلمت بلقيس تزوجها سليمان و أمهرها باعلبك أقول كأنها بعلبك في لبنان.

و في نور الثقلين 4: 92 عن تفسير القمي و كان سليمان (عليه السلام) قد أمر أن يتخذ لها بيتا من قوارير وضعه على الماء- إلى قوله-: فتزوجها سليمان و هي بلقيس بنت الشرح الحميرية ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 219

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى‏ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ‏ 45.

تلخيصة لهذه الدعوة الرسالية ككلّ- مثل سائر الدعاة إلى اللَّه- فى توحيد العبادة للَّه، و «أخاهم» مما يشدد عليهم الحجة أنه كان يعاشرهم طيلة حياته، معروفا لديهم غير منكر، دون أن تسبق منه سابقة سوء و ضلال، فلم يكن غريبا عنهم مجهولا لديهم حتى يشتبه أمره، «فإذا هم» إثر الدعوة «فريقان» بعد وحدتهم فى الضلال «يختصمون» مع بعض تصديقا لصالح و تكذيبا، و الجمع هنا اعتبارا بالجمعين فى فريقين، فرقة مستكبرة كافرة، و أخرى مستضعفة مؤمنة، و من اختصامهم: «قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 220

مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ» (7: 76).

و «لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ» هنا دليل ان آخرين منهم ظلوا ضالين تحت نير المستكبرين، فالمختصمون ضد الرسالة كانوا هم الأكثرية الساحقة، و الاختصام هنا ذو بعدين، اختصا ما لهم مع الفرقة المؤمنة، و آخر مع صاحب الرسالة، مهما كانت فجوته متروكة لآية أخرى لا تذكر هنا ان‏ «ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (29: 29)-:

قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ‏ 46.

فالعاقل اللبيب يستعجل الحسنة دون السيئة، و المتنازل عن عقله كعادة للطائشين يستعجل الحسنة قبل السيئة، خلطا بينهما، و النازل إلى أسفل الدركات يستعجل السيئة قبل الحسنة، فبدلا من الايمان و لو تجربة، يكفر و يجرب العذاب المهلك حتى لا يبقى ظرف لحسنة الإيمان، إذ لا إيمان بعد نزول العذاب، و المؤمن اللبيب يعيش حياة الاستعجال للحنسة ابتعادا عن أية سيئة، مستغفرا ربه عما أساء لعلّه يرحم.

فحتى لو كان الايمان باللَّه ضلالا فهو خير من عذاب اللَّه القاضي على أصل الحياة، فيا لهم ضلالا ما أبعده ان يستعجلوا السيئة: العذاب قبل الحسنة: الايمان الصواب فالثواب، كفرقة أمثالهم من كفار قريش القائلة:

«اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ» (8: 32) و يا للهول من هؤلاء الأوغاد الأنكاد حيث يحملون الجحيم فى أنفسهم نفسها و لمّا يدخلوها!.

قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 221

تُفْتَنُونَ‏ 47.

التطيّر هو التشاءم، و هو من عادات المجاهيل المتّبعين الخرافات الجارفة و الأوهام الخارقة، حين يهم أحدهم بأمر يجهل صالحه من طالحه يلجأ إلى طائر يزجره فان مرّ سانحا عن يمينه استبشر ماضيا فى أمره، و إن مر بارحا عن يساره تشاءم تاركا امرا حيث يتوقع ضره، و ما يدري الطير غيب الخير أو الشر و هو حيوان، فهذا الإنسان هو أحون من الحيوان و أضل سبيلا.

هذا أصل التطيّر، ثم غلب استعماله فى التشاءم، و لأن الخير و الشر راجعان إلى الإنسان بعمله، و أنّ عمله معه لا يفارقه: أن يطير عنه إلى غيره أم إلى الفناء، يسميه القرآن طائرا كما: «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17: 13).

فطائر الإنسان- أيا كان- من خير أو شر، هو معه كما هنا، و هو عند اللَّه كما في آيتنا: «قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» حيث الأعمال راجعة طائرة إلى اللَّه، محفوظة لدى اللَّه حيث يستنسخها اللَّه: «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45: 29) إن خيرا فخير و إن شرا فشر، فكيف‏ «اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ» حين لا تصدر اعمالكم خيرة أو شريرة إلّا منكم‏ «طائِرُكُمْ مَعَكُمْ» و لا يصدر الجزاء الوفاق خيرا أو شرا إلّا من عند اللَّه‏ «طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» فما منا في هذا الميدان سلب و لا إيجاب، اللهم إلّا دلالة إلى الحق المبين بإذن اللَّه! و ليس طائركم معنا على أية حال‏ «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ» بجنّة الأوهام و ظنّه الأحلام، فإن تعليق الخير و الشر بغير العامل نفسه، إفضاء لكل عامل عن استقلالية الأعمال بآثارها، و ذلك أنزل دركا و انذل من المكائن الأتوماتيكية، فإن نتائجها ترجع إليها دون اختيار منها،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 222

و هذا الإنسان الغبيّ يحول خيره و شره بآثارهما إلى غيره و هو مختار «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ»! و تراهم اطيّروا به و بمن معه بمجرد الدعوة دون أمر سواها؟

و من مواد طيرتهم الاختلاف الناشب بينهم اثر الدعوة! و عل منها إصابة الجوع كما يروى‏ «1».

هؤلاء المفتنون الهاربون عن الايمان بالغيب الحق، الناسبين اليه الخرافة الحمقاء، نراهم يؤمنون بالغيب الباطل الموهوم، من تطيّر و سواه من الخرافات الجارفة، فنراهم يعلقون همامة ضخمة على العدد (13) بنحوسته أيا كان، فالبيت المرقم به يكتب عليه 1+ 12، بديلا عن 13، و يعلقون على مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم، و على كثير من الغيب الموهوم الذي لا سند له، مستبدلين الغيب اللامعقول بالغيب المعقول، مبتهجين متبجّهين بما عندهم من الحضارات المادية، و الخرافات الروحية «وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»!.

«بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ» امتحانا بفتنة اللَّه و نعمته، و امتهانا بفتنة الشيطان و نعمته، فاليقظة الدائبة و متابعة السنن و تتبع الحوادث و الشعور بما وراءها من فتنة و بلاء هو الكفيل بتحقيق الخير فى النهاية، لا التطير بخلق اللَّه.

فلا صدفة عمياء فيما يحدث من خير أو شر، و إنما اصابة قاصدة هي من خلفيات الأعمال الفاسدة، «طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» و «طائركم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 93 عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية .. «فإنهم أصابهم جوع شديد قالوا: هذا من شؤمك و شؤم من معك أصابنا هذا القحط، قال طائركم عند الله» يقول: خيركم و شركم من عند اللَّه‏ «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ» يقول: تبتلون بالاختبار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 223

معكم» و لا ثالث يحمل طائرا لكم أو عليكم.

وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ‏ 48.

«تِسْعَةُ رَهْطٍ» من المستكبرين، و المستضعفين الضالين تحت نيرهم، احزاب عدة متراصّة واحدة في أصول الإفساد، تسعة في مختلف محاولاته و شكلياته، و الرهط هو العصابة دون العشرة أم دون الأربعين، فهم العصابات المتعصبة ضد الحق، الصارمة في الإفساد الخالص حيث‏ «يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ» و إن في مجالة أو حالة واحدة، مكرّسين كل طاقاتهم و إمكانياتهم في مختلف حقول الإفساد، عقيديا و خلقيا أمّا هو من الإفساد في النواميس الخمسة، التي هي محطات الإصلاحات الرسالية، و من إفساد هؤلاء التسعة أن:

قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ‏ 49.

«قالوا» في تشاور بينهم على عديد رهطهم، حيث الكفر ملة واحدة مهما اختلفت حقوله و عقوله‏ «تَقاسَمُوا بِاللَّهِ»: تشاركوا في القسم باللَّه، امرا هو حصيلة الشورى اللعينة بينهم، و تكفي «قالوا» أن تكون «تقاسموا» أمرا، و كيف التقاسم التشارك باللَّه و هم مشركون باللَّه؟ لأنهم يؤمنون باللَّه كرب الأرباب مهما أشركوا به سواه، فما التقاسم باللَّه عندهم بأدنى من التقاسم بأرباب سواه، بل و هو أحرى و أقوى! و عجبا من هؤلاء الحماقى الأنكاد يتقاسمون باللَّه ليبيتوا داعي اللَّه، ويكأن الدعوة إلى عبادة اللَّه وحده هتك لساحة اللَّه حتى يقسم باللَّه في قتل الداعية بأهله! و هكذا كان يخيّل إلى جماعة من المشركين أن عبادة اللَّه هتك له‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 224

فليعبد سواه ليقربهم إلى اللَّه زلفى! «لنبيتّنه» و هو قصد العدو ليلا لقتله «و أهله» هم زوجته و ولده و كل من هو تحت عيلولته، «ثُمَّ لَنَقُولَنَّ» بعد تبييته «لوليه» و هو بطبيعة الحال من غير اهله، أو غير الآهلين معه في بيته، و هو ولي دمه‏ «ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ» دون مهلكه و أهله، أ لأن غير الشاهد لمهلك أهله بأحرى ألّا يشهد مهلكه نفسه؟ و لا أولوية في هذا البين، و قد يكون عكس الأمر أولى أننا ما شهدنا مهلكه، فبأولى مهلك أهله، فإنهم معه بطبيعة الحال ليلا! و النص‏ «مَهْلِكَ أَهْلِهِ»!.

ضمير المفرد الغائب في «أهله» الثاني راجع إلى وليه فإنه أقرب مرجعا و أصح معنى، فصالح و أهله هم أهل لوليه، «ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ» أي القتلى الذين هم أهله، و له المطالبة بدمائهم‏ «وَ إِنَّا لَصادِقُونَ» في‏ «ما شَهِدْنا».

ثم «مهلك» قد تعني هنا مثلث المعاني، مصدرا و زمانا و مكانا للهلاك، اجتثاثا لكل بنود الاتهام، فلا خبر لنا إطلاقا عن زمان الهلاك و لا مكانه و لا أصله.

احتيال ساذج غير ناضح يطمئنهم فيما اعتزموه، تخلصا عن صالح و وليه و «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ»:

وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ‏ 50.

«وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» لا مكرهم و لا مكرنا، شعورا بضالة مكرهم، و شعورا بعاقبته في مكرنا، و أين مكر من مكر؟ مكر جاهل قاحل، و مكر عالم كافل، مكر عن عجز تبييت، و مكر عن قدرة في تبييت.

فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ‏ 51.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 225

حيث العاقبة الموافقة للمكر مكر مثله إلّا في دناءته و ضئولته، فقد فاجأهم عذاب اللَّه: «أَنَّا دَمَّرْناهُمْ» و هم تسعة رهط المتقاسمون الماكرون «و قومهم» المشاركين معهم في كفرهم و تكذيبهم بالرسالة «أجمعين».

و كم ذا و حتى متى يخطئ المستكبرون؟ منخدعين بما يملكون من أموال و بنين و نعمة هم كانوا فيها فاكهين، غافلين عن العين الرقيبة عليهم التي لا تنام، و القوة القاهرة فوق كل قوة، حيث تباغتهم جيئة فجيعة تدمرهم عن بكرتهم‏ «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ»!:

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ 52 وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ‏ 53.

«خاوية»: خالية عن كيانها كبيوت، و عن كائنين فيها كأصحاب البيوت، تدميرا لها بأسرها و أسرهم «بما ظلموا» و فروا عن الحق المرام‏ «إِنَّ فِي ذلِكَ» التدمير «لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» ثم في ذلك التدمير الخواء «وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ» منهم، فقد خرجوا بايمانهم و تقواهم عن طغواهم، فخارجون- إذا- عن قومهم الهالكين أجمعين.

[سورة النمل (27): الآيات 54 الى 58]

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (57) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 226

عرض خاطف عن لوط و قومه بدء ختم في معارض الغابرين: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى‏ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً .. وَ لُوطاً إِذْ قالَ ..» فصالح يدعوا في مفتتح دعوته إلى عبادة اللَّه حيث التخلف البارز فيهم كان هو الإشراك باللَّه، و لوط ينهى عن الفاحشة، لأنها كانت هي التخلف البارز فيهم مهما كانوا من المشركين.

فإتيان الرجال شهوة من دون النساء ظاهرة غريبة في تأريخ الشهوات الجنسية، أن يصبح كقاعدة مطردة بين قوم، بدلا عن إتيان النساء المفطور عليه كل من القبيلين، فقد يشذ الإنسان غير الملتزم بالشرعة الإلهية في حالات استثنائية كثكنات الجيش التي ليس فيها نساء، أو السجون الطائلة، أم لأمراض نفسية أو ملابسات أخرى وقتية، فيميل الذكور لإتيان الذكور، و أما ان يشيع ذلك الشذوذ دون أية أسباب أو ملابسات رغم توفر النساء، فهذا هو الحادث الجلل في تأريخ الإنسان، البارز بأبشع صوره في قوم لوط المجرمين.

«.. أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ» العملية المنكرة المتجاوزة عن حدها، متجاوزة عن الشهوة الفطرية المتعودة إلى المتخلفة عنها، المنحرفة المنجرفة إلى هواتها البعيدة المدى، العميقة الردى، و متجاوزة عن التستر المتعود في عمل الجنس مهما كانت حلا، إلى أوساط النوادي جهارا بكل إصرار و دون أي إسرار،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 227

و هذه كلها معنية من هذه «الفاحشة» لأنها المتجاوزة في العصيان المتعود حدّه.

«أَ تَأْتُونَ‏ .. وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» انها فاحشة خلاف الفطرة و خلاف الشرعة الإلهية، «وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» خلفياتها البغيضة الحضيضة خلقيا و جماعيا و إهلاكا للنسل و العائلة «وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» أن أهل نوادي الفاحشة ينظرون إليكم و أنتم تفعلون ما تفعلون‏ «أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ..» (29: 29)؟، و إتيان الفاحشة بمختلف الإبصار هكذا، و بمسرح الأبصار، مما يجعلها أفحش الفواحش النكيرة.

فهنا في اللواط المتعود هكذا بين قوم لوط جنبات عدة من الفاحشة، التجاوز عن النساء إلى الرجال، و التعود في ذلك التجاوز كقاعدة مطردة، و إبرازها في ملإ النوادي، مما يجعله فاحشة منقطعة النظير «ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ» مهما لحقهم من لحقهم من انجلترا و سواها الذين سنّوا حلّها في مجالسهم النيابية! «... بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» أمن الجهل بمدى الفحشاء؟ «وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» تطارد جهلهم! بل هو الجهالة أنهم يأتون الفاحشة و هم مبصرون تجاهلا عنها بنزوة الشهوة الطائشة العمياء، و من جهالتهم الجهلاء الخواء، كخلفية لدعوة صالحة مصلحة من لوط:

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ‏ 56.

و «آل لوط» هنا هم لوط نفسه بالرساليين المؤمنين معه، لا فقط آل النسب أو السبب حيث الأقرب منهم سببا و هي زوجته‏ «قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ» فلم تكن هي من آله فيما «قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ ..» إذ لم تكن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 228

من‏ «أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» إذا فهم الأناس المتطهرون، ف «آل لوط» هنا هم أهل بيت الرسالة الذين يعيشون جوها، أنسباء كانوا و أقرباء أم بعداء و أغرباء.

و لماذا «أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ»؟ ل «إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» تهكما ساخرا بالتطهر من ذلك الرجس البخيس النحيس، فهم يتطلبون جو الحرية الطليقة لهذه الفاحشة المبصرة، دونما أي رادع و لا مانع، فمجرد وجود المتطهرين- و إن لم ينهوا عن هذه العملية- إنه ينغصّ عيشتهم المتخلفة.

و التطهر تكلف في الطهارة، فقد يكون صادقا فليكن، أو قد يكون كاذبا ف «اخرجوا ..» إذ هم كانوا يرونهم يتكلفون الطهارة عن فاحشة اللواط كاذبين، حيث أصبحت لهم أولاء طبيعة ثانية كأنها هي القاعدة في حظوة الجنس، إذا فآل لوط هم أناس يتطهرون، لا يصلحون للمقام بيننا تكديرا لجو الشهوة الرائجة المائجة فينا.

«فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ» لا آله فإنهم أخص- كما بيناه- من أهله، حيث يشمل امرأته دون آله‏ «إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها» على قدر تخلفها عن بيت الرسالة «مِنَ الْغابِرِينَ»: الماكثين بعد مضي ما هو معهم من دعوة الحق و شقوة الباطل، دون ان يهتدوا إلى هداهم، فحقّ عليهم أن يقدّروا «مِنَ الْغابِرِينَ» الماكثين في عواقب اعمالهم، و منها هنا «وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ» و كما أمطروا في حياتهم الجهنمية أمطار السوء و البلاء، فقد بدلوا مياه النطف لإحياء النسل، ذريعة لإماتة النسل و إماطة حق العائلة، و كذلك اللَّه بدل مطر الإحياء إلى مطر الإماتة «فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ»!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 229

[سورة النمل (27): الآيات 59 الى 75]

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلى‏ عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى‏ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63)

أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (64) قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (66) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70) وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (71) قُلْ عَسى‏ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (73)

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ (74) وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (75)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 231

جولة ختامية للسورة بآيات تذكيرية في استجوابات في أغوار النعم و أطوار النقم، فللمؤمنين النعم و للكافرين النقم، مما يتطلب‏ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» أولا و أخيرا، فانها مفتاح كل أمر بعد البسملة و ختامه:

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلى‏ عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى‏ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ‏ 59.

«قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» على العاقبة الصالحة للصالحين و الطالحة للطالحين، فكل‏ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» دون سواه، فانه هو الموفق لهداه على أية حال، و المجازي لمن عاداه على أية حال‏ «قُلِ‏ .. سَلامٌ عَلى‏ عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى‏» و هم كل الدعاة اللَّه على مدار الزمن الرسالي «سلام» عليهم من اللَّه و «سلام» عليهم منك و من معك من المصطفين و الصالحين، و «سلام» من اللَّه عليهم أحياء إذ كانوا يحملون رسالات اللَّه، و «سلام» من اللَّه عليهم أمواتا ليستمروا في الحياة الروحية القمة، ثم «سلام» مني عليهم إذ لا أقول لهم إلّا سلاما و تصديقا، و «سلام» مني إليهم فانني مسلم معهم مقتد بهداهم:

«أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ» (6: 90) فإن هداهم هداي مهما كانت درجات، و خط الهدى واحد مهما كان له مقامات، فليس اقتداء الرسول بهداهم إلّا المشي على خطهم مهما سبقهم، كما اقتداء غير الرسول به و بهم مهما كانوا ادنى منهم، فخط الرسالة الإلهية و هداها واحدة و الطرق إلى اللَّه بعدد أنفاس الخلائق.

إذا «آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ» باللَّه ما لم ينزل به سلطانا، و مقابل الخير هنا- و هو الخير المطلق- ليس إلا الشر المطلق، و حتى إذا كان «خير» صيغة تفضيل فانه تهكم، ام تنازل: أن لو كان ما يشركون فيه خير فهل ان اللَّه اكثر خيرا أمّا يشركون؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 232

أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ‏ 60.

سلهم هل شارك اللَّه سواه في‏ «خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ» من المادة الأم، و خلق المادة الأم لا من شي‏ء، ثم‏ «وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً» و لم يكن في الأرض ماء «فأنبتنا» انتقالة لطيفة حفيفة من الغياب إلى الحضور تدليلا ضمنيا انه هو الذي خلق ما خلق و أنزل ما أنزل و أنبت ما أنبت‏ «حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ» من غابات ام بساتين صناعية فان الإنبات ككل هو من صنيع اللَّه و «ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها» بحولكم و قوتكم، و إنما لكم تهيئة الوسائل و الظروف لنباتها ثم المنبت هو اللَّه، و كما الخالق لكم و لهذه الوسائل و اختيارها و التوسل بها هو اللَّه «ء إله» إذا «مع اللَّه» يشاركه في الخلق و التدبير؟ لا «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ» شركائهم باللَّه «كذب العادلون بالله و ضلوا ضلالا بعيدا و خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً» فيعدلون بالمآل عن اللَّه إلى سواه تأليها له دون اللَّه، ان يعبدونه دون اللَّه، و يستشفعونه دون اللَّه، تنزلا عن توحيده إلى الإشراك به و إلى توحيد غيره، و كأن اللَّه لا دور له في خلق و لا تدبير.

فالفطرة تصرخ، و البداهة العقلية تصرح، و الكائنات تصارح أن لا إله إلّا اللَّه في خلق و لا تدبير، فليعبد هولا سواه، «أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ»!.

انظروا إلى‏ «حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ» حيث تبهج الفطر و العقول و الحواس، و ان تلوين زهرة واحدة من أزهارها يعجز عنه كل رجال الفنون، بل و الحيطة بأسرارها في تموّج ألوانها و تداخل خطوطها و تنظيم وريقاتها، مما تتقاصر و تتضاءل دونه العباقرة في الفيزيولوجية النباتية، فضلا عن الحياة النامية في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 233

النباتات و هو سر الأسرار. فضلا عن حياة الحيوان و الإنسان و الملائكة و الجان‏ «أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ» و هو العدل التسوية باللَّه حين يعني العدل باللَّه، و هو العدول عن اللَّه حين يعدلون عن اللَّه فالعدل باللَّه ما سواه هو ظلم و خلاف العدل و ضلال مبين في كافة الحقول ولدي كل العقول: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (26: 98) و العدول عن اللَّه- ككل- إلى ما سواه، توحيدا له دون اللَّه هو من أظلم الظلم، و هذا هو الملموس في المشركين باللَّه في أحوالهم و أعمالهم أن لا إله إلّا غير اللَّه، إذ لا يحسبون في كل الحياة دورا للَّه، ويكأن اللَّه انخلع عن ربوبيته ككل، محولا لها إلى شركاءه!.

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ‏ 61.

«ام» و بعد خلق الأرض «من‏ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً» و لم تكن قرارا، حيث الجعل هنا مركب يتطلب مفعولين كما هما «الْأَرْضَ قَراراً»: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَ السَّماءَ بِناءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» (40: 64).

و لقد بحثنا حول قرار الأرض في الغافر مشبعا، و انه من القرّ: البرد و الصرد، دون السكون المطلق، فالسكون المطلق في المادة عن أي حراك انعدام عن أصل الكيان، فانما هو سكون نسبي، حيث كانت الأرض حارة ذائبة، فسريعة الحركات بكل شماس، فجعلها اللَّه ذلولا بعد شماس‏ «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا» (67: 15) و قرارا في برد نسبي حسب تعديلها في حرارتها و حركاتها، فقرارا مستقرا لساكنيها، و يا لقرار الأرض من أسرار بالآفات الملابسات و المرافقات، لو اختلت واحدة منها أو كلّت أو قلت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 234

لما كانت الأرض قرارا، و قد تبقى أسرار قرار الأرض مفتوحة للأجيال، كلما اتسع العلم و ارتفع أدركوا طرفا منها طريفا لم يكونوا يدركونه من ذي قبل!.

و من خلفيات قرار الأرض‏ «وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً» فانها قبل قرارها ما كانت تحن لماء و لا كلاء لشماس الحرارة البالغة الذروة، و في الحق أنهار الأرض هي شرايين حياتها بمن عليها، منتشرة إلى أكنانها و مناكبها، ريّا لأطفالها النبات و الحيوان و الإنسان من تلكم الثديّ الدائبة الإرضاع.

كما «وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ» على اثر البرودة فالأمواج المائجة من موادها الثقيلة الداخلية و الخارجية الممتدة في حركاتها المعدّلة الدورانية حسب قانون الفرار عن المركز، و الرواسي هي في الأغلب منابع الأنهار حيث تجري منها مياه الأمطار إلى الوديان و تشق مجراها بسبب تدفّقها من قمم الجبال العالية.

«وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ» حلوا و مالحا «حاجزا» و حجرا محجورا لا يرى:

«مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ. بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ» (55: 19) «1» «... هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ» (35: 12).

«أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ» في هذه الأفاعيل المحيرة العقول؟ لا! «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ» فيتقولون قولتهم المشركة جهلا حالقا قاحلا في تقليد أعمى، ثم و أقلهم و هم المستكبرون يعلمون لكنهم‏ «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» (27: 14).

إلى هنا استجواب في مشاهد الكون المشهودة لكل كائن عاقل أمّن دونه، ثم إلى خاصة الأنفس في كل شارد و وارد:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية في ج 27: 26 الفرقان ففيه تفضيل حاجز البحرين فلا نعيده هنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 235

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ‏ 62.

هنا «المضطر»: الذي هو في ضر أو أصابه ضرّ، ما يضر بحياته الراضية المرضية ماديا و معنويا، دنيويا و أخرويا، فرديا و جماعيا سياسيا أو عقيديا أو ثقافيا أو اقتصاديا أم أيا كان مما يضره من سوء، و الإضرار هنا أعم من التكويني و التشريعي، و ما اختاره هو ام حصل له باضطرار، فانما النص «المضطر» و هو الذي يضطر أيا كان، و لكنه اضطرار سوء لقوله‏ «وَ يَكْشِفُ السُّوءَ».

يجد نفسه في ضر حالق خانق يلمسه، حين تضيق عليه كل الحلقات، و تشتد الحنقات و الخنقات، و تتضاءل كل القوى الظاهرة و تتخاذل، و تهاوى الأسناد و المستندات، فيجد المضطر نفسه منقطعة الصلاة عن كافة الأسباب، حين تكلّ فيكلّ هو في ضره، فيجد نفسه في هوة، دون ناصر و لا قوة إلّا اللَّه و هنا

«فالاضطرار عين الدين» «1»

و الاطمئنان اليقين.

«إِذا دَعاهُ» هو لا سواه، و بطبيعة الحال، و قضية الفطرة يدعوه لا سواه، دعوة في عمق، دون لقلق اللسان، ام تجربة الجنان، و انما دعوة منقطعة عن سواه، متجهة إياه، و كما هو متعلق الكون باللَّه، يصبح متعلق الكيان باللَّه، لا يهوى سواه، و لا يهوي إلى سواه، امّن يجيبه- إذا- إلّا اللَّه، و ليس ليتركه في دعوته الفطرية المنطلقة، المطلقة عن الحواجز، و هو الذي فطره عليها، فلسانها لسان اللَّه حيث فطره اللَّه، و سئوال اللَّه نفسه- طبعا- لا يرد!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير بيان السعادة 3: 177- و اليه أشار الصادق (عليه السلام) بقوله: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 236

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| هم تو بودى اوّل آرنده دعا |  | هم تو باش آخر اجابت را رجا |
| چون حذا از خود سئوال و كدّ كند |  | پس سئوال خويش را كي رد كند |
| هم دعا از تو أجابت هم ز تو |  | ايمنى از تو مهابت هم ز تو |

و هنا كتاب التكوين: الفطرة، و كتاب التشريع الآمر بالدعاء، يتعانقان في ذلك الدعاء و يتجاذبان تعاملا عشيقا رفيقا. فلسان الدعاء للمضطر و سواه هو لسان اللَّه، و طبعا لسان الفعل دون الذات و الصفات، حيث كوّن و دوّن ما يقتضي ذلك الدعاء! فهنا الدعاء المستجاب دون ردّ له ركنان، حالة الاضطرار التام، و انه ضرّ السوء، لا الذي يخيّل إليه ضرا و هو في الحق ليس به‏ «عَسى‏ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسى‏ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» (3: 316) و ليس اللَّه بمجيب دعاء من يدعوا على نفسه تحسبا انه يدعوا خيرا أو زوال شر، و هو في الحق ليس في اضطرار شرّ، فمن اركان الدعوة المستجابة في آياتها أن تكون صالحة للداعي شخصيا أم جماعيا، «إِذا دَعاهُ» دعوة حق و في حق بصادق النية و لائق الطوية و صالح القضية، فالإجابة- إذا- حاضرة عاجلة ام آجلة دونما استثناء.

ف «المضطر» و هو الذي يضطر في حالة سوء، تستغرق كل مضطر دون إبقاء. فالدعوات غير المستجابة إنما تنقص من أركانها، سوء، أو اضطرارا، ام دعاء خالصا «وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ» (40: 60) «وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ». (3: 186) «إِذا دَعانِ» هنا و «إِذا دَعاهُ» في آية المضطر، تشملان دعاء القال و الحال و الأفعال، دون دعاء الذات، فكل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 237

الذوات هي متعلقة الكون و الكيان باللَّه، شعرت أصحابها أم لم تشعر، أرادت أم لم ترد، اعتقدت أم لم تعتقد، فهي إذا دائبة الدعاء ذاتيا و «إذا» هي دعاء أحياني باختيار.

و المهم في مثلث الدعاء هو دعاء الحال علما و اعتقادا، ثم الدعاء بالأعمال التي تبرز ان صاحبها يدعو اللَّه، ثم بالقال، كإذاعة عن الحال و الأعمال، فالداعي بقاله دون حاله و أعماله خاو في دعاءه مستهزء، و الداعي بقاله و أعماله دون حاله منافق، و الداعي بحاله دون اعماله قليل الايمان، و التارك لذلك المثلث كله لا ايمان له، و الجامع بين الثلاثة هو كامل الايمان، و التارك قاله زائدا في حاله و اعماله هو أحيانا في قمة الدعاء، و لكن الضابطة العامة في الدعاء ضم القال إلى الأفعال و الأحوال ليصبح الداعي كله دعاء دون إبقاء، و المضطر بطبيعة الحال يدعو بحاله، ام و بأفعاله و قاله، و لكنه قد لا يستجاب لأنه خاطئ في ضره، فكم من مضطر في غير سوء و هو يحسبه سوء، يدعو فلا يستجاب رحمة عليه، و كم من سيّ‏ء الحال في واقع الحال و لكنه ليس في حالة الاضطرار إذ يحسبه حسنا فلا يدعو فهل يستجاب دون دعوة؟ و كم من مضطر في أسوإ الحال و لكنه لا يدعوا اللَّه دعوة صالحة و خالصة فلا يستجاب حيث ينقص‏ «إِذا دَعاهُ» و اما الداعي ربه مضطرا في سوء، دعوة صالحة خالصة، منقطعة الصلة عما سوى اللَّه، مطمئنا إليه لا سواه، راجيا إياه، فهو المستجاب كما وعد اللَّه: «يجيب المضطر- و يكشف السوء- و يجعلكم خلفاء الأرض» إجابة عن حالة الاضطرار، و كشفا للسوء الذي اضطره فرديا، بل و جماعيا حيث‏ «يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ» قضاء على ضر الحكم و السلطة غير الصالحة عن بكرتها، فلا تعني خلافة الأرض هنا ما قد تعنيه‏ «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ» (6: 165) و هي خلافة السكن الحيوية بعد الذين ضلوا، فانها حاصلة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 238

للمضطر في سوء أيا كان، فالدعوة لها و الاستجابة فيها تحصيلة للحاصل، بل هي الخلافة عن السلطات الجبارة المكدّرة جو الحياة السليمة الإسلامية، الحانقة الخانقة جو الاضطرار بسوئها و التقية، الدافعة إلى سنة الاستتار و الخفية.

فالإمام المنتظر المهدي عجل اللَّه تعالى فرجه الشريف هو من أفضل المضطرين في سوء يجيبه اللَّه بدعائه و دعاء المنتظرين قدومه، آجلا أم عاجلا و كما يراه اللَّه و يرضاه، شرط أن يكون دعاء المضطرين سواه، كاملة الدعائم، شاهرة المعالم، مزودة بالجهاد الدائب، و الصبر الصائب، اللهم عجل فرجه و سهل مخرجه و اجعلنا من أعوانه و أنصاره، آمين يا مجيب دعوة المضطرين! هنا «يجعلكم» تحلّق على كل خلافة أرضية صالحة، جانبية نسبية غير شاملة كما حصلت أيا ما أو تحصل على ضوء الدعوات الصالحة و الجهادات المتواصلة، أم شاملة محلقة على كافة السلطات الأرضية كما في دولة القائم (عج) المظفرة العالمية فهو- إذا- خليفة اللَّه في الأرض كلها، دون خلافة أخرى فيها إلّا لأصحاب ألويته الذين يديرون أمور السلطة الإسلامية في مشارق الأرض و مغاربها، فهؤلاء الأكارم مع صاحب الأمر هم أصدق المصاديق للمعنيين ب «وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ» جمعا بين الجعلين التكويني و التشريعي، و كما سبق في داود و سليمان فلا «المضطر» هنا يختص بالمشركين! ام فرقة خاصة من المضطرين المسلمين!، و لا أن خلافة الأرض هي الحياة الخلفية لكل قوم عن آخرين، مهما كان الإمام المنتظر المهدي من آل محمد صلوات اللَّه عليهم أجمعين، بمن معه من المضطرين الصالحين، هم أصدق المضطرين الداعين، و أصلح خلفاء الأرض‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 94 عن تفسير القمي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: نزلت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 239

و هذه الخلافة المرموقة هي التي تشعر المسئولية الهامة لحدّ ينتفض منها أوّل الخلفاء و أعد لهم بعد الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حين‏

يقرء رسول اللَّه‏ «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ‏ .. وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ» فانتفض علي (عليه السلام) انتفاض العصفور، فقال له النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ما شأنك تجزع؟ فقال: و مالي لا أجزع و اللَّه يقول انه يجعلنا خلفاء الأرض؟! فقال له النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): لا تجزع و اللَّه لا يحبك إلّا مؤمن و لا يبغضك إلّا منافق» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

في القائم من آل محمد عليهم السلام هو و اللَّه المضطر إذا صلى في المقام ركعتين و دعا إلى اللَّه عز و جل فأجابه و يكشف السوء و يجعله خليفة في الأرض‏

و

فيه حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي خالد الكابلي قال قال ابو جعفر (عليه السلام): و اللَّه لكأني انظر إلى القائم (عليه السلام) و قد أسند ظهره إلى الحجر ثم ينشد اللَّه حقه- الى ان قال-: هو و اللَّه المضطر في كتاب اللَّه في قوله: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ ..» فيكون أوّل من يبايعه جبرئيل (عليه السلام) ثم الثلاثمائة و الثلاثة عشر رجلا فمن كان ابتلي بالمسير وافى و من لم يبتل بالمسير فقد عن فراشه و هو قول امير المؤمنين (عليه السلام): هم المفقودون عن فرشهم و ذلك قول اللَّه: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً» قال: الخيرات الولاية.

(1).

المصدر 95 عن امالي الطوسي باسناده الى عمران بن الحصين قال: كنت انا و عمر بن الخطاب جالسين عند النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و علي جالس إلى جنبه إذ قرء رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): «أَمَّنْ يُجِيبُ ...» و مثله محمد بن عباس عن عمران عنه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و المفيد في الأمالي عنه و انس بن مالك قال‏ لما نزلت الآيات الخمس في طس «امّن جعل الأرض قرارا الآيات انتفض علي انتفاض العصفور فقال له رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) مالك يا علي! قال:

عجب يا رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) من كفرهم و حلم اللَّه عنهم فمسحه رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) بيده ثم قال: أبشر فانه لا يبغضك مؤمن و لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 240

هذا، و أما ما يروى عن رسول الهدي من واجب الطاعة لأية خلافة خيّرة و شريرة، يطارده فرض مطاردة السلطة الجائرة و دفع الفساد أيا كان، و لا سيما الخلافة الفاسدة المفسدة التي تظلم الجو على الشعوب، فما الرواية إلّا مختلقة مصلحية الحفاظ على كيان الخلفاء المتخلفين عن شرعة اللَّه، المستضعفين عباد اللَّه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يحبك منافق و لو لا أنت لم يعرف حزب اللَّه‏ (غاية المرام 402).

أقول: هذه التلحيقة انما طمأنت الامام (عليه السلام) حيث ضمنت عدله في الحكم لحد

«لا يبغضك مؤمن و لا يحبك منافق»

فان الحاكم غير العادل يبغضه المؤمن و يحبه المنافق.

(1).

الدر المنثور 5: 113 اخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من فارق الجماعة فهو في النار على وجهه لأن اللَّه تعالى يقول:

«.. وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ» فالخلافة من اللَّه عز و جل فان كان خيرا فهو يذهب به و ان كان شرا فهو يؤخذ به عليك أنت بالطاعة فيما امر اللَّه تعالى به.

أقول: مفارقة الجماعة المؤيدة لخلافة الزور واجبة في شرعة الحق التي تطارد هذه الخلافة، فمن فارقها نقضا لهذه الخلافة و تركا لتأييدها فهو في الجنة، و من وافقها و قارفها فهو في النار و اما ان الخلافة خيرا و شرا هي من اللَّه، فمن الناحية التكوينية صحيح و لكنها لا توجب الطاعة و ليس شرها تشريعيا من اللَّه حتى يرضاها اللَّه و يأمر بطاعتها، ثم و ماذا يعني «فهو يذهب به إذا كان خيرا؟ فهل ان اللَّه يذهب بالخلافة الخيرة و يأتي بديلها بالشريرة؟ ثم ماذا يعني: «و ان كان شرا يؤخذ به» فهلا يؤخذ بخير الخلافة كما اللَّه يذهب بها، ثم يؤخذ بشر الخلافة لأن اللَّه يأتي بها، فما افضحها اختلاقا في مطاردة الخلافة الحقة الإلهية، و ما أقبحها افتراء على رسول الهدى (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)! و ان كان قد يعني «فهو يذهب به» ان خير الخلافة لصاحبه، و «يؤخذ به» يعني ان شر الخلافة لصاحبه، فما عليكم إلا الاتباع في كلتا الخلافتين و لكن الخلافة بشرها و خيرها تعم الخليفة و الرعية، فهم مستفيدون من خيرها و يضرهم شرها، و هو يؤخذون- كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 241

و كيف يستند إلى آية الخلافة الكاشفة السوء بدعاء المضطرين، في فرض الطاعة للخلافة الخلاعة السوء، التي هي سوء على سوء للمضطرين؟! كلا! و إنها دعوة خير استئصالا لضر و شر و كما

يروى عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قوله‏ حين يسأل يا رسول اللَّه الام ندعو؟ قال: أدعو لي اللَّه وحده الذي إن نزل بك ضر فدعوته كشف عنك، و الذي إن ضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك، و الذي إن أصابك سنة فدعوته أنزل لك» «1».

و هذه مصاديق متعودة فردية للضر و الشر، ثم أضر منها و أقفر ما المضطرون إلى كشفه عنهم أفقر و هو السلطة الصالحة في خلافة الأرض، و قمتها العالية المنتظرة لكافة المستضعفين المؤمنين الخلافة المهدوية العالمية عليه كل سلام و تحية، ف «يجعلكم» هنا ليست لتعني فقط الجعل التشريعي دون تكوين و لا التكويني دون تشريع، لأن كلّا دون الآخر لا يكشف به السوء الجماهيري المترقب من الخلافة الصالحة، فانما واقع الخلافة الشرعية هو الذي يكشف به ذلك السوء، و للمخاطبين في «يجعلكم» درجات حسب القابليات و الفاعليات ثم و «يجعلكم» هذا هو نتيجة أدعية المضطرين بمن فيهم المستأهل لهذه الخلافة، دعوات مقرونة بمحاولات صالحة لاجتثاث الخلافة عن الطالحين و اختصاصها بالصالحين بمراتبهم و درجاتها.

فاللَّه هو المجيب المضطر إذا دعاه و يكشف السوء، و بالمآل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

هو- بشرها لماذا استسلموا له دون معارضة ممكنة؟.

(1). المصدر اخرج احمد و ابو داود و الطبراني عن رجل من بلجم قال قلت يا رسول اللَّه إلى م ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 242

«يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ» دون سواه ف «الله الذي‏ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ... جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً ..» هو الذي يجيبكم حال اضطراركم .. «وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ ..» ففي الخلافة الأخيرة «تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ» حيث الحياة جديدة جادّة نحو الحق، و ينزل عليكم من سماء الوحي و الرحمة غزيرة ناصعة تروي العطاش، و ينبت حدائق بهيجة في حقول المعرفة الربانية، لكم فيها من كل الثمرات، و يجعل الأرض المتأرجفة بمفسديها قرارا بذلك المصلح الكبير، و يجعل خلالها أنهارا تروّي العالمين من المعرفة برب العالمين، و يجعل فيها رواسي هي أصحاب الألوية الثلاثة عشر رجلا من أصحابه الخصوص، أعضاء الدولة العالمية، و يجعل بين بحري المالح و العذب حاجزا فلا خلط- إذا- بين الحق و الباطل ....

«أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ»!.

فما دامت السلطات الجائرة مسيطرة على الشعوب فهم مضطرون، و عليهم الدعاء الدائب بشروطاته الصالحة ليجعل اللَّه لهم بالمآل خلافة الأرض صالحة مصلحة محلّقة على العالمين أجمعين و كما وعد اللَّه هنا و «الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» و «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى‏ لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ» (24: 55).

و لعمر إلهي الحق ان المضطر بالحق زمن الغيبة هو الامام المنتظر حيث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 243

يرى المستضعفين تحت أنيار الظلم و الضغط من المستكبرين الذين لا يدينون دين الحق.

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ‏ 63.

«أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ» هدي الحياة الدنيوية و الروحية «فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ» ظاهرية أو باطنية «وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» روحانية برياح الوحي و سواها بسائر الرياح‏ «أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ» يهديكم فى أي هدي‏ «تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» به في حقول الهدى.

و هنا «ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ» تعني فيما عنت باطن البر و خضمّ البحر غورا و غوصا فيها، و «يهديكم» تشمل كل الوسائل المستقبلة لخوض الأعماق في البر و البحر.

أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏ 64.

استجوابات خمس تتجاوب أخراها و أولاها، فهناك «أمن خلق ..»

و هنا «أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» و يبدأ الخلق قد يعم خلق المادة الأولية لا من شي‏ء، ثم خلق دخان السماء و زبد الأرض، ثم سائر الخلق و منه الإنسان، و «ثم يعيده» تخص الإعادة إلى الحالة الأولى فيما سوى الأولى لأنها لا شي‏ء و لا إعادة لشي‏ء إلى اللاشي‏ء! و الاعادة إلى البدء عملية مكرورة على طول الخط في الجماد و النبات و الحيوان و الإنسان يوم الدنيا، أ فيعجز المبدء عن الإعادة فى الأخرى و هي أحرى قضية العدل الحساب ثم الثواب و العقاب، و ليس شي‏ء من الإعادة المعنية هنا و هناك إعادة للمعدوم حتى تدخل في نطاق تفلسف الاستحالة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 244

و انما هي إعادة مواد الأشياء إلى أمثال صورها السابقة البادءة، و منها إعادة اجزاء الإنسان إلى مثل ما كان في الصورة، فالمعاد في المعاد ليس بإيجاد عن لا شي‏ء و لا اعادة المعدوم، بل هو ذرات البدن الأصيلة حيث تعاد إلى مثل الصورة الأولى، و هو الروح حيث يعاد إلى نفس البدن الممثل كالأوّل فأين هنا إعادة المعدوم؟

«قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ» في هذه الحلقات الخمس، ابطالا لما أثبتت‏ «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» في تكذيبكم، و أنّى لهم برهان، و أنى لهم أن يعلموا هذه الحقائق المعلومة لدى ذوي العقول، بل هم في جهالتهم طائشون، جهلا عن تقصير، و هم يطالبون الغيب و أنّى يبعثون! قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ‏ 65.

هذه آيات اختصاصه تعالى بعلم الغيب، بعد ما خصت به الآيات السالفة غيب القدرة، و هل اللَّه هو ممن في السماوات و الأرض حتى يستثنى عنهم بعلم الغيب؟ قد يكون الاستثناء متصلا، و اللَّه قدرته النافذة و علمه النافذة «فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» دون ذاته لأنه خلقهما و «كان إذ لا كان»! كما «هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ» اي ألوهيته نافذة فيها، لا ذاته سبحانه!.

أم هو منفصل تأكيدا لاستئصال علم الغيب عما سوى اللَّه ككل، و اللَّه هو الذي يعلم الغيب، و طبعا هو الغيب المطلق الذي ليس لينقلب إلى شهود، لا مطلق الغيب و منه ما يعلّمه اللَّه من ارتضاه: «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ ..» (72: 26).

و نموذجا بارزا للغيب المطلق وقت الساعة «وَ ما يَشْعُرُونَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 245

كل ما سوى اللَّه عابدين و معبودين‏ «أَيَّانَ يُبْعَثُونَ»، و ذلك نفي للعلم عنهم في أدنى مراحله و أغمضها و هو الشعور، و هو من العلم الذي يستحيل لمن سوى اللَّه و كما يقول اللَّه عن رسول اللَّه‏ «وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ ..» (7: 188).

و كما

سئل علي (عليه السلام): لقد أعطيت يا أمير المؤمنين (عليه السلام) علم الغيب؟ فضحك و قال: ليس هو بعلم غيب، و انما هو تعلم من ذي علم، و انما علم الغيب علم الساعة و ما عدده اللَّه سبحانه بقوله‏ «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» (31: 34)- فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى، و قبيح أو جميل، و سخي أو بخيل، و شقي أو سعيد، و من يكون للنار حطبا، أو في الجنان للنبيين مرافقا، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه إلا اللَّه، و ما سوى ذلك- يعني به المعدود في آية الساعة- فعلم علمه اللَّه نبيّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فعلمنيه و دعا لي أن يعيه صدري و تضطم عليه جوارحي» «1».

فلقد منح اللَّه الإنسان طاقات يستكشف بها الخب‏ء في السماوات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 95 عن نهج البلاغة كلام يؤمي به (عليه السلام) الى وصف الأتراك: كأني أراهم قوما كأن وجوههم المجان المطرقة يلبسون السرق و الديباج و يعتقبون الخيل العتاق و يكون هناك استمرار قتل حتى يمشي المجروح على المقتول و يكون المفلت اقل من المأسور فقال له بعض أصحابه لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب؟

فضحك ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 246

و الأرض، على قدر حاجته روحيا و ماديا، و انكشاف سرّ الغيب- المخصوص علمه باللَّه، أو الممكن تعليمه لمن سواه- ليس مما يبغيه في مهمة الحياة، إلّا الوحي الرسالي الذي يدار به حياته في مدار الحق، إبعادا له عن الأخطاء، و أمّا ان يتطلع إلى كل أسرار الغيب كما اللَّه فمستحيل ذلك على كل من سوى اللَّه حيث يصبح كأنه اللَّه، أو يتطلع إلى أسرار ليست من هامة الحياة، مهما أمكن تطلعه عليها بتعليم اللَّه، إذ لا دافع فيه، و كان فيه ارتفاع الابتلاء في الحياة أن يعلم كل ما في قلب الآخر، أو كان فيه تعطيل الاستعدادات عن التحرك نحو الكمال.

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ‏ 66.

إنهم مبلغهم من العلم في الأولى هو العلم الأعمى، المنحصر فيها، المنحسر عن الأخرى: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا. ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ..» (53: 30)، فشكهم فيها و عماهم منها امتناع للعلم باختيار، فقد صرفوا كل علمهم في الأولى فلم يبق لهم علم بالأخرى‏ «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ» تداركا لما فوّتوه على أنفسهم في الأولى، للأخرى، ولات حين مناص و قد فات يوم خلاص! و لأن «ادّارك» هي من باب الافعلّال، مبالغة في التدارك و الدرك، فقد تعني كمال الدرك و التدارك بعد نقص قصورا و تقصيرا.

و تدارك علمهم، المقصرون فيه أو القاصرون، يشمل علم الساعة حيث يتدارك عند الساعة بواقعها، فالمؤمن بالساعة يعلمها علم الايمان دون متاها، فيتدارك علمه بها بواقعها، ثم و العلم بواقع اعمالهم السيئة التي كانوا يرونها حسنة: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 247

حَدِيدٌ» و العلم ان اللَّه هو الحق المبين، و سائر ما بالإمكان ان يعلموه ثم للمؤمن يضم إلى علم اليقين عين اليقين حيث يعاين حقايق الأعمال بعد إيمانه بها.

إذا فالآخرة هي مجالة العلم، الميسور لغير اللَّه، ما قصروا عنه ام قصّروا فيه، و اما السابقون و المقربون فلا تدارك لعلمهم إلا مزيد المعرفة الربانية بما قدموه إلى الأخرى، و ما هم فاعلون فيها، و سائر العلم فهم حاصلون عليه يوم الدنيا كما

يروى عن الامام علي (عليه السلام) قوله: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا».

ثم «علمهم» قد تعني علم كل مكلف على قدره حيث يتدارك تتميما و تطميما، إلّا العلم غير الممكن تداركه كالعلم باللَّه، و «هم» هنا لا تختص بالكافرين.

و ترى كيف «علمهم» و هم يجهلون المبدء و المعاد، فليختص بالمؤمنين؟ و لكن يطارده‏ «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ».

«علمهم» في الناكرين هو الفطري و العقلي و العلمي من سواهما، فقد يتجاهلونه فيجهلون، فيتدارك علمهم المغطى في الآخرة «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها» هنا في تغافل علمهم‏ «بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ» هنا و هو أنزل من الشك، فكل ذلك الثالوث يتدارك في الآخرة.

ثم «علمهم» في وجه أشمل يشمل كل علم ناقص قصورا أو تقصيرا، و لكن «بل هم ..» ليس اضرابا إلّا عن علم الناكرين.

ثم و ليست العمى هنا هي فقد الجارحة المبصرة، بل هي فقد الجانحة البصيرة، تعاميا عن الحق المبين، و الذهاب على رسل صفحا عن النظر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 248

الموصل إلى اليقين، إما قصدا و تعمدا، أو تساهلا و تجاهلا، ثم‏ «ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ» إذ

«علموا ما جهلوا في الدنيا» «1».

و كيف «منها عمون» دون «عنها»؟ حيث القصد شكهم فيها، و الامتراء في صحتها، فهم في عمى منها، إذ لا يعني- فقط- عماهم عن النظر إليها، بل القصد ذكر عماهم بالشك فيها:

فقد عموا شاكين عن النظر فيها حتى عموا منها، و هذا إضراب ثالث عن حالتهم الرديئة و جاه الآخرة فهم على علم مّا تجاهلوا فيه: «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ» و عنه إلى شك‏ «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها» و منه إلى نكران‏ «بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ» تنزلا عن قضية العلم بها إلى نكرانها! و قد تعني «من» السببية فان عماهم عنها- دون الأولى- مسببة منها، فانها دار حساب فثواب او عقاب، و هم يبتغون زهرة الأولى و زهوتها، و الايمان بالآخرة و الإبصار إليها يصدهم عما يهوون، فهم- إذا- «منها» فقط، لا الدنيا «عمون» و هكذا يصف الدنيا مطلّقها

الامام امير المؤمنين (عليه السلام) قائلا: «من ابصر بها بصرته و من ابصر إليها عمته»!

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ 67 لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ‏ 68.

و كيف يتحول التراب إنسانا كما كان؟ و قد تحول لأوّل مرة «أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» (50: 15) «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) بل هم أحون من الحيوان و أضل سبيلا! و هي كأنهم يحيلون تحوّل التراب إنسانا للمرة الآخرة، و هم يرون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 96 في تفسير القمي في الآية قال قال ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 249

مختلف التحولات الغامضة مدى الحياة، فمن اين كانت الخلايا التي كوّنت منها هياكلهم الأولى، فقد كانت مفرّقة في أطواء الأرض و أجواء الفضاء و أجواز البحر، و منها ما انبعث من جسد رمّ ... ثم تمثلت ما تمثلت هذه الخلايا في مختلف الطعام و الشراب و الهواء و الشعاع، ثم تجمعت هيكلا إنسانيا ينمو من بويضة عالقة في رحم حتى يطلع إنسانا فإذا هو خصيم مبين: «أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ» (36: 77)! و كيف أصبح الوعد بالبعث من أساطير الأولين و خرافاتهم المودوعة في مسطوراتهم، المتنقلة فيما بينهم خلفا عن سلف، و هو حقيقة تصدقها الفطرة و العقل و الحس، و يفرضها العدل؟! قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ 69 وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ‏ 70.

و ذلك السير المأمور به نبهة للغافلين يعم السير التاريخي الجغرافي، و الجغرافي التأريخي، سيرا حثيثا مسيسا في كتاب التكوين آفاقيا و أنفسيا، أم تدوينيا، و أفضل السير فيه و أكمله دونما دجل و لا دخل أو دغل نجده في أكمل نسخة تدوينية عن نسخة التكوين و هو القرآن العظيم‏ «1» حيث يسير بنا إلى مسرح الحياة الغابرة للأرض و من عليها، تبصرة و ذكرى للذاكرين.

و ليس السير في القرآن للمشركين حملا لهم على تقليد دون برهان حيث القرآن هو بنفسه قاطع البرهان على صدقه نفسه و انه كلام اللَّه، فصدق أنباءه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 96 في كتاب الخصال‏ و سئل الصادق (عليه السلام) عن قول اللَّه تعالى: «أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» قال: معناه: أ و لم ينظروا في القرآن؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 250

الغيبية تصديقا عن تحقيق، و الكون بكل جنباته حسيا و عقليا و علميا و فطريا و فكريا يجاوب نسخته التدوينية: القرآن العظيم.

«قُلْ سِيرُوا .. فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ»: القاطعين ثمرات الحياة قبل إيناعها و نضجها، الجاعلين لطاقاتها- و جنى الثمرات غير الناضجة فيها- هباء منثورا، فأصبحوا خواء بالعراء «فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» إلّا باغية داثرة غامرة، ضامرة هامرة.

و إذا هم لا يرحمون أنفسهم و لا يرعوون‏ «لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» لماذا أجرموا و فنوا «وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ» إذ «ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ» (6: 123) فلا تضيق- إذا- إلّا أنفسهم بما يمكرون.

و إذا كانت عاقبة الإجرام هنا- و ليست هي دار الجزاء- هكذا، فباحرى العاقبة الأخرى و هي دار الجزاء الأوفى، فقد تلمح عاقبة العاجل لكونها أحرى و أتم في الآجل!.

و هنا نلمس حساسية مرهفة لذلك القلب الكبير الكبير كيف كان يحزن على مسير قومه الناكرين و مصيرهم كالسابقين، و هم الماكرون به و المؤلّبون عليه، ثم اللَّه يطمئنه عن مكرهم و يخلصه عن الحزن عليهم، ليداوم في دعوته الصالحة دونما فشل و لا عطل.

وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏ 71.

ويكأن صدق الوعد لزامه العلم بمتاه و مداه، فهل إنّ جهلهم بمتى الولادة و الوفاة لأنفسهم يحملهم هذا على نكران الولائد من ذي قبل و وفاتهم لوقت مّا؟ فكيف اختص التصديق ب «هذَا الْوَعْدُ» دون سواه، بموقف العلم بمتاه، فلولاه فكذب هو من أساطير الأوّلين!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 251

قُلْ عَسى‏ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ 72 وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ‏ 73.

و إذا أنتم تستعجلون‏ «هذَا الْوَعْدُ» العذاب بكامله، ف «قل» لهؤلاء الحماقى الأنكاد «عَسى‏ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ» و قرب منكم «بعض» الوعد «الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ» فهو- عساه- في آثاركم لاحقا بكم دون إهمال و لا إمهال.

و طالما عذاب الناكر لهذا الوعد ردفه و هو معه لا يفارقه فانه عمله اللازم معه في عنقه، و لكنه لا يردف له يوم الدنيا تأجيلا إلى الآجل في الأخرى.

و علّ اللام في «لكم» كما تختص ذلك العذاب بهم دون سواهم من المستحقين، كذلك سخرية بهم كأنه لصالحهم و هم يتطلبون حاضر و عدهم، «عَسى‏ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ» لصالحكم‏ «بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ» رغم انه عليكم و ليس لكم! ف «ردفكم» لا يخصهم في واقع العذاب الذي هو معهم، و «ردف عليكم» لا يحمل ذلك الهزء بهم، إذا «رَدِفَ لَكُمْ ..».

«وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ» حيث لا يستعجل لهم عذابهم في الأولى‏ «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ» ذلك التأجيل، عقيديا كما الناكرون، أو عمليا كما العاصون، ايغالا في المعاصي، و ادغالا في المآسي!: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» فخيرات كل نفس و شرورها هي ردفها هنا و ردف لها هناك، اللّهم إلّا «بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ» فقد يردف لهم هنا عذاب الاستئصال كيوم بدر قتلا لهم، و سواه صيّبا من السماء أو الأرض، و هو بعض الذي به يستعجلون، ثم عذابهم يوم الرجعة إذ يرجع من محضّ الكفر محضا كمن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 252

محّض الإيمان محضا، ثم كامل العذاب يوم البرزخ، و إلى أكمله في الأخرى، و «عسى» هي بأحرى للأوّل، دون الثلاثة الأخرى فانها محتومة.

و كيف‏ «عَسى‏ أَنْ يَكُونَ ..» و اللَّه لا يرتجى شكا و ممن يترجّى؟

«قل» هنا يحول ترجي «عسى» إلى ساحة الرسالة، أنه يرجوا ردفه لهم هنا بما يتطلبون و يستحقون، و العلم عند اللَّه، فالموقف الرسالي في هذه المقالة هو موقف الرجاء، و ليس اللَّه ليترجّى!.

ثم من واجهة أخرى قد تعني «عسى» هنا تنازلا أمام المشركين الناكرين الوعد و تحقيقه بحق الكافرين، حيث الرسول موقن انهم سوف يعذبون بعد الموت، و لكنه غير موقن بعذاب قبل الموت إلّا ان يعده ربه.

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ 74 وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ‏ 75.

علّهم خيل إليهم ان اللَّه لا يعلم ما تكنه صدورهم، إظهارا لخلاف المكنون فيها، فلا يعجل لهم العذاب ردفا لهم لوعده قبل الآخرة، إذ لا يعلم أسرارهم، و لكنه إمهال و إملال عن علم، فضلا لمن يتنبه امتحانا، و تأجيلا لسواه امتهانا، و أن الآخرة هي دار الجزاء «وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ» فضلا عما يعلنون‏ «وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ ..».

و ليس فحسب‏ «لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ» أولاء، بل‏ «وَ ما مِنْ غائِبَةٍ .. إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ» و هو العلم المكنون لدى اللَّه.

و علّ «غائبة» هي المبالغة بتائها كالبصيرة و العلامة، فأغيب الغيب في الكون كله هو «فِي كِتابٍ مُبِينٍ» علما و قدرة، فضلا عن سائر الغيب، ام‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 253

هي صفة ل «أشياء- امور- حالات- طويات» أما هيه من صالحة لهذه الصفة، و علّ المبالغة أولى و هي تشملها بالأولى، ام لكليهما مبالغة و تأنيثا.

و قد تعني «مبين» انه تعالى يبين كل غائبة لمن ارتضاه‏ «1»، إلّا ما اختص اللَّه بعلمه.

[سورة النمل (27): الآيات 76 الى 93]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى‏ وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80)

وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81) وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (82) وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (85)

أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (87) وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (88) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90)

إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَ لَهُ كُلُّ شَيْ‏ءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى‏ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 96 عن اصول الكافي عن أبي الحسن الأوّل (عليه السلام) انه قال: و قد أورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسير به الجبال و تقطع به البلدان و به يحيى الموتى و نحن نعرف الماء تحت الهواء و ان في الكتاب لآيات ما يراد بها امر إلا أن يأذن اللَّه به ما قد يأذن مما كتبه الماضون جعله اللَّه لنا في ام الكتاب ان اللَّه يقول: وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ» ثم قال: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا» فنحن الذين اصطفانا اللَّه عز و جل، و أورثنا هذا الكتاب فيه تبيان كل شي‏ء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 255

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ‏ 76.

«وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (16: 64).

«إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ» دون سواه من قرائين الوحي السابقة عليه «يقص» قصا من الأنباء المذكورة في كتب الوحي الإسرائيلية «عَلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ» و هم المحور الأصيل في شرعتهم مهما كانت تعم كافة المكلفين‏ «أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» و ذلك الأكثر هو بطبيعة الحال يحمل أهم الخلافات في أصول الشرعة و فروعها و ما تحمل كتاباتها من قصص النبيين و سواهم، ثم الأقل الذي هم فيه يختلفون قد يلوح من طيات الأكثر.

و «الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» يشمل كافة الاختلافات الإسرائيلية التي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 256

تخلّفها اختلاقاتهم و تحريفاتهم كتابات الوحي التوراتي عن جهات أشراعها طول الزمن ما داموا هم موجودين لمكان «يختلفون» الدالة على الاستمرارية في بشارات بحق هذا الرسول الإسماعيلي لأنه ليس من إسرائيل، و قصص رسالية، و أحكام كتابية أمّا هيه، كما هي بينة في سرد القصص القرآنية عن افتعالاتهم في مختلف حقولها.

و ذلك القص الساحق هو قضية الهيمنة القرآنية على كتابات الوحي السالفة، و ليدل أهل الكتاب على مدى ضلالهم، دفعا لهم إلى الهدى القرآنية الصادقة، كما:

وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ‏ 77.

منهم و من سواهم ممن يقرع آذانهم صارم الوحي القرآني السامي، «هدى» تقيهم من خلافاتهم العارمة، توحيدا للنهج و توصيلا إلى المبلج، و ذلك الاهتداء بهدي القرآن هو قضية الايمان بقضيته، و المنهج القرآني هو الوحيد المنقطع النظير في استعادة النفوس عن ورطاتها، و تركيبها وفق الفطرة الساذجة و العقلية الناضجة دون تكلّف و لا تخلّف عن السنن الكونية، تجاوبا رائعا بين كتابي التكوين و التدوين.

و المصدران يشيان لمحتد القرآن انه مصدر الهداية و الرحمة، فانه خالصهما دون شوب، و كأن هو الهدى و الرحمة!.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ‏ 78.

«إن ربك» الذي رباك بهذه التربية القمة القرآنية «يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ» هنا في القرآن قضاء صارما يفصل بينهم بالحق، و هنا يوم الجزاء قضاء عمليا جزاء وفاقا «وَ هُوَ الْعَزِيزُ» تغلبا على المتخلفين المختلفين «الحكيم» في عزته بقضائه و حكمه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 257

ثم و بعد ما أوحي إليك يا رسول الهدى هذا الكتاب المهيمن في هداه دون نقص و لا ركس:

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ‏ 79.

إنه ليس التوكل على اللَّه اتكالية دون سعي، و إنما هو زاد الطريق الشاق الطويل الملي‏ء بالأشواك و الدماء و الأشلاء، بعد التزود بكل الطاقات و الإمكانيات المحوّلة و المخوّلة، فقد خوّل إلى الرسول ذلك الحق المبين، و حول اليه تحقيق هذا الحق المتين، إذا «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» في تحقيق هذه الرسالة الشاقة «إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ» المطلق «المبين» لكل حق و كما يبين‏ «أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

و هذه تسلية لخاطر الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) الجريح القريح، و تأسية على جموع المشركين و الكتابيين و لجاجهم و إصرارهم على النكران بعد الجهد الشاق في النصح و البيان، و:

إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى‏ وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ‏ 80.

«إنك» على محتدك الرسالي‏ «لا تُسْمِعُ الْمَوْتى‏» إذ لا سمع لهم، و ترى كيف الموتى لا يسمعون الأحياء و هم في حياة برزخية قد يسمعون أكثر منا و أقوى، و لا سيما ان المسمع هو رسول الهدى؟ إن الموتى ليسوا في حياة التكليف حتى ينفعهم سمعهم هكذا، و المقصود هنا السمع في حياة التكليف لتكاليف الشرعة، فهؤلاء الموتى عن الروحية الانسانية و سمع الإنسان اذنا و قلبا «إنك لا تسمعهم، حيث الإسماع بحاجة إلى سمع‏ «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ» و قد يسمع الصّم الدعاء إذا تسمّعوا أم لم يولوا مدبرين، «وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» كما و «لا تُسْمِعُ الْمَوْتى‏ ... إِذا وَلَّوْا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 258

مدبرين» عن الحياة الدنيوية، إسماعا ينفعهم هناك.

فظرف السمع للدعاء الرسالي هو القلوب الحية و الآذان الصاغية، للمؤمنين بآيات اللَّه، دون ميتات القلوب و الصم الأسماع هنا، و دون الأموات حيث لا يدعون للشرعة:

وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ‏ 81.

«فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (22: 46) «وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ» عن أبصار القلوب «عن ضلالتهم» فلا إسماع للموتى و الصمّ العمي‏ «إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا» آفاقية و انفسية هي لهم مرئية فهم مبصرون، و مسموعة فهم سامعون‏ «فَهُمْ مُسْلِمُونَ» إسلاما للَّه بما يرون و يسمعون و يعقلون من آياتنا.

و قد تكون «الصم و العمى» بيانا للموتى فلا قصور فيك كرسول، و لا في آياتنا إبصارا بها و إسماعا، و انما القصور التقصير في الموتى و الصم الذين لا يسمعون، و العمي الذين لا يبصرون فلا يستجيبون‏ «إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتى‏ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» (6: 36)، و من الموتى المستعدون للحياة من يسمع فيحيى: «أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (6: 122).

فما دامت آيات اللَّه بينات، و هناك أموات يتحرون عن الحياة، و هنا رسول يسمعهم تلكم الآيات، فالإسلام للَّه حاضر دون تلكؤ و لا تحميل، حيث الإسلام هو نداء الفطرة، ما إن وجدت نداء الحق أقبلت إليها و قبلت، فليس نكران الموتى عن الحيوية الانسانية، بالذي يدل على قصور

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 259

في تلكم الآيات ام تقصير في إسماعها، «إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ».

و إلى تهديد شديد حديد في الأولى قبل الأخرى يوم القائم المهدي من آل محمد عليهم السلام:

وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ‏ 82.

هذه و الثلاث اللاتي بعدها عرض لعذابهم الأدنى دون العذاب الأكبر و كما وعد اللَّه: «وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى‏ دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (32: 21) ثم الرابعة «وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ..» تصريحة اخرى- بعد تلميحة من الأربع- ان وقوع القول عليهم و حشرهم قبل القيامة الكبرى، و ليس يعني اصل القول في وعد العذاب إذ صدر قبل، و لا واقع القول في اصل العذاب فان فيه موتهم فكيف تكلمهم دابة من الأرض، إذا فهو وقوع أوانه و لمّا يقع حتى يسمعوا قالة الدابة المندّدة بهم ثم يقع، و تكلم الدابة المخرجة من الأرض قبل الرجعة هو من أشراطها و كما للساعة أشراط، و انما تكلمهم الدابة منذرة مهينة إياهم، فقد انذرهم الرسل فعموا و صموا فلم يك ينفعهم تواتر الإنذار، فلتنذرهم دابة الأرض تناسقا بين المنذر و المنذر و هم شر منها: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ» (8: 22).

«وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ» هؤلاء الموتى الصم العمى، لا فقط خصوص الموجودين زمن نزول القرآن، بل هم كل أولئك الذين يحملون ثالوث النكبات على مدار الزمن طول التاريخ الرسالي، و من «القول» هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 260

كلمة العذاب و كما تأتي بهذه الصيغة في آيات عدة، أيا كان العذاب في الأولى كما هنا و في الأخرى كما في سواها، و منه سائر القول كوعد الرجعة إلى الحياة الدنيا ليذوقوا فيها عذابا قبل الأخرى، و هو المقصود هنا إذ لو كان واقع العذاب فلا مستمع منهم لقالة دابة الأرض.

«أَخْرَجْنا لَهُمْ» أولاء ككل و دون إبقاء «دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ...» تكلمهم أولاء الموجودين زمن إخراج الدابة و لمّا يرجع الراجعون يوم الرجعة، لأنها يوم حشرهم عن بكرتهم في مثلث الزمان و لمّا يأت، فانه يوم آخر للقول هو يوم واقع العذاب بعد رجوعهم كلهم:

«وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ..».

فالحملة الأولى لخطاب الإنذار التنديد من الدابة هم الأحياء زمن إخراجها، و الموجّه إليهم ذلك الخطاب- و هؤلاء الأولون يحملونه- هم كل المكذبين بآيات اللَّه الراجعون يوم الرجعة.

و ما هي دابة الأرض هذه التي تكلّمهم بلغة الإنسان؟ هي‏ «دَابَّةُ الْأَرْضِ» أيا كان من الحيوان الدابة، فليس من ملائكة اللَّه و لا الطير، و لا من أولياء اللَّه، حيث الدابة ليست تعبيرا لائقا بهم في أدب القرآن الذين يخاطب أدني المؤمنين بالذين آمنوا فكيف يعبر عن اكبر أولياء اللَّه بعد الرسول محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ب «دَابَّةُ الْأَرْضِ»؟ كما في مختلقات مروية عندنا أنها الإمام امير المؤمنين علي (عليه السلام) «1»!!!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 98 في تفسير القمي في الآية حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: انتهى رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى امير المؤمنين (عليه السلام) و هو قائم في المسجد قد جمع رملا و وضع رأسه عليه فحركه برجله ثم قال: قم يا دابة الأرض، فقال رجل من أصحابه: يا رسول اللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 261

و لا ما تصفها روايات في كتب إخواننا ان طولها ستون ذراعا، ذات زغب و ريش و حافر، لها لحية، رأسها رأس ثور و عينها عين خنزير و أذنها أذن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) أ يسمي بعضنا بعضا بهذا الاسم؟ فقال: لا و اللَّه ما هو إلّا له خاصة و هو الدابة الذي ذكره اللَّه في كتابه فقال عز و جل: «وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ ..» ثم قال: يا علي! إذا كان آخر الزمان أخرجك اللَّه في أحسن صورة و معك ميسم تسم به أعداءك ..،

و

فيه قال ابو عبد اللَّه (عليه السلام) قال رجل لعمار بن ياسر يا أبا اليقطان ان آية في كتاب اللَّه أفسدت قلبي و شككتني؟ قال: و أيّة آية هي؟ قال: قوله عز و جل‏ «وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ ..» فأية دابة هذه؟ قال عمار: و اللَّه ما اجلس و لا آكل و لا أشرب حتى أريكها فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) و هو يأكل تمرا و زبدا فقال: يا أبا اليقظان هلم، فاقبل عمار و جلس يأكل معه فتعجب الرجل منه فلما قام الرجل قال: سبحان اللَّه انك حلفت ان لا تأكل و لا تشرب و لا تجلس حتى تريني الدابة؟

قال: أريتكها إن كنت تعقل، و فيه عن المجمع عن العياشي هذه القصة بعينها عن أبي ذر ايضا

و

روى محمد بن كعب القرظي قال‏ سئل علي (عليه السلام) عن الدابة؟ فقال:

اما و اللَّه ما لها ذنب و ان لها للحية،

و

في تفسير البرهان 3: 310 محمد بن العباس بسند عن أبي عبد اللَّه الجدلي قال‏ دخلت على علي (عليه السلام) فقال: أنا دابة الأرض،

و

فيه عنه بسند عن الأصبغ بن نباتة قال‏ دخلت على أمير المؤمنين (عليه السلام) و هو يأكل خبزا و خلا و زيتا فقلت يا أمير المؤمنين قال اللَّه ... فما هذه الدابة؟ قال: هي دابة تأكل خبزا و خلا و زيتا

، و

فيه عنه عن الأصبغ بن نباتة قال: قال لي معاوية يا معاشر الشيعة تزعمون ان عليا دابة الأرض؟ فقلت: نحن نقوله و اليهود يقولون، قال: فأرسل إلى رأس الجالوت فقال له: ويحك تجدون دابة الأرض عندكم مكتوبة؟ فقال: نعم، فقال: ما هي أ تدري ما اسمها؟ قال: نعم اسمها إيليا، قال: فالتفت الي فقال: ويحك يا أصبغ ما اقرب إيليا من علي!، و فيه سعد بن عبد اللَّه عن عبد اللَّه بن يسار قال قال أبو عبد اللَّه (عليه السلام) قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): في حديث قدسي يا محمد عليّ أوّل من أخذ ميثاقه من الأئمة عليهم السلام يا محمد علي آخر من اقبض روحه من الأئمة عليهم السلام و هو الدابة التي تكلم الناس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 262

فيل و قرنها قرن إبل و عنقها عنق نعامة و صدرها صدر أسد و لونها لون نمر و خاصرتها خاصرة هرّ و ذنبها ذنب كبش و قوائمها قوائم بعير «1»!!! فهذه تجمع لهذه الدابة مختلف هيئات لمختلف الدابة، و تلك تقول انها مجمع فضائل الانسانية القمة، فهي بين مفرطة و مفرّطة، و النص‏ «دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ» لا هكذا إنسان و لا هكذا حيوان، و بينهما أحاديث عن الفريقين عوان نصدق منها ما صادق القرآن‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول: هذه مختلقات زور على اللَّه و على رسوله (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و على علي (عليه السلام) و على بعض المعصومين من ذريته. إن عليا (عليه السلام) هو دابة الأرض، و اللَّه و الرسول و الأئمة منه براء!.

(1). الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي الزبير انه وصف الدابة فقال:

رأسها ...

(2)

الدر المنثور 5: 114- اخرج نعيم بن حماد و ابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): إذا كان الوعد الذي قال اللَّه: أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ... فيكون خروجها من الصفا ليلة منى فيصبحون بين رأسها و ذنبها لا يدحض داحض و لا يخرج خارج حتى إذا فرغت مما أمرها اللَّه فهلك من هلك و نجا من نجى كان أول خطوة تضعها بانطاكية،

و

فيه 115- اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة ان رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: تخرج الدابة يوم تخرج و هي ذات عصب و ريش ..

و

فيه 116- اخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان قال‏ ذكر رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) الدابة فقال حذيفة يا رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) من اين تخرج؟ قال: من أعظم المساجد حرمة على اللَّه بينما عيسى يطوف بالبيت و معه المسلمون إذ تضطرب الأرض من تحتهم تحرك القنديل و تشق الصفا مما يلي المسعى و تخرج الدابة من الصفا أوّل ما يبدو رأسها ملمعة ذات و بر و ريش لن يدركها طالب و لن يفوتها هارب ...

و

في نور الثقلين 4: 97 في كتاب كمال الدين و تمام النقمة باسناده الى النزال بن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 263

و قول القائل تبريرا لكون المعني منها الإمام علي (عليه السلام)- و لا سمح اللَّه-: إنّ الدابة جنس تشمل كل حيوان و إنسان أيا كان، مردود إليه بان ذكر الجنس الشامل لسائر الحيوان قصدا إلى أفضل انسان، هو من أسوء التعبير و أشنعه، بل و التعريف له بمطلق الإنسان أن عليا (عليه السلام) كان إنسانا، و صالح التعريف أيا كان هو التعريف بالفصل الخاص و الصفة المتميزة الخاصة كما المؤمن- العادل- الامام- ولي اللَّه أماذا من أخص الفصول القريبة المميزة له عن سواه.

و في هذا المجال المختلق ضد الامام علي (عليه السلام)

قيل له ان ناسا يزعمون انك دابة الأرض؟ فقال: و اللَّه ان لدابة الأرض ريشا و زغبا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

سيارة عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل قال فيه- بعد ان ذكر الدجال- و من يقتله و اين يقتل؟ ألا ان بعد ذلك الطامة الكبرى، قلنا: و ما ذلك يا أمير المؤمنين؟

قال: خروج دابة الأرض من عند الصفا معها خاتم سليمان و عصى موسى عليهما السلام تضع الخاتم على وجه كل مؤمن فينطبع فيه هذا مؤمن حقا و تضعه على وجه كل كافر فيكتب هذا كافر حقا حتى ان المؤمن لينادي الويل لك حقا يا كافر و ان الكافر ينادي:

طوبى لك يا مؤمن وددت اني كنت مثلك فأفوز فوزا عظيما، ترفع الدابة رأسها من بين الخافقين بإذن اللَّه جل جلاله و ذلك بعد طلوع الشمس من مغربها فعند ذلك ترفع التوبة فلا تقبل توبة و لا عمل يرفع‏ «لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً» ثم قال: لا تسألوني عما يكون بعد هذا فانه عهد إليّ حبيبي رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) ألّا أخبر به غير عترتي.

أقول: من جملة ما يرد على هذه الرواية- اضافة الى قصة من هو الدابة- خروجها بعد الدجال، و الدجال يكون في زمن المهدي و بعد الرجعة و خروج الدابة هو قبلها فانه من أشراطها!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 264

و مالي ريش و لا زغب و ان لها لحافرا و مالي من حافر» «1»

و هنا أصبحت رواية إخواننا السنّة بحق الإمام (عليه السلام) أرحم من رواية أصحابنا الشيعة! و هنا ندرك أبعاد الشكيمة اللئيمة على الإمام (عليه السلام) بلسان أشياعه المجاهيل دفعا لهم إليها من أعاديه، فهم أولاء الحماقى يذيعون عليه (عليه السلام) هذه الواصفة النكدة و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، رغم انهم من الأخسرين اعمالا! و لماذا يفسّر «دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ» بعلي (عليه السلام)؟ أ لأن تكلم الدابة خارقة ربانية فلتكن له (عليه السلام)؟ و ليس تكلم الإمام بخارقة، بل الخارقة هي تكلم الدابة؟

و من المظنون ان دابة ناصبة معاندة للإمام استغفل دابة ممن يدعي انه من أشياع الإمام فحملته على ذلك التأويل العليل، إذ خيّل إليه انه غنيمة من التأويل حيث يختص الإمام بهذه الكرامة الغالية! و ليس تكلم الإنسان كرامة لأي إنسان فضلا عن الإمام! فما حديث دابة الأرض تفسيرا لها بالإمام إلّا تلقينا لعينا من دابة ناصبة إلى دابة راسبة في شعورها تدعى أنها من الشيعة، مهما تظافر نقله في كتابات شيعية و الامام علي (عليه السلام) براء من هكذا هتك و فرية.

و انها حسب الآية و روايات من الفريقين حيوان و ليس أي إنسان، «دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ» هؤلاء الكفرة الأنكاد: «ان الناس»: و هم هؤلاء و أضرابهم‏ «كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ».

إخراج دابة من الأرض تكلمهم هو من أشراط الساعة و ليس فيها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 117- اخرج ابن أبي حاتم عن النزال بن سبرة قال قيل لعلي بن أبي طالب ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 265

نفسها، فانها بعد هنيئة «وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ..» و ما أنسب هؤلاء الدواب الذين لا يوقنون ان تكلمهم دابة من الأرض في حشر خاص:

«وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا ..» و «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ».

فتكلم الدابة معهم و هم شر الدواب يناسب كيانهم المنكوس المركوس كما يناسب جو السورة في حوار بين النملة و الهدهد و سليمان، تناسقا ذا بعدين يحمل شرطا من أشراط الساعة و كما

يروى عن رسول الساعة (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «إن بين يدي الساعة الدجال و الدابة و يأجوج و مأجوج و الدخان و طلوع الشمس من مغربها» «1»

-

«تخرج من أعظم المساجد حرمة على اللَّه: المسجد الحرام‏ «2»

و من الجياد «3»، و أيا كان مخرجها فهي «تكلمهم» و من هم الذين تكلمهم؟ أهم كل هؤلاء الذين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 116- اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ....

(2)

المصدر 115- اخرج نعيم بن حماد و ابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) إذا كان الوعد الذي قال اللَّه‏ «أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ» قال: ... فيكون خروجها من الصفا ليلة منى ..

و

اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) تخرج دابة الأرض و لها ثلاث خرجات فأول خرجة منها بأرض البادية و الثانية في أعظم المساجد و أشرفها و أكرمها على اللَّه،

و

اخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان قال‏ ذكر رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) الدابة فقال حذيفة يا رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) من اين تخرج؟ قال من أعظم المساجد حرمة على اللَّه أقول و الأحاديث فيه متظافرة.

(3)

الدر المنثور 5: 117- اخرج خروجها من جياد ابن مردويه و البيهقي في البعث عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) بئس الشعب جياد مرتين او ثلاثا قالوا و بم ذاك يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال تخرج منه الدابة-

أقول:

خروج الدابة من جياد لا صلة له بكون شعبه سيئين إلا لوجه آخر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 266

كانوا بآياتنا لا يوقنون؟ و العبارة الصالحة له «انهم كانوا» لأنهم هنا الناس! علّهم هم الحاضرون في ذلك المسرح، و «الناس» هم كل الكافرين على مدار الزمن الرسالي، فهي- إذا- تكلمهم هؤلاء الحضور، «أن الناس» و هو يعمهم و كل اضرابهم و لمّا يحشروا «كانوا» على طول الخط الرسالي‏ «بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ» و هم المحشورون ككل بعد يوم الدابة «وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ..». فقد تكون هذه الدابة إذاعة معلنة للذين كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل حشرهم، و لكي يعرفوا في مسرح الحشر أمام أنفسهم و الذين هم كانوا بآياتنا يوقنون.

و ترى ما هو كلامها؟ هل هو كلمها و وسمها إيّاهم دون تكلم بلفظة؟ و هذا كلم و ذلك تكليم، و النص يرفض رواية الكلم مهما كثرت رواته، و يرجّح روايات التكليم مهما قلت رواته‏ «1» و رواية الكلم تكلم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الدر المنثور يروي الرواية الأولى عن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه عن ابن عمران: ليس ذلك حديثا و لا كلما و لكنه سمة تسم من أمرها اللَّه به،

و

عن أبي هريرة عنه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) .. فتنقط في وجه المؤمن نقطة بيضاء فيبيض وجهه و تنقط في وجه الكافر نقطة سوداء فيسود وجهه،

و

عن حذيفة بن يمان عنه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) تسم الناس مؤمن و كافر ..

و

عن أبي هريرة عنه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) فتجلو وجه المؤمن بالخاتم و تخطم أنف الكافر بالعصا.

و

فيه يروى الرواية الثانية عن ابن عباس عن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) تخرج دابة الأرض .. و تنادي بأعلى صوتها ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ..

و

عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات فيسمعها من بين الخافقين،

و

في نور الثقلين 4: 98 عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام): ... فقال رجل له (عليه السلام) ان العامة يقولون ان هذه الآية انما تكلمهم؟ فقال: كلمهم اللَّه في نار جهنم انما هو تكلمهم من الكلام،

و

فيه جوامع الجامع عن الباقر (عليه السلام):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 267

القرآن كلم اللَّه راويها و مختلقها خلاف نص القرآن!.

و المكذبون هنا قد تعنيهم آية الأنبياء فيمن تعنيهم‏ «وَ حَرامٌ عَلى‏ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ. حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ...» (21: 97).

وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ 83 حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 84 وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ‏ 85.

«كُلِّ أُمَّةٍ» تعني كل الأمم الرسالية الموجهة إليهم الرسالات الخمس الإلهية، و هذا الحشر لا يعمهم هنا كلهم، و انما «مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا» ف «من» الأولى للتبعيض، و الثانية للتبيين، إذا فكل المكذبين بآياتنا من كل أمة يحشرون في ذلك اليوم.

و كما «كُلِّ أُمَّةٍ» تعني الأمم الخمس بكل أنبياءها و رسلها، كذلك «آياتنا» تعني كل الرسل أصولا و فروعا، بآياتهم الرسالية معجزات و كتابات، ف «آياتنا» إذا هي مثلث الآيات رسوليا و رساليا.

و الحشر هو الجمع، إن أحياء فأحياء و إن أمواتا فأموات، و هنا الجمع بينهما فإنهم المكذّبون- ككل- من كل امة، من الأحياء الحضور في ذلك اليوم و الأموات قبله.

فهل إن ذلك اليوم بعد هو القيامة الكبرى، حشرا خاصا لخصوص العذاب و كما في نظيرتها: «وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

كلم اللَّه من قرأ يكلمهم و لكن تكلّمه بالتشديد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 268

(41: 20)؟

و هذه في الحشر إلى النار فطبعا هو خاص بأعداء اللَّه بعد الحشر العام ليوم القيام، و تلك حشر للاستجواب و هو يعم كل المحشورين مؤمنين و كافرين، اللهم إلّا السابقين و أصحاب اليمين‏ «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ» (74: 39)! ذلك حشر خاص في يوم خاص لحياة التكليف، فقد جاء بعد شرط من أشراط الساعة و هو خروج الدابة، و قبل الساعة نفسها: «وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ..» و هو خاص بمن‏ «يُكَذِّبُ بِآياتِنا» و هو من محض الكفر محضا و كما آية النور و الوعد في الزبور «1» تختصان الحشر بمن محض الايمان محضا، فالمستفيضة

المروية عن أئمتنا عليهم السلام‏ «لا يرجع إلا من محض الايمان محضا و من محض الكفر محضا» «2»

مستضيئة من هذه الثلاث الدالة على الحشر الخاص.

فكما الذين آمنوا و عملوا الصالحات في النور، و عبادي الصالحون في وعد الزبور محلّقان على كافة المؤمنين الصالحين لوراثة الأرض، فهم محشورون لها في مستقبل منير، كذلك‏ «مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). آية النور هي‏ «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..» و الثانية» «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ».

(2)

نور الثقلين 4: 100 عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن حماد عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: ما يقول الناس في هذه الآية «يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً»؟ قلت يقولون انها في القيامة؟ قال: ليس كما يقولون، انها في الرجعة، أ يحشر اللَّه في القيامة من كلّ فوجا و يدع الباقين؟ انما آية القيامة «وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 269

منعا عن التفرق في موقف حشرهم، فريقان متفارقان يحشران قبل‏ «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ» (87) لا فحسب‏ «مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا» و لا فحسب المؤمنون الصالحون، بل‏ «وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً» (18: 47) «1».

فقد يرجعون لمّا يدعون و يستجابون، و روايات الرجعة- ككل- هي فوق حد التواتر، و هي معنويا اجماليا تدل على رجعة أموات قبل القيامة الكبرى‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن المفضل عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية قال: ليس احد من المؤمنين قتل إلا و يرجع حتى يموت و لا يرجع إلّا ...

و

في البحار 53: 39 عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) .. و ان الرجعة ليست بعامة و هي خاصة لا يرجع إلا من محض الايمان محضا أو محض الشرك محضا فهم يرجعون».

(2) إليكم اسماء البعض من روات الرجعة عن المعصومين عليهم السلام:

بريد الأسلمي عن الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و كافة الأئمة الاثنى عشر- عباية الأسدى- مسعدة- الثمالي عن علي امير المؤمنين (عليه السلام). ابو خالد الكاهلي عن علي بن الحسين عليهما السلام- بكير بن أعين- ابو بصير- جابر بن يزيد الجعفي- ابن المغيرة- حمران- داود بن راشد- عاصم بن حميد- صالح بن ميثم- ابو حمزة الثمالي- ابن عيسى- عامر بن معقل- محمد بن مسلم- عبد اللَّه بن عطا- سدير- زرارة- أبو الصباح- عبد الرحيم القصير عن الامام الباقر (عليه السلام).

حمران بن أعين- ابو الخطاب- زرارة- محمد بن مسلم- محمد بن الطيار- ابن بكير- فيض بن أبي شيبة- عبد الكريم بن عمرو الخثعمي- سليمان الديلمي عن أبيه- معلي بن خنيس- ابن مسكان- معاوية بن عمار- موسى الحناط- زيد الشحام- جميل بن دراج- سالم بن المستنير- صالح بن سهل- مفضل بن عمر- صفوان بن مهران- عبد اللَّه بن القسم- عمار بن مروان- احمد بن عقبة عن الامام الصادق (عليه السلام).

القسم- محمد بن عبد اللَّه الحسيني عن الامام الكاظم (عليه السلام).

موسى بن عبد اللَّه الخثعمي عن الامام علي النقي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 270

«حَتَّى إِذا جاؤُ» الى حشر الرجعة الموزعة أحياء و أمواتا «قال» اللَّه لهؤلاء المحشورين‏ «أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي» و الحال انكم‏ «لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً» تكذيبا جاهلا قاحلا عن تقصير «إمّا ذا» من اعمال في مسرح الآيات‏ «كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ثم بعدئذ:

«وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ» عن بكرتهم بأسرهم‏ «بِما ظَلَمُوا» من ذي قبل‏ «فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ» إذ أصبحوا سكوتا بعد وقوع القول عليهم خامدين، و كما كانوا سكوتا حين وقوع القول إذ لا يؤذن لهم في كلام، لا اعتذارا و لا اعتراضا!، و كما يوم القيامة «هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ» (77: 39) و قد تتعلق ب «بِما ظَلَمُوا» ب «فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ» كما يتعلق ب «وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ»- «فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ» بما وقع القول عليهم و بما ظلموا.

فلقد نطقت الدابة بما ظلموا «فهم لا ينطقون بما ظلموا» فهم ساكتون واجمون، من وطأة الموقف الرهيب، و العذاب العسيب، و اللَّه من ورائهم رقيب، فكيف ينطقون؟! ثم و بطبيعة الحال ليس لسؤال التهكم التأنيب «أكذبتم ...» جواب إلّا «فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ».

و لقد صرحت كتابات من العهدين بهذه الرجعة و راجعيها في الدولة المظفرة المهدوية عليه آلاف سلام و تحية و كما في دانيال 12: 1- 16 «و في ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك و يكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت امة إلى ذلك الزمان 1، و في ذلك الزمان ينجو شعبك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أبو القاسم بن العلاء عن الامام الحسن بن علي العسكري (عليه السلام).

الحسين بن روح عن الامام محمد بن الحسن المهدي (عج).

هذا شطر ممن روى حديث الرجعة من أصحابنا الإمامية، و كذلك الرواة من إخواننا السنة كثير و أقل التقدير في رواة الرجعة من أصحابنا قرابة 600 شخصا (المصدر البحار ج 13 القديم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 271

كل من يوجد مكتوبا في الكتاب 2 و كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية و بعضهم للعار و الرذل الأبدي 3 ...

سمعت و لم أفهم فقلت يا سيدي ما آخر هذه 9 فقال اذهب يا دانيال فان الأقوال مغلقة و مختومة إلى وقت الانقضاء 10 إن كثيرين يتنعمون و يتبيضون و يمحصون و المنافقون ينافقون و لا أحد من المنافقين يفهم اما العقلاء فيفهمون 12 طوبى لمن ينتظر و يبلغ إلى الف و ثلاثمائة و خمسة و ثلاثين يوما 13 و أنت اذهب إلى الانقضاء و ستستريح و تقوم في قرعتك إلى انقضاء الأيام» 14!.

و قد يرجو زرد شت ان يكون ممن يحيى حياة جديدة في ذلك الزمان كما في «كاتها- يسناها 30: 9» ترجمة حرفية عن الأصل الأوستائي البهلوي:

«فحينئذ أي مزدا! يقيم بهمن ملكك في خاتمة الأيام لهؤلاء الذين يستبدلون الصدق بالكذب 8 و نرجو ان نكون ممن يحيى حياة جديدة اي مزدا! ...» 9 .. اجل و في ذلك الزمان ينكسر عالم الكذب بفلاح الصدق و كذلك في عالم الخير (القيامة) ..» 10

«بهمن» هنا حسب اللغة الأوستائية هو الممثل العظيم للقدرة و المعرفة الربانية، فهو زعيم الدولة «1» الأخيرة الامام المهدي عليه آلاف سلام و تحية!.

و قد يؤمر داود (عليه السلام) بعد آيات من الزبور بتبشيره بما بشرت آية الأنبياء: «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» يؤمر في ختامها: «انتظر الرب و احفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض. عند استئصال المنافقين تنظر» (مزمور 37: 134) فهو من الراجعين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يراجع للتفصيل إلى كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» 211- 214.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 272

في رجعة أخص الخاص.

و الرجعة ايام المهدي (عج) تحلق على أخص الخواص و هم المرسلون و الأئمة المعصومون، ثم الخواص و هم من محض الايمان محضا- احتراما- و من محض الكفر محضا- اختراما- و هما رجعة بالاستعداد، و ثالثة هي الرجعة بالاستدعاء للمتوسطين في الإيمان.

و هنا نقلة من مشهد واقع القول على المكذبين الحائرين المائرين في حشر الرجعة، إلى مشهدهم قبل حشرهم:

أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ‏ 86.

فهذان المشهدان المتواتران طول الحياة حقيقان خليقان لإيقاظ الإنسان ان هناك يد الرحيم الرحمان تقلب الليل و النهار «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟.

«قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ. وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (28: 73).

ففي سكن الليل و إبصار النهار «لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» من عدة جهات، منها الرحمة المتعالية باختلاف الليل و النهار، و التدليل على أن وراءهما قدرة عالمة قاصدة، لا ذات نسق واحد لمكان اختلاف الخلق، و لا فوضى الشتات حيث الحكمة فيه باهرة، كما و منها إمكانية الحياة بعد الموت، كما يقظة النهار حياة نسبية بعد نومة الليل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 273

وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ‏ 87.

الصور هو الناقور حيث ينفخ فيه مرة للإماتة و اخرى للإحياء، و ليس جمع الصورة لمكان ضميره المفرد في آية الزمر: «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏».

و تراها هنا الأولى؟ «وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ» لا تلائمها! أم هي الثانية؟

و قد لا تناسبها «وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ»! و كذلك‏ «فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» الظاهرة في حياتهم دنيويا أو برزخيا، ثم في الأولى الصعقة و ليست فقط الفزعة: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» (39: 68).

قد تعني النفخة هنا المرتين لمكان الإشارتين، فالفزعة في الأولى تشملها و الصعقة و الموتة، و في الثانية فزعة الإحياء لأنهما بعد فزعة الموت، ثم الفزعة يوم القيامة شاملة حيث يحشرون إلّا «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» (89).

«إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» في الصعقة للنفخة الأولى، هم أخص «ممن شاء الله» في الفزعة للنفخة الثانية، فالسابقون و المقربون أو و جمع من اصحاب اليمين لا يصعقون في الأولى لا موتا عن الحياة البرزخية و لا دون الموت من صعقة، و كما لا يفزعون، و الباقون يصعقون موتا ام دونه، ثم و في الثانية يفزع المحشورون إلّا من جاء بالحسنة و هم أعم منهم بكثير حيث تشمل كل الصالحين على درجاتهم‏ «وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ».

ثم في الثانية «وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ» صاغرين، مهما اختلف صغار الآمنين عن غير الآمنين، فالآمنون صاغرون هناك كما هنا أمام العظمة الربانية بذلّ العبودية و صغارها امام المعبود، و غيرهم صاغرون أذلّاء مهتكون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 274

بذل الاستكبار عن عبادته: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ» (40: 60) و اين داخرين من داخرين؟.

و «أتوه» هنا تعني الرجوع إلى اللَّه دون أن يملكوا لأنفسهم نفعا و لا ضرا إلّا ما شاء اللَّه حسب الأعمال صالحة و طالحة «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» «1».

وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ‏ 88.

الرؤية قد تكون بصرية مجردة، ام ببصيرة حاصلة أم محصلة علمية، أم ببصيرة الوحي، أ ترى «و ترى» هنا تعني الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) ام و كل راء سواه؟ إنها تعني الرسول كمخاطب أوّل بوحي القرآن، ثم سائر المكلفين بما يحمله الرسول إليهم، اللَّهم إلّا بقرينة قاطعة تخص الخطاب به و ليست هنا فليس.

ثم و حقل الرؤية من أيّ كان هل هو يوم الدنيا تدليلا على حركة الأرض غير المرئية بدائية بالبصر، و الوحي يري أنها «تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ» كما العلم أرى في العصور المتاخرة عن وحي القرآن زاوية من مرّها.

فكل راء إلى الجبال كقواعد للأرض يحسبها بقواعدها جامدة لا حراك لها «وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ» خارجا عن الإحساس، و الرسول هنا كسائر الناس إلّا أن يوحى إليه بما يتجاوز الإحساس، و قد اوحي إليه‏ «وَ هِيَ تَمُرُّ» و ما أجمله تعبيرا و أمثله مثالا حيث السحاب المارة لا ترى بداية الرؤية أنها تمر، إلّا بعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع آية الزمر تجد على ضوءها فصل القول حول النفخة و الصعقة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 275

رجوع البصر و قياس بعضها إلى بعض، فهي متحركة يحسب انها جامدة كما كانت الأرض محسوبة على جمود، و من حراك الجبال ان قسما منها تتنقل من قواعدها إلى اخرى خلال ردح بعيد من الزمن كما كشف عنها علم معرفة الأرض.

و قد يقرب عناية الحركة الأرضية من الآية «صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ» فمرور الجبال مرّ السحاب من الصنع المتقن للأرض في حركاتها المعتدلة المتعدّلة.

أم تعني الرؤية يوم قيامة الإماتة: «وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً» إذ حفّت الآية بآيات القيامة؟ و ترى كيف يراها الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)- فيمن يرى- جامدة، و كل ناظر يرى حراكها؟

قد يحسبها حينذاك جامدة لأن حراكها لا تزعجه فإنه ممن شاء اللَّه فلا ينصعق بالصعقة و لا ينفرع بالفزعة، مشغولا بنفسه في ضيافة ربه، ام ان «ترى» هنا تختص بغيره حيث‏ «تَرَى النَّاسَ سُكارى‏ وَ ما هُمْ بِسُكارى‏ وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (22: 2) فلا يشعرون حركات الجبال المسيّرة يوم القيامة لأنهم في شغل عنها إلى ما هو أفزع منها كزلزال الأرض.

أ ترى كيف تناسبها القيامة و هي يوم التدمير، و تلك‏ «صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ»؟ إن التدمير كما التعمير من اللَّه إتقان من صنع اللَّه، لا سيما و ان بعده تعمير الدار الآخرة، فليس التدمير منه خلاف صنعه المتقن.

و قد تجمع الرؤية النشأتين، في الأولى و في الأخرى أيا كان الرائي، و لكلّ كما يناسبه، فالأرض هي راجفة على طول الخط، قبل ذلها و بعده، في قيامة الإماتة و الإحياء و «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا» (67: 15) تدل على حركتها المضطربة قبل ذلها، ثم المعتدلة بذلها: «و عدل حركاتها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 276

بالراسيات من جلاميدها .. فسكنت على حركتها من ان تميد باهلها أو ان تسيخ بحملها ..».

ثم و «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ» تثبت لها- على ضوء آية الذلول- أربع رجفات أولاها رجفة شماشها قبل ذلها، و الثانية رجفة ذلها بعد شماسها و هي بهما سميت «الراجفة»، ثم و «يَوْمَ تَرْجُفُ» هي الرجفة الثالثة: الإماتة، و «الرادفة» هي الرابعة: رجفة الإحياء، فقد تمت لها اربع رجفات اثنتان في الأولى و الأخريان في الأخرى، و آية الرؤية قد تعني مرّ الأرض مر السحاب في النشأتين، و كل ذلك‏ «صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ».

و قد تعني «جامدة»- فيما عنت- الوقوف عن كل حركة داخلية و خارجية «وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ» مرا داخليا و آخر خارجيا، فالحركة الداخلية تعني الجوهرية الشاملة كل شي‏ء، حيث الوقوف عن مطلق الحراك في اي كائن هو وقوف له عن كونه، لا فحسب عن كيانه الحركي.

ام و تعني تتابع الإيجاد لكلّ كائن، و هو تجدد الأمثال بنحو الاتصال، حيث يراه الرائي استمرارا للكون الأوّل، كالشعلة الجوالة التي تخيّل انها دائرة نارية و ليست هيه.

فالأشياء- و قد مثل بالجبال لظهورها لكل راء- كلها متجددة الأمثال في كونها و كيانها، ام- و باحرى- هي متجددة الحراك في أخذ الكون و الكيان من الرب المنان، «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟

و ذلك كل آن كأصغر أبعاد الزمان، هو تبارك و تعالى في شأن من إبقاء ما أحدث، و إحداث ما لم يحدث، حركة دائبة في الخلق و التدبير دونما غفلة و لا فتور!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 277

فقد تعني الآية كل هذه المعاني ما صلحت لفظيا و معنويا تحليقا على النشأتين! مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ‏ 89.

«الحسنة» هنا هي الحياة الحسنة «1» و كما تستدعيها قضية الايمان:

«رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ» و خير الحسنات في الحياة ولاية اللَّه و على ضوءها ولاية أولياء اللَّه‏ «2»، و لأن ولاية علي (عليه السلام) هي خاتمة الولايات فقد تفسر الحسنة انها ولاية علي‏ «3» كمصداق مختلف فيه يصدّق حق الولاية للَّه و الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و «خَيْرٌ مِنْها» هو الصورة الوضاءة من الولاية- كيفما كانت- في الأخرى، فانها تبرز بحقها و حقيقتها ما لم تكن تبرز يوم الدنيا.

فمن جاء ربه بالحياة الحسنة و هي الإيمانية الصالحة «فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها» حياة حسنة حيث ان‏ «لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى‏»- «وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ» يعم اهل الحشر و يطم‏ «يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ»- «لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 103 معاني الأخبار عن أبي أيوب الخزاز قال سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: لما نزلت هذه الآية على النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها» قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) اللهم زدني فانزل اللَّه عز و جل‏ «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ..» فعلم رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) ان الكثير من اللَّه لا يحصى و ليس له منتهى.

(2) نور الثقلين 4: 103 في كتاب سعد السعود لابن طاوس و قد نقل عن الفرار في قوله‏ «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ» لا إله إلّا اللَّه- و السيئة الشرك أقول، تعني الحياة التوحيدية و الشركة و هما الحياة الحسنة و السيئة.

(3)

نور الثقلين 4: 102 في تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) فالحسنة و اللَّه ولاية علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 278

الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» (21: 103).

و «فزع» المنفي هنا عن‏ «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ» يخص نفخة الإحياء و في الحياة الأخرى، و أمّا النفخة الأولى فهي مصعقة «إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» و هم الخصوص من عباد اللَّه، من السابقين و المقربين، فلا يعم كلّ من جاء بالحسنة، فلهم فزع الصعقة موتا و سواها لأقل تقدير، ثم إن زلزلة الساعة تفزع الكل دون إبقاء، و تصعق‏ «إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ».

و «فزع» منكرا قد تعني الفزع الأكبر، لا أي فزع كان، حيث الحياة الإيمانية ليس لزامها العصمة، فهناك معاص كبيرة قد يجزون بها حين لا تشملها شفاعة، فلا يأمنون كل الأفزاع إلّا «الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ» و هو دخول النار أم خلودها.

وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏ 90.

«و من جاء» بالحياة «السيئة» و هم الكافرون و اضرابهم‏ «فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ» و يقال لهم هناك كما هنا «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فما الجزاء النار إلّا نفس العمل حيث يظهر بملكوته‏ «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ».

فالحياة الحسنة الايمانية مصيرها إلى الجنة مهما كانت درجات، و الحياة السيئة اللاإيمانية مصيرها إلى النار مهما كانت دركات: «رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً .. وَ قِنا عَذابَ النَّارِ».

إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَ لَهُ كُلُّ شَيْ‏ءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ‏ 91.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 279

لقد كانت العرب تدين بحرمة «هذِهِ الْبَلْدَةِ» و هي مكة المكرمة «1»، و كانت تستمد سيادتها على من سواها منها، و تعلّق آمالها و أصنامها على كعبتها تقربا إلى اللَّه زلفى، «إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها» تعريضة عريضة على هؤلاء الذين يعظمون البلدة و البيت و يحترمون، ثم لا يعظمون صاحب البيت بل و يخترمون، إذ يعبدون أصناما يظلون عليها عاكفين، و ما أظلمهم عبادة و أضلهم! و «حرمها» لحرمتها سلبيا و ايجابيا فوق كل بلدة حيث يحج بيتها و يصلى إلى قبلتها، و هو الملجأ للخائفين، و قد حرّمت فيها- لا سيما حالة الإحرام- من الشهوات المباحة في غيرها.

ثم و ليس فقط: رب هذه البلدة، بل‏ «وَ لَهُ كُلُّ شَيْ‏ءٍ» سواها، و انما لها نصيب زائد على غيرها من كائنات العالم فانها أم القرى تكوينيا حيث دحيت الأرض من تحتها، و تشريعيا إذ بعثت فيها أم الرسالات بخاتم المرسلين و سيد الخلق أجمعين (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم).

إنه تعالى‏ «رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ» لا سواه فلم تعبدون سواه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 105 في الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) كما قال: ان قريشا لما هدموا الكعبة وجدوا في قواعده حجرا فيه كتاب لم يحسنوا قراءته حتى دعوا رجلا فقرأه فإذا فيه: أنا الله ذو بكة حرمتها يوم خلقت السماوات و الأرض و وضعتها بين هذين الجبلين و حففتها بسبعة أملاك.

و

فيه عن زرارة قال سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: حرم الله حرمه ان يختلى خلاه و يعضه شجره إلا الأذخر أو يصاد طيره.

و

فيه عن معاوية بن عمار قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يوم فتح مكة: إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات و الأرض و هي حرام إلى ان تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي و لا تحل لأحد بعدي و لم تحل لي الا ساعة من نهار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 280

«وَ لَهُ كُلُّ شَيْ‏ءٍ» لا فحسب هذه البلدة كالأصنام التي تختص كلّ جانبا من الكون بزعمكم، فلم تعبدون سواه.

«وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» له لا سواه، امرا بوحي كما أمرت فطريا و عقليا، فما أمر توحيد العبادة و التسليم للَّه- فقط- امرا تعبديا، بل و الآيات الآفاقية و الأنفسية متجاوبة في إيجاب هذه الفريضة الربانية، و الإسلام هنا هو فوق الايمان خالصا لرب العالمين، و هو أوّل من أسلم كما هو أوّل العابدين.

وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى‏ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ‏ 92.

التلاوة بجامع معناها هي الإتمام، و قد اختصرت و انحصرت رسالة الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في هذه التلاوة المباركة طول حياته الرسالية في بعدين: ان يأتم بالقرآن و قد فعل لحد أصبح نفسه القرآن و أفضل منه و كما سمي به في يس‏ «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ» فقد أصبح تجسيدا لواقع القرآن و تفسيرا و تأويلا ككل دونما إبقاء، و تطبيقا له في نفسه و رساليا، فهو- إذا- أفضل من القرآن.

و بعد ثان أن يتلوه عليهم كما يتلوا نفسه عليهم ليتأتم به الناس في كل أقوالهم و أحوالهم و أفعالهم، فما لم تكمل تلاوته في نفسه لم يأهل أن يكون تاليا له عليهم، فهو- إذا- «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ».

و ان سنته السنية قولية و عملية و تقريرية هي تلاوة للقرآن، فانه الإمام في كل حلقات رسالته‏ «فَمَنِ اهْتَدى‏» بتلك التلاوة المباركة «فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ» لا لربه و لا لمن سواه‏ «وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ» فلست‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 281

احمل أحدا على الهدى إذ ما علي إلّا البلاغ إنذارا و تبشيرا.

و حين تنحصر الرسالة الاسلامية- بعد توحيد العبادة و الإسلام للَّه- ب «أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ» فما دور السنة أمام القرآن، إلا دورا هامشيا لتلاوة القرآن إيضاحا له و تبيينا.

و ملا تلاوة سنته الموحاة اليه عليهم إلا تلاوة القرآن القائل‏ «وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏» و «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ» أمّا شابهما من آيات.

وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ‏ 93.

«و قل»: أظهر قالا و حالا و اعمالا ان «الحمد» كله «للَّه» لا سواه، حيث النعم كلها من اللَّه لا سواه، و كما أراكم آياته من ذي قبل‏ «سَيُرِيكُمْ آياتِهِ» من بعد، كآية الدابة التي تكلمهم يوم الرجعة، و سواها من آيات يوم الدنيا و ما بعدها، «فتعرفونها» شئتم أم أبيتم، و لم يك ينفعكم ايمانكم عند آيات العذاب لا في الأولى و لا الأخرى: «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ»؟

«وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»- «وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 283

سورة القصص مكية و آياتها ثمان و ثمانون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 285

[سورة القصص (28): الآيات 1 الى 13]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

طسم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى‏ وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (5) وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (6) وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّ مُوسى‏ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (8) وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (9)

وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى‏ فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى‏ قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (11) وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى‏ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ (12) فَرَدَدْناهُ إِلى‏ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (13)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 287

هذه من الطواسين الثلاث في حروفها الثلاثة المقطعة، و تماثل القصص مع الشعراء في‏ «طسم. تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ» يجعل السورتين متشابهتي الأهداف، و منها قصص موسى المسرودة هنا بصورة مفصلة أكثر مما في الشعراء، و علّها لذلك تتسمى بالقصص حيث الجو الغالب عليها القصص و كأنها سورة موسى إذ تأتي بصورة و وضاءة لموسى منذ الولادة حتى الرسالة و إلى نهاية أمره، و هي تقدمات و طمأنينات للرسول محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) كأصل تتمحوره السورة في قصصها، انتقالا حثيثا من الرسالة الموسوية بآياتها إلى الرسالة المحمدية بآياتها الخالدة القرآنية.

تنزل القصص في مكة و المسلمون قلة مستضعفة و المشركون ثلة قوية مستكبرة، و لكي يطمئن المؤمنون القلة يأتي بسرد شامل لقصص موسى و فرعون و قارون، ليعرفوا أن ليست القوة مع الجاه و المال و المنال، بل إنّما القوة للَّه و لا حول و لا قوّة إلّا باللَّه.

و آية الوعد لرده (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى معاد آية أنها نزلت في أحرج المواقف لرسول الهدى، فلم تنته السورة إلّا و قد أحرجوه فأخرجوه عن أم القرى، فكما اللَّه رد موسى إلى أمه: «فَرَدَدْناهُ إِلى‏ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ» كذلك نردك إلى أم القرى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى‏ مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى‏ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (85) و اين رد من رد؟.

طسم 1 تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ 2 نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى‏ وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ‏ 3.

الأوليان من هذه الثلاث مفسرتان في الشعراء، و «نتلوا» في الثالثة من التلاوة القراءة لتتلوا متابعة ككل و منها القراءة على الكل، و النبأ خبر ذو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 288

فائدة عظيمة، و «من» تبعّضه عناية إلى أهم الحلقات من ذلك النبإ كما هو اللائق بالذكر الحكيم، و هنا المتلو عليه هو الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لكي يتلوه على كل المرسل إليهم، و لكنه بالمآل‏ «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» فمن آمن من قبل يزداد به ايمانا و اطمئنانا، و من يتحرّى عن ايمان و لمّا يؤمن- إذ فيه مادة الايمان و قابليته- فهو يكسب ايمانا، و «يؤمنون» يشملهما.

أجل و إن هذه التلاوة لذلك النبإ تلقي ظلال العناية و الاهتمام التام‏ «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، دون الذين‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» و هذه تكرمة ربانية «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أن اللَّه يتلوا الأنباء الرسالية على رسوله لأجلهم لأنهم هم المستفيدون، و كما القرآن ككل‏ «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» مهما كان القصد منه هداهم أجمعين كحجة على كافة المكلفين، كذلك أنباءه الرسولية و الرسالية هي‏ «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» و الآخرون هم الخاسرون، و «بالحق» هنا قد تتعلق ب «نَتْلُوا .. نَبَإِ .. يُؤْمِنُونَ» نتلوا بالحق- نبإ موسى و فرعون بالحق- لقوم يؤمنون بالحق، و الباء هنا تعم السببية و المصاحبة، تلاوة النبإ لقوم يؤمنون في مثلث الحق.

نبأ موسى يبدأ في الأغلب من حلقة الرسالة، و هنا يبدأ من الولادة إلى الرسالة و إلى النهاية، فانه عرض كامل كافل شامل كل الحلقات الحيوية لموسى، و العمليات المضادة من فرعون، لتصبح درسا حافلا «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

و ليعلموا أن الشرّحين يتمخض و يتمحض يحمل هلاكه و دماره في نفس ذاته، إذ تتدخل القدرة الرحيمة الربانية لتأخذ بأيدي المستضعفين فتجعلهم أئمة و تجعلهم الوارثين، و هنا حلقات خمس من عرض النبإ بين قصيرة و طويلة كلها قاصدة راشدة، حلقة المولد و ما أحاط به من قاسية راسية فرعونية،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 289

و عناية ربانية، ثم حلقة الفتوة و ملابساتها في الجو الفرعوني، ثم حلقة النداء الرسالية، و من ثم مواجهة فرعون الطاغية، ثم العاقبة للمتقين غرقا لفرعون بجنوده و استخلافا لموسى بحشوده، و لكل حلقة مشاهدها العدة: خمسة ثم تسعة ثم اربعة، بينها فجوات و حلقات و مشاهد، ما يثير العجب من دقة الأداء الفني للقصة.

و الأوليان هما الجديدتان في هذا العرض العريض، إذ تكشفان عن مدى تحدي القدرة الفرعونية، إخفاقا لصوت الحق و إخمادا لثائرته في زنده، ثم مدى القدرة الإلهية حيث تربي قاصم ظهر فرعون في حجره:

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ‏ 4.

إن الإفساد الفرعوني هنا مبني على قواعد خمس مهما اختلفت دركاتها:

العلو في الأرض- جعل أهلها شيعا- استضعاف طائفة منهم- تذبيح الأبناء- استحياء النساء، مهما كانت الأربعة الأخيرة من خلفيات الأولى.

إن العلو في الأرض و جعل أهلها شيعا، و استضعاف الشعوب، هي من شيمة الطغاة الشنيعة على مدار الزمن، فلما ذا بعد تذبيح الأبناء و استحياء النساء: إبقاءهن أحياء للخدمة، و إزالة حياءهن؟

لا بد و أن تكون هناك خوفة هارعة من الأبناء الاسرائيليين في ذلك التصميم العميم لإبادتهم، استبقاء للسلطة الفرعونية و كما

يروى عن رسول الهدى (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و أهل بيته الكرام عليهم السلام: «..

فان فرعون لما وقف على ان زوال ملكه على يده (موسى) امر بإحضار الكهنة فدلوه على نسبه و انه يكون من بني إسرائيل و لم يزل يأمر أصحابه بشق بطون الحوامل من نساء بني إسرائيل حتى قتل في طلبه نيفا و عشرين ألف مولود

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 290

و تعذر عليه الوصول إلى قتل موسى لحفظ اللَّه تبارك و تعالى إياه ..» «1».

إن العلو في الأرض باستعلاء غاشم ظالم، و استبداء خانق جاشم،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 51: 219- حديث حافل لمولد الامام المهدي (عج) و طول غيبته و ان فيه سنن الأنبياء و حذو النعل بالنعل و القذة بالقذة عن الكافي بسند متصل عن سدير الصيرفي قال‏ دخلت انا و المفضل بن عمر و ابو بصير و ابان بن تغلب على مولانا أبي عبد اللَّه جعفر بن محمد عليهما السلام فرأيناه جالسا على التراب و عليه مسيح خيبري مطوق بلا جيب مقصر الكمين و هو يبكي بكاء الواله الثكلى ذات الكبد الحرّى قد نال الحزن من وجنتيه و شاع التغير عارضيه و ابلى الدموع محجريه و هو يقول:

سيدي! غيبتك نفت رقادي و ضيقت عليّ مهادي و أسرت مني راحة فؤادي، سيدي! غيبتك أوصلت مصابي بفجائع الأبد و فقد الواحد بعد الواحد يفني الجمع و العدد، فما أحسّ بدمعة ترقي من عيني، و أنين يفتر من صدري عن دوارج الرزايا و سوالف البلايا إلّا مثّل لعيني عن عوارير أعظمها و أفظعها و تراقي أشدها و أنكرها و نوائب مخلوطة بغضبك، و نوازل معجونة بسخطك؟.

قال سدير: فاستطارت عقولنا و لها و تصدعت قلوبنا جزعا من ذلك الخطب الهائل و الحدث الغائل و ظننا انه سمة لمكروهة قارعة أوصلت به من الدهر بائقة فقلنا لا أبكى اللَّه يا ابن خير الورى عينيك من اي حادثة تستنزف دمعتك و تستمطر عبرتك و اية حالة حتمت عليك هذا المأتم؟

قال: فزفر الصادق (عليه السلام) زفرة انتفخ منها جوفه و اشتد منها خوفه و قال:

ويلكم إني نظرت في كتاب الجفر صبيحة هذا اليوم و هو الكتاب المشتمل على علم المنايا و البلايا و الرزايا و علم ما كان و ما يكون إلى يوم القيامة الذي خص اللَّه تقدس اسمه محمدا و الأئمة من بعده عليه و عليهم السلام و تأملت فيه مولد قائمنا و غيبته و إبطاءه و طول عمره و بلوى المؤمنين به من بعده في ذلك الزمان و تولد الشكوك في قلوبهم من طول غيبته و ارتداد أكثرهم عن دينهم و خلعهم ربقة الإسلام من أعناقهم التي قال اللَّه تقدس ذكره‏ «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ» يعني الولاية، فأخذتني الرقة و استولت عليّ الأحزان فقلنا: يا ابن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) كرّمنا و شرفنا بإشراكك إيانا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 291

يخلّف نفس العلو فيها لأنه فساد فإفساد فيها، ويلات و ويلات في دويلات مستعلية و سلطات متخلفة عن الحق، و ليس فاسد العلوّ في الأرض يختص بالفرعوني و أضرابه، بل و الدّينون ايضا لا يحق لهم أيّ علو، فذلك علو أمام اللَّه، و هذا علو أمام خلق اللَّه و كلاهما مرفوضان في شرعة اللَّه: «تلك الدار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بعض ما أنت تعلمه من علم- قال: إن الله تبارك و تعالى أدار في القائم منا ثلاثة أدارها في ثلاثة من الرسل، قدر مولده تقدير مولد موسى (عليه السلام) و قدر غيبته تقدير غيبة عيسى (عليه السلام) و قدر إبطاءة تقدير إبطاء نوح (عليه السلام) و جعل من ذلك عمر العبد الصالح اعنى الخضر (عليه السلام) دليلا على عمره- فقلت: اكشف لنا يا ابن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عن وجوه هذه المعاني- قال: اما مولد موسى (عليه السلام) فإن الله لما وقف ... كذلك بنو امية و بنو العباس لما وقفوا على ان زوال ملكهم و الأمراء و الجبابرة منهم على يد القائم منا ناصبونا العداوة و وضعوا سيوفهم في قتل آل بيت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و ابادة نسله طمعا منهم في الوصول إلى قتل القائم (عليه السلام) و يأبى الله ان يكشف امره لواحد من الظلمة إلا ان يتم نوره و لو كره المشركون- و اما غيبة عيسى (عليه السلام) ...

و

في نور الثقلين 4: 113 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى محمد الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ان يوسف بن يعقوب عليهما السلام حين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب و هم ثمانون رجلا فقال: ان هؤلاء سيظهرون عليكم و يسومونكم سوء العذاب و انما ينجيكم الله من أيديهم برجل من ولد لاوي بن يعقوب اسمه موسى بن عمران غلام طوال جعد آدم فجعل الرجل من بني إسرائيل يسمي ابنه عمران و يسمى عمران ابنه موسى، فذكر ابان بن عثمان أبي الحصين عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) انه قال: ما خرج موسى حتى خرج قبله خمسون كذابا من بني إسرائيل كلهم يدعي انه موسى بن عمران فبلغ فرعون انهم يرجفون به و يطلبون هذا الغلام فقال له كهنته و سحرته ان هلاك دينك و قومك على يدي هذا الغلام يولد من بني إسرائيل فوضع القوابل على النساء و قال: لا يولد العام ولد إلا ذبح و وضع على ام موسى قابلة ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 292

الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (28: 83) فإذا كانت ارادة العلو في الأرض تمانع الدار الآخرة، فبأحرى نفس العلو فيها لأنه فساد فإفساد فيها، فبمجرد ان الطاغية أحس- و لمّا يلمس- أن هناك خطرا يحدق بملكه من إسرائيل، و هم مئات الألوف لا يمكن نفيهم عن البلاد، و لا القضاء عليهم أجمع، ابتكر حينذاك طريقة همجية جهنمية للقضاء على الخطر المحسوس من هذه الطائفة المنسجمة، غير المعتقدة في ربوبيته الأعلى من نواحي أربع: أن‏ «1 جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً» «2 يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ»- «3 يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ»- «4 وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ»:

«إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» و من خلفيات العلوّ النحسة جعل الآهلين في أرض شيعا متفرقين ليذوق بعضهم بأس بعض، فهم‏ «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً» (30: 32) و بئس اللباس لباس الشيع للمجتمع: «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» (6: 65) «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ» (15: 10) «وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» (54: 51)، فالشيع و الأشياع في الدين و الدينين ما يزيّغه الدين الحق، اللهم إلّا شيعة الحق بلا أشياع متخلفين عنه أو مختلفين فيه، و هذه شيطنة مدروسة من الطاغية في علوه ان‏ «جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً» متفرقين و هو من باب فرّق تسد، و بالإمكان حينئذ أن يستضعف كلّ الشيع، مهما كان استضعافهم دركات، و قد كان من أسفلها استضعاف بني إسرائيل، و كما «استخف‏ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ».

فلقد فرق- فيمن فرق بينهم من القاطنين في مصر- شعب إسرائيل، حيث استقدم يوسف من قبل أبويه و إخوته و أهله أجمعين من كنعان إلى مصر فتكاثروا و أصبحوا شعبا كبيرا، فأخذت النعرة القومية و الطائفية الفرعونية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 293

يجعلهم شيعا كما جعل الآخرين كذلك شيعا، و كان أشد الاستضعاف على هؤلاء الذين كان يخافهم على عرشه، فتفرقت كلمة بني إسرائيل أيادي سبا و استفاد الطاغية بشيعهم أن أخذ يذبّح أبناءهم و يستحيي نساءهم‏ «إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ».

تذبيح الأبناء كان يعم شق بطون الحوامل من بني إسرائيل أم ذبح الولائد بعد الولادة حيث ما ثقفوا، و استحياء النساء من الحياة إبقاء لهن بشأن الخدمات الإجبارية منزلية و سواها، و من الحياء إزالة لحيائهن في الدعارات، فقد كانت هذه لهن استحياء أشر من تذبيحهن، ثم الرجال الذين فقدوا أبناءهم و نساءهم أمرهم أمرّ و أنكى، و ذلك ثالوث العذاب بحق الشعب الإسرائيلي بعد عذاب الشيع فيهم و العداء الشائع بينهم.

هذه هي خماسية المخططات الفرعونية الجهنمية تدميرا لهذا الشعب عن بكرته و لكيلا يطلع موسى من وسطهم، كما أرادها فرعون بخيله و رجله تجنيدا لكل حيله، و لكن اللَّه يريد غير ما يريده الطاغية و لا يكون إلّا ما أراد اللَّه مهما قويت الداهية الدهياء، من الطاغية اللعناء:

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ 5 وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ‏ 6.

هؤلاء المستضعفون المضغوطون تحت أنيار الظلم و أنياب العضّ الفرعوني، المرذّلون المعذبون بألوان العذاب‏ «1» يريد اللَّه أن يمن عليهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور اخرج ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الآية: قال: يوسف و ولده.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 294

و يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين و يمكن لهم في الأرض و يري فرعون و هامان و جنودهما منهم ما كانوا يحذرون من السلطة الموسوية، أياد جليّة من فرعون و ملإه، و يد خفية من رب العالمين تتصارعان، و بطبيعة الحال لا تصرع إلّا ايادي فرعون بجنوده حيث‏ «فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ» (51: 40).

و هذه الإرادة المستمرة «و نريد» ليست لتختص مستضعفي بني إسرائيل، بل هي متواصلة- قضية العدل و الرحمة الربانية- على مدار الزمن غابرا و حاضرا و إلى يوم النشور، مهما اختلفت درجاتها حسب مختلف الفاعليات و القابليات و الظروف المقتضية لتحقيق إرادة اللَّه، فكما أن «نريد» هنا حكاية لحال ماضية، كذلك هي إخبار للحال و الأحوال المستقبلة بعد الماضية.

و أفضل المستضعفين هم أهل بيت الرسالة المحمدية عليهم آلاف سلام و تحية، و كما

يروى عن الامام علي (عليه السلام): «لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها» «1»

، «هم آل محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) يبعث الله مهديهم بعد جهدهم فيعزهم و يذل عدوهم» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة .. و تلا عقيب ذلك‏ «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ» و رواه مثله السيد الرضي في الخصائص عن الصادق (عليه السلام) عنه (عليه السلام) ..

(2) نور الثقلين 4: 110 كتاب الغيبة للشيخ الطوسي باسناده الى محمد بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) في الآية قال: ... و

فيه عن اصول الكافي عن أبي الصباح الكناني قال: نظر ابو جعفر إلى أبي عبد اللَّه عليهما السلام يمشي فقال: ترى هذا؟ هذا من الذين قال اللَّه عز و جل: و نريد ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 295

اجل و القائم المهدي من آل محمد صلوات اللَّه عليهم أجمعين هو آخر هؤلاء المستضعفين‏ «1» و له المن الأوفر من الإمامة و خلافة الأرض اللهم عجّل فرجه و سهل مخرجه ..

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى حكيمة قالت: لما كان اليوم السابع من مولد القائم (عليه السلام) جئت إلى أبي محمد (عليه السلام) فسلمت عليه و جلست فقال: هلمي إليّ ابني فجئت بسيدي و هو في الخرقة ففعل به كفعله الأول ثم ادلى لسانه في فيه كأنما يغذيه لبنا و عسلا ثم قال: تكلم يا بني قال: اشهد ان لا إله إلا اللَّه و ثنى بالصلاة على محمد و علي و على الأئمة الطاهرين صلوات اللَّه عليهم أجمعين حيث وقف على أبيه (عليه السلام) ثم تلا هذه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏. و نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ...».

و

في تفسير البرهان 3: 219 روى العياشي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال‏ و الذي بعث محمدا (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) بالحق بشيرا و نذيرا إن الأبرار من أهل البيت و شيعتهم بمنزلة موسى و شيعته و ان عدونا و أشياعه بمنزلة فرعون و أشياعه.

و

فيه ابو جعفر محمد بن جرير الطبري في مسند فاطمة عليها السلام بسند متصل عن زادان عن سلمان قال قال لي رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)- و فيه تفصيل اسماء الأئمة الاثنى عشر الى ان قال (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): ... ثم محمد بن الحسن الهادي المهدي الناطق القائم بحق اللَّه ثم يا سلمان انك مدركه و من كان مثلك و من توالاه بحقيقة المعرفة، قال سلمان فشكرت اللَّه كثيرا ثم قلت يا رسول اللَّه و اني مؤجل الى عهده؟ قال يا سلمان اقرء: فإذا جاء وعد أولاهما ... قال سلمان فاشتد بكائي و شوقي ثم قلت يا رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) بعهد منك؟ فقال: اي و اللَّه الذي أرسل محمدا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بالحق مني و من علي و فاطمة و الحسن و الحسين و التسعة عليهم السلام و كل من هو منا و مضام فينا اي و اللَّه يا سلمان و ليحضرن إبليس و جنوده و كل من محض الايمان محضا و محض الكفر محضا حتى يؤخذ بالقصاص و الأوتار و الأثوار «وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» و تحقق تأويل هذه الآية «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ‏ .. يَحْذَرُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 296

و

قد يروى عن رسول الهدى (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) مخاطبا إياهم عليهم السلام: أنتم المستضعفون بعدي ...» «1».

و ذلك الاستضعاف الذي يقتضي الرحمة الخاصة الإلهية بمنح الإمامة و وراثة الأرض ليس استضعافا روحيا عقائديا، و إنما هو الضغط عليهم في تحقيق الشرعة الإلهية كيلا تتحقق كما تحق، فلا تقصير منهم في هذا المجال، فحياتهم الإيمانية هي حياة التقية حتى يأتي الفرج من اللَّه بما قدموا من ظروفه المواتية له.

و هكذا يعلن ربنا في هذه الإذاعة القرآنية أن حياة الفرعنة الطاغية لا تدوم، إعلانا صارخا بواقع الحال و ما هو مقدر في المآل عاجلا أم آجلا، أن تقف القوتان وجها لوجه، فقوة اللَّه هي التي تتهاوى دونها كل القوى فانه شديد القوى.

و ترى‏ «الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ» هنا هم كل المستضعفين في التاريخ الرسالي؟ و منهم مقصرون ظالمون موعودون بالنار: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً» (4: 97).

و منهم قاصرون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في كتاب معاني الأخبار باسناده الى محمد بن سنان عن مفضل بن عمر قال:

سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: ان رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) نظر إلى علي و الحسن و الحسين عليهم السلام فبكى و قال: أنتم المستضعفون بعدي- قال المفضل: فقلت له: ما معنى ذلك يا ابن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال:

معناه انكم الأئمة بعدي ان اللَّه عز و جل يقول: «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ ...» فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 297

«إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» (4: 99) فمن لا يستطيع حيلة و لا يهتدي سبيلا كيف يصبح من أئمة المؤمنين؟

انهم هم المظلومون تحت أنيار الظلامات و الظلمات، حيث يتبلور ايمانهم و تقوى هداهم و تقواهم، مهما اختلفت درجاتهم و من أدناهم القاصرون، فالأئمة منهم هم القادة الهداة الى اللَّه.

و كما الإمامة و الوراثة للمستضعفين درجات حسب القابليات و المعطيات، كذلك أرض التمكين لهم درجات، من أرض مصر أو ما والاها للأئمة الإسرائيليين، امّا هيه من أرض بعدها، و من كل الأرض كما في دولة الامام المهدي عجّل اللَّه تعالى فرجه.

و قد دلت أية النور على ذلك التمكين المكين، الرصين الأمين‏ «... وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى‏ لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ..».

و هم الورثة و الذين يعيشون تحت إمرتهم أولاء، و قد جمعت بينهما آية الأنبياء «1» و النور «2»: أن ارادة المن المستمرة لهؤلاء المستضعفين تتمحور قواعد اربع هي‏ «وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً» و هم الرعيل الأعلى منهم‏ «وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ» و هي تجمع المأمومين الى هؤلاء الأئمة، كما «وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ» حيث يرى كل فراعنة التاريخ و جنودهم من هؤلاء الأكارم «ما كانوا» هؤلاء الأنكاد «يحذرون» منهم، و ترى كيف يولد موسى و عيون المراقبات الفرعونية ترقب الحوامل،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..».

(2) «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 298

فتشق بطونها قبل الولادة، إلّا أن تفلت عنهم فالتة؟

علّها من الفالتات القلة، أم‏

«انه لما حملت به امه لم يظهر حملها إلا عند وضعها له» «1»

و كما كان الحمل بصاحب الأمر عجل اللَّه تعالى فرجه‏ «2» سترا ستيرا عن عيون المراقبات في الدولة العباسية ليقضي اللَّه امرا كان مفعولا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 111 عن تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: ... و كان فرعون قد و كل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط يحفظونهن و ذلك انه كان لما بلغه عن بني إسرائيل انهم يقولون انه يولد فينا رجل يقال له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون و أصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون هلاك فرعون و أصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون ما يريدون و فرق بين الرجال و النساء و حبس الرجال في المجالس فلما وضعت ام موسى بموسى (عليه السلام) نظرت اليه و حزنت عليه و اغتمت و بكت و قالت: يذبح الساعة؟

فعطف اللَّه عز و جل قلب الموكلة بها عليه فقالت لأم موسى: مالك قد اصفر لونك؟

فقالت: أخاف ان يذبح ولدي، فقالت: لا تخافي و كان موسى لا يراه أحد إلّا أحبّه و هو قول اللَّه: «وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي» فأحبته القبطية الموكلة بها و انزل اللَّه على أم موسى التابوت و نوديت امه ضعيه في التابوت فاقذفيه في اليم و هو البحر «وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» فوضعته في التابوت و أطبقته عليه و ألقته في النيل.

(2)

المصدر في كتاب كمال الدين و تمام النعمة و باسناده الى حكيمة بنت محمد بن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عمة أبي محمد الحسن (عليه السلام) انها قالت: كنت عند أبي محمد (عليه السلام) فقال: بيتي الليلة عندنا فانه سيلد الليلة المولود الكريم على اللَّه عز و جل الذي يحيي به اللَّه عز و جل الأرض بعد موتها، فقلت: ممن يا سيدي؟ و لست أدري بنرجس شيئا من اثر الحمل؟ فقال: من نرجس لا من غيرها قالت: فوثبت إليها فقبلتها ظهر بطن فلم أر بها اثر الحبل فعدت اليه فأخبرته بما فعلت فتبسم ثم قال لي: إذا كان وقت الفجر يظهر لك الحبل لأن مثلها مثل أم موسى لم يظهر بها الحبل و لم يعلم أحد إلى إلّا وقت ولادتها لأن فرعون كان يشق بطون الحبالى في طلب موسى و هذا نظير موسى ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 299

موسى الرسول (عليه السلام) يولد في تلك الضغطة الفرعونية الوحشية، و أمه حائرة، تخشى أن يصل نبأ هذه الولادة المباركة إلى الجلادين فيذبحوه، و هي عاجزة عن حمايته و إخفاءه فإذا الوحي الحنون يتلقف قلبها الرنون:

وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّ مُوسى‏ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ‏ 7.

«أَوْحَيْنا» هنا تعني وحي الإلهام دون وحي النبوءة و الرسالة، و ادنى منه الوحي إلى النحل و للأرض، و أعلى منه و من كل وحي إلّا الأخير وحي الإلهام إلى قلوب الأئمة المعصومين المحمديين صلوات اللَّه عليهم أجمعين.

«أَنْ أَرْضِعِيهِ» ليس عليك فيه أمر إلّا الرضاعة: «إِذْ أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّكَ ما يُوحى‏. أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي. إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى‏ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى‏ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ ..» (20: 40).

«أَنْ أَرْضِعِيهِ» ما لم يهجس هاجس أو يحدث حادث‏ «فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ..» و هو النيل فإنه في عظمه كأنه البحر، و اليم يشمل البحر و النهر الكبير كالنيل، أ تراها ما كانت خائفة عليه، و هي خائفة منذ حبلت حتى وضعت؟

الخوف له مراحل، فقد يتحمل إذ لا يعدو الخيال و لمّا تقع واقعة، و ذلك خوفها من قبل، أم لا يتحمل حين تشرف الواقعة لتقع فلا بد من محاولة قاطعة للفرار عنها، و قد تعنيه‏ «فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ» خوفا شديدا لا قبل لها به بعد المتعوّد في ذلك الجوّ المخيف.

أمّ حنونة ترضع ولدها خائفة عليه، فكيف تسمح لنفسها أن تلقيها في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 300

اليم فرارا عن حفرة إلى بئر؟ لكن‏ «وَ لا تَخافِي» من غرقه أو قتله‏ «وَ لا تَحْزَنِي» من فراقه ل «إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ» لترضعيه‏ «وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» لما بلغ أشده.

و هذه طمأنة ربانية و ربطة إلهية على قلبها أن تلقي وليدها الرضيع بيدها إلى اليم!، أجل «لا تخافي» من غرقه فان عين اللَّه ترعاه، و يده تراعيه حين تخفيه عن بأس فرعون، تلك القدرة التي تجعل النار لجده ابراهيم بردا و سلاما، و تجعل له البحر ملجأ و مناما! «وَ لا تَحْزَنِي» حيث الفراق لا يدوم‏ «إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ‏ 8.

هنا بين الوحي إليها و الالتقاط فجوة مذكورة في طه: «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ» أمرا تكوينيا لليم بإلقاء ما تلقّاه بالساحل، ثم‏ «يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ» أمر ثان لعدوه فرعون تكوينيا، و بالنتيجة «فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ»- إذ «أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي»!، و هنا أصبح موسى لقطة يلتقطها آل فرعون، قصدا إلى‏ «قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ» و لكن الواقع المجهول لديهم‏ «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً» فاللام هنا تعني واقع الغاية، و «قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ» تعني ظاهرها و هم خاطئون واقع الأمر «إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ»: خطأ عارما في كل حياتهم الجهنمية الطاغية حيث ذبح آلافا للحصول على موسى (عليه السلام)، و هنا خطأ عما يرام للعرش الفرعوني حيث استقدموا بذات أيديهم بوارهم و دمارهم، و هذا خطأ منهم لصالح الرسالة الموسوية، و كل حياتهم خطأ لطالحها و صالح موسى، و قد جمعهما «كانُوا خاطِئِينَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 301

فهل كانت أمه تخاف إلّا ذلك الالتقاط؟ كلّا! إلّا أن القدرة الربانية تتحدى بأسلوب سافر، ففي حين يجنّد فرعون و هامان و جنودهما كل إمكانياتهم و عيونهم و إرصادهم على بني إسرائيل كيلا يتفلّت منه موعودهم، فها هي ذي يد القدرة تلقيه في أيديهم مجردا من كل قوة بحنان لهم و محبة «قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً»!- لماذا؟ «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً» و يكون لأمه قرة عين و لشعب إسرائيل نجاة عن فرعون و ملإه!:

وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ‏ 9.

«لا تقتلوه» خطاب الجمع للحشد القاتل من آمر و مأمور و سبب و مباشر، و هذه شفاعة من ملكة البلاط، و طبعا توثر أثرها إثرها، لا سيما و انها مشفوعة ب «قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» ترغيبا في الإبقاء عليه بعد الترعيب عن قتله، خطوتان مباركتان منها في سبيل الحفاظ عليه كما أراد اللَّه! «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» الخطر الحادق بهم من هذا الوليد اللقيط، رغم ان التقاطه هكذا من اليم كان يشعرهم أنه من بني إسرائيل، و إلّا فلما ذا يلقى بتابوته في اليم؟ طبعا هو إلقاء قاصد ترجيحا لغرقه بطبيعة الحال على ان يقع في فخ فرعون و ملإه.

هنا «أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي» تجعله محبوبا لآل فرعون، لا سيما امرأته المؤمنة إذ تقول له قالتها: «قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ» إذ ليس لنا ولد نأنس به‏ «لا تَقْتُلُوهُ» تدليلا على تصميمهم لقتله‏ «عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا» في ملكنا، أم و أقرب من ذلك «أن نتخذه ولدا»- «و هم» كلهم‏ «لا يَشْعُرُونَ» من هو هذا اللقيط؟

و هنا النص ساكت عما رده فرعون على قالة امرأته، إلّا أنه ما قتله،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 302

و أما أنه قرة عين له فلا خبر عنه،

«لو قال فرعون قرة عين لي و لك لكان لهما جميعا» «1».

فيا للقدرة القاهرة الباهرة التي تسخر منهم بتحد سافر «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ»، و يا لفؤاد أم موسى متفئّدا فارغا من فراقه، و كيف ألقته في اليم فألغته في خضم أمواجه؟!:

وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى‏ فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى‏ قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ‏ 10.

الفؤاد هو القلب المتفئّد إما بنور العرفان: «ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏» (53: 11) أم نار النكران: «نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ» (104: 7) أم نار الهجران على محور الايمان و لمّا يتم في القلب و يطم، و هكذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 121- اخرج ابن جرير عن محمد بن قيس قال قالت امرأة فرعون:

قرة عين لي و لك لا تقتلوه، قال فرعون: قرة عين لك أمالي فلا، قال محمد بن قيس قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): لو قال ...».

و

في نور الثقلين 4: 115 عن تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في عرض القصة .. و كان لفرعون قصر على شط النيل منزها فنظر من قصره و معه آسية امرأته إلى سواد النيل ترفعه الأمواج و الرياح تضربه حتى جاءت به إلى باب قصر فرعون فامر فرعون بأخذه فأخذ التابوت و رفع اليه فلما فتحه وجد فيه صبيا فقال: هذا إسرائيلي! فألقى اللَّه في قلب فرعون لموسى محبة شديدة و كذلك في قلب آسية رحمة اللَّه عليها و أراد فرعون ان يقتله فقالت آسية «لا تَقْتُلُوهُ عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» انه موسى.

و

في المجمع قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و الذي يحلف به لو أقر فرعون بان يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه اللَّه به كما هداها و لكنه ابى للشقاء الذي كتبه اللَّه عليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 303

أصبح فؤاد أم موسى فارغا عما كان من اطمئنان بوحي و عن كل شي‏ء إلّا همّ موسى! و هي طبيعة الحال في قلوب الأمهات في هذه الحالات الفارغة التي تفرغ عن العقل و اللب فتوصل القلب إلى حالة فارغة عما فيه من اطمئنان و ايمان، متعلقا بفلذة كبدها «أَصْبَحَ‏ .. فارِغاً» لحد «إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ» أنه ولدها و قد قذفته في اليم، صارحة صارخة دون تفكير في العاقبة في تلكم الأجواء المراقبة، فتقول هاتفة كالمجنونة: أنا التي ألقيته فألغيته، فأغيثوني في ولدي الغريق في خضمّ اليم! «إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى‏ قَلْبِها» ربطة لا حقة لما سبقت من طمأنة الوحي‏ «لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» بما وعدناها، فيملأ قلبها من الايمان الاطمئنان فلا تبدي من أمره شيئا حتى يأتي وعد اللَّه.

اجل و في مثل هذه الحالة الموحشة المضطربة لا يتمكن انسان أيا كان أن يملك نفسه و قلبه الفارع إلّا ان يدركه الملك المنان.

و قد تعني «فارغا» الفراغ عن كل هم و غم، لمّا رأته في البلاط الفرعوني قرة عين، «فارغا» و فرحا لحد «إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ» انه ولدها «لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى‏ قَلْبِها» تضبيطا له كيلا تتفلت في مصارحة لا اختيارية «رَبَطْنا .. لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

و لكن‏ «لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» تشي إلى ضعف في ايمانها بفراغ قلبها، فلما «رَبَطْنا عَلى‏ قَلْبِها» خرج عن فراغها إلى ايمانها بوعد اللَّه: «إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

ثم «و أصبح» هنا بعد اللتيا و التي- لا عند الوحي إليها- لا تناسب إلّا فراغ اللّااطمئنان، و هذه طبيعة الحال في فؤاد غير المعصوم مهما اوحي اليه ما يطمئنه، ثم‏ «رَبَطْنا عَلى‏ قَلْبِها» تحكيم على قلبها المتقلب المتمزق المتفرق، الفارغ الخاوي عما وعد اللَّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 304

و قد تؤيد ذلك الفراغ‏ «وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» بعد ردّه إليها، و الفراغ عن كل هم و غم هو العلم بان وعد اللَّه حق! و قد يلمح ذلك الفراغ لفؤادها، أنها لمحت بالتقاطه ففزعت، فلذلك:

وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ‏ 11.

فهذه القالة بفراغ الفؤاد لمحة لامعة بقضية الحال، أنها لما قذفته في اليم تبعته ناظرة إلى الأمواج اين تحوّله، فبصرت به يلتقطه آل فرعون، فأصبح فؤادها فارغا فقالت لأخته قصيه، و لو لا أنها لمحت به خارج اليم لم تكن لقالتها هذه أية مناسبة!.

«قصيه» اتبعي أثره نحو القصر «فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ» إبصار البصيرة، لا فقط ابصار البصر، ف «أبصر» هي في ابصار البصر، و «بصر به» هي البصيرة، ام الإبصار في خفية، و لقد بصرت به خفية و بكل وجودها «عن جنب»: مكان بعيد و مجانبة مزورة في نظرتها ألّا ينظر إليها و إلى نظرتها، فالجنب يشملها «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» أنها بصرت به، رغم الرقابة التامة التي هي قضية الحال في مثل ذلك اللقيط! أم‏ «لا يَشْعُرُونَ» انها أخته لأنها ما بصرت به كأخت إلى أخ، و إنما كمتفرج إلى القصر بشاطئ البحر، و على أية حال كان بصرها به في خفية و سترة كيلا يخيّل إليهم إن رأوها أن لها صلة بموسى‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 121- اخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أبي روّاد ان رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال لخديجة: اما علمت ان اللَّه قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران و كلثوم اخت موسى و آسية امرأة فرعون؟ قالت: و قد فعل اللَّه ذلك يا رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)؟ قال: نعم، قالت: بالرفاء و البنين،

و

فيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 305

هنا اطمأنت أم موسى عن فراغ فؤادها، متأكدة أنه آمن في البلاط، و لكنها راجية بعد رجوعه لترضعه كما وعد اللَّه، و كان كما رجت:

وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى‏ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ‏ 12.

ما كانت الخطوة الأولى إلّا للحفاظ على حياة موسى و كونه، ثم إلى الخطوة الثانية لحيويته و كيانه، إذ لا يصلح أن يرتضع من أية مرضعة و لا سيما القبطيات المشركات‏ «وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ» حرمة تشريعية و تكوينية، و هو اللَّه تعالى المتكفل لإبعاده عن المراضع إلّا أمه، و هو الملهم له ألّا يرتضع من أية مرضعة إلّا أمه فكان كما أراد اللَّه و ارتضاه.

و «المراضع» جمع مرضع و قد يجمع هنا المصدر و مكان الرضعة و زمانها، فمكانها هو الثدي فلا يقبل أي ثدي، و زمانها زمان الحاجة إلى الرضاع، و الحرمة حلقت على كل زمان و كل مكان للرضعة، و حتى إذا أخذ لبن من مرضعة حتى يشربه دون مرضعة فكذلك الأمر، حيث التحريم شامل للرضعة بأصلها و زمانها و مكانها.

و «من قبل» قد تعني من قبل اقتراح أختها، و أخذهم إياه من اليم، و من قبل ولادته و انعقاد نطفته، حيث المراضع غير الصالحة لا تناسب الرسالة الصالحة، «وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي» لا تتناسب الرضعة الطالحة «فقالت ...».

هنا فجوة بين القصة، و طبعا هي انه لم يقبل اي مرضع و كان جائعا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اخرج الطبراني و ابن عساكر عن أبي امامة قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): ما شعرت ان اللَّه زوجني مريم بنت عمران و كلثوم اخت موسى و امرأة فرعون فقلت: هنيئا لك يا رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 306

عطشا، فكانوا ناظرين إلى مرضع يقبله، فجاءت أخته فيمن جئن حسب الطلب، للإدلاء إلى من ترضعه «قالت» متسائلة لصالحهم، متنكرة «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى‏ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ» كفالة الرضاعة و سواها، لا فحسب بل‏ «وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ» كما يناسب لقيط البلاط و قرة عين فرعون و زوجه.

و بطبيعة الحال هم يقبلون و يقبلون إلى أهل بيت يكفلونه في بعدي الكفالة اللائقة المرغوبة المرموقة، و طبعا بجعل على الكفالة

«.. ترضع ولدها و تأخذ أجرها» «1»،

و تراهم كيف لم يتفطنوا بما قالت انها على معرفة بمن يناسب تلك الكفالة، فيفتشوا عن مصدره و مورده علّه أهل بيت موسى نفسه؟

لقد أعماهم اللَّه عن ذلك و هم في حالة محرجة مخرجة لهم عن كل هم إلّا الحصول على من يكفله، و أخيرا:

فَرَدَدْناهُ إِلى‏ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ‏ 13.

لقد ارتدت اللقطة إلى أمه الملهوفة، بارادة اللَّه، ل «كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها» بحضانته «و لا تحزن» لفراقه‏ «وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» بعد ما ربط اللَّه على قلبها و وعدها من قبل أن يرده إليها «وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» حقّ الوعد و الوعد الحق من اللَّه للأولى أو الأخرى، و «لا يعلمون» هذا يعني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 123- اخرج ابو داود في الراسيل عن جبير بن نفير قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) مثل الذين يغزون من امتي و يأخذون الجعل يعني يتقون على عدوهم مثل ام موسى ترضع ولدها و تأخذ أجرها.

و

في البحار 13: 27 قال الراوي‏ قلت لأبي جعفر (عليه السلام) فكم مكث موسى غائبا عن امه حتى رده اللَّه عليها؟ قال: ثلاثة ايام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 307

جهل التجاهل و التغافل عن تقصير دون قصور، اللهم إلّا بتقصير.

و ما الذي حصل بعد حتى بلغ أشده؟ النص ساكت عن هذه الفجوة لأنها ليست من صحيح القصص المرام في الدعوة القرآنية، فانما ينتقل من رضاعه إلى بلوغ أشده مع العلم أنه في هذه الفترة كان كما قال اللَّه‏ «وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي» أينما كان و أيان.

[سورة القصص (28): الآيات 14 الى 21]

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى‏ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى‏ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى‏ فَقَضى‏ عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى‏ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18)

فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى‏ أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى‏ قالَ يا مُوسى‏ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 308

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى‏ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ‏ 14.

الأشد جمع الشّدّ و أقله ثلاث شدّات هي: شدّ العقل و الرشد إلى شد الجسم، و ترى‏ «حُكْماً وَ عِلْماً» هنا هما الرسالة و علمها؟ و آية الشعراء تؤجلها إلى ما بعد رجوعه إلى مدين!: «فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ» (21) فلم يكن قبلئذ رسولا فهو حكم غير رسالي! علّهما من ذي قبل حكم النبوءة و علمها قبل الرسالة، حيث الحكم و العلم للأنبياء درجات، ابتداء من الوحي غير الرسالي و هو النبوءة، ثم الرسالي، و من ثم النبوّة و هي الرفعة بين المرسلين، ثم ولاية العزم و هي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 309

الإمامة بين سائر المرسلين، و في الختام إمامة الأئمة الرسالية ككل و هي الخاصة بخاتم النبيين (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و قد تدرّج موسى إلى ما قبل الأخيرة، و كما ان بلوغ الأشد هو اكتمال هذه الثلاث و هو في العادة بين 18 سنة و 30 «1»، كذلك «استوى» بعد هو القيام بنفسه في حاجيات الحياة و هو إلى الأربعين بل هو من منتجات بلوغ الأشد، و هنا «آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً».

و هذه هي ضابطة الحكم و العلم الرباني‏ «وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» كلا على قدر إحسانه، و ما قدّره اللَّه من كيانه، من مؤمن امتحن اللَّه قلبه بالايمان إلى أوّل العابدين و خاتم النبيين (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)، و لأن الحكم الرسالي و علمه ليسا جزاء الإحسان، و إلّا أصبح كل محسن رسولا، فلا يعني‏ «حُكْماً وَ عِلْماً» هنا الرسالة، فقد تكون نبوءة الوحي أمّا دونها من إلهامات غيبية هي من مخلفات الحالات التصفوية للمحسنين.

فكون الحكم و العلم جزاء إحسانه كما «وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ» بعد رجوعه من مدين، هذان برهانان ساطعان على أن‏ «حُكْماً وَ عِلْماً» هنا لا يعنيان الرسالة.

و هنا نتلمح ان بلوغه أشده و استواءه كان عند بلوغه الثلاثين حيث الرسل يرسلون عند الأربعين، و كان بين الحكمين عشر سنين.

أ تراه في هذه الفترة و هي زهاء ثلاثين سنة أم تزيد، تراه ظل يترعرع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 117 عن معاني الأخبار بسند متصل عن الأحول عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في قول اللَّه عز و جل‏ «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى‏» قال: أشده ثمان عشر سنة و استوى التحى.

و

في أحاديث متظافرة انه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة، اللهم إلا يحيى في وجه من الآية «وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 310

في البلاط الفرعوني، مستريحا في حياة تحضيرية لتلك الرسالة السامية، و هو يرى كيف يسام قومه سوء العذاب بتذبيح الأبناء و استحياء النساء و سائر البغي اللئيم، و ابشع صورة للفساد الشايع الأثيم؟

ليست هذه سيرة المحسنين الذين يجزون حكما و علما! بل كانت حياته في تلك الفترة إحسانا حسب المكنة بشعبه منذ غلمته‏ «1» و كما أغاث الذي من شيعته على الذي من عدوّه، فقد كان عطوفا بشيعته، رقيبا عليهم، و بطبيعة الحال منعزلا عن التأثر من جو البلاط الطاغي كما يمكن في تقية تحافظ على كيانه على قدر إمكانه، و تلمح لهذه الحالة اجمالة «وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» تعقيبا رقيبا على بيئته قبل ان يؤتى حكما و علما هكذا، و كما دخوله المدينة على حين غفلة من أهلها لمحة صارحة باتبعاده عن المدينة خوفة من جلاوزة البلاط!:

وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى‏ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى‏ فَقَضى‏ عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ‏ 15.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 117 عن تفسير القمي: .. فلما درج موسى كان يوما عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد للَّه رب العالمين، فأنكر فرعون ذلك عليه و لطمه و قال: ما هذا الذي يقول؟ فوثب موسى على لحيته و كان طويل اللحية فهلبها أى قلعها فألمه ألما شديدا فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته: هذا غلام حدث لا يدري ما يقول و قد لطمته بلطمتك إياه فقال فرعون: بلى يدري، فقالت له: ضع بين يديه تمرا و جمرا فإن ميز بين التمر و الجمر فهو الذي تقول، فوضع بين يديه تمرا و جمرا و قال له كل فمد يده إلى التمر فجاء جبرئيل (عليه السلام) فصرفها إلى الجمر فأخذ الجمر في فيه فاحترق لسانه و صاح و بكى فقالت آسية لفرعون: الم أقل لك إنه لم يعقل؟ فعفى عنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 311

«وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ» فيه احتمالان اثنان، أن كان خارج المدينة خوفة من فرعون و ملإه ثم دخلها فرأى ما رأى؟ أم كان القصر الملكي خارج المدينة

«فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامة حتى بلغ مبلغ الرجال و كان ينكر عليه ما يتكلم به موسى من التوحيد حتى هم به فخرج موسى من عنده و دخل المدينة ..» «1».

كل محتمل و الجمع أجمل، فعلّه كان يتردد في القصر و يقول قالة التوحيد و يفعل فعلته عندهم فهمّ به فرعون حتى‏ «دَخَلَ الْمَدِينَةَ ..» لآخر مرة ثم لم يرجع إلى فرعون إلّا بعد رجوعه من مدين رسولا، و لقد كان من المحسنين حين كان في البلاط، دون أي تأثر بذلك الجو المظلم الظالم و لا تربّ إلّا ربوة جسدانية «قالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ» (26: 18) و على أية حال‏ «دَخَلَ الْمَدِينَةَ» و هي بطبيعة الحال مصر «عَلى‏ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها» و حين الغفلة قد تلمح أنه كان ملاحقا في المدينة من قبل السلطة و عيون القصر إذ «هم به فرعون» «2» و قد تلمح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 13: 27 عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في تفصيل القصة.

(2)

البحار 13: 36 بسند متصل عن سعيد بن جبير عن سيد العابدين علي بن الحسين عليهما السلام عن أبيه سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام عن أبيه سيد الوصيين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) لما حضرت يوسف الوفاة جمع شيعته و أهل بيته فحمد اللَّه و أثنى عليه ثم حدثهم بشدة تنالهم يقتل فيها الرجال و تشق بطون الحبالى و تذبح الأطفال حتى يظهر اللَّه الحق في القائم من ولد لاوي بن يعقوب و هو رجل أسمر طويل و وصفه لهم بنعته فتمسكوا بذلك و وقعت الغيبة و الشدة ببني إسرائيل و هم ينتظرون قيام القائم اربعمائة سنة حتى إذا بشروا بولادته و رأوا علامات ظهورته اشتدت البلوى عليهم و حمل عليهم بالخشب و الحجارة و طلب الفقيه الذي كانوا يستريحون إلى أحاديثه فاستتر و تراسلوه و قالوا: كنا مع الشدة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 312

«حين» انه وقت الاستراحة النوم لأهل المدينة، و لكنه دخول قاصد ذلك الحين إذ كان يخافهم من فرعون و ملإه، و إلّا فلما ذا دخلها على حين غفلة من أهلها؟.

«فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ» و هذا مما يدل على أنه كان معروفا لدى شعبه و أتباعه في الايمان، خلاف الآخرين، فان «من شيعته» دون من أشياعه، و «من عدوه» دون من أعداءه، مما يوضح ذلك في بعدين ثانيهما ان «هذا» الأوّل صادر منه صدور الأشياء من مصادرها و هو هنا مصدر الايمان، و «هذا» الثاني صادر من عدوه فرعون و هو مصدر الكفر، إذا فالأول موحد و الثاني مشرك، و المشرك المحارب يجوز أو يجب قتاله و قتله إلا في ظروف استثنائية تتغلب على صالح الموقف.

«فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ» و هذه الإستغاثة مما يؤكد وجوب إغاثة المؤمن على الكافر.

«فَوَكَزَهُ مُوسى‏ فَقَضى‏ عَلَيْهِ» و الوكز هو الضرب بجميع الكف و ليس هو قتلا، فلا أنه قصد قتله، و لا أن الوكز مما يقتل في العادة، و لكنه صادف أن قضى عليه بوكزه إذ كان قويا، و حالة الدفاع عن المؤمن حالة استثنائية تقوي الضعيف فضلا عن القوي، فقد وقع ما لم يقصد و قصد ما لم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نستريح إلى حديثك فخرج بهم إلى بعض الصحارى و جلس يحدثهم حديث القائم و نعته و قرب الأمر و كانت ليلة قمراء فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم موسى (عليه السلام) و كان في ذلك الوقت حديث السن و قد خرج من دار فرعون يظهر النزهة فعدل عن موكبه و اقبل إليهم و تحته بغلة و عليه طيلسان خزّ فلما رآه الفقيه عرفه بالنعت فقام اليه و انكب على قدميه فقبلهما ثم قال: الحمد للَّه الذي لم يمتني حتى أرانيك فلما رأى الشيعة ذلك علموا انه صاحبهم فأكبوا على الأرض شكرا للَّه عز و جل فلم يزدهم على ان قال: أرجو ان يعجل اللَّه فرجكم ثم غاب بعد ذلك و خرج إلى مدينة مدين ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 313

يقع‏ «قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ»، أ تراه يشير ب «هذا» إلى عمله؟ و كيف يكون عمل موسى- الذي أتاه اللَّه حكما و علما بإحسانه- من عمل الشيطان! لا ريب أن دفاعه عن الذي من شيعته بوكزته كان قضية الايمان و من عمل الرحمن، و حاشاه ان ينسبه الى الشيطان، فقد

«يعني الاقتتال الذي كان وقع بين الرجلين لا ما فعله موسى من قتله» «1»

بوكزه دون تقصّد لقتله.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 13: 32 ج، ن في خبر ابن الجهم قال‏ سأل المأمون الرضا (عليه السلام) عن قول اللَّه عز و جل‏ «فَوَكَزَهُ مُوسى‏ فَقَضى‏ عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» قال الرضا (عليه السلام): إن موسى (عليه السلام) دخل مدينة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها و ذلك بين المغرب و العشاء فوجد فيها رجلين ... فقضى موسى (عليه السلام) على العدو بحكم اللَّه تعالى ذكره فوكزه فمات قال: هذا من عمل الشيطان، يعني الاقتتال الذي كان وقع بين الرجلين لا ما فعله موسى (عليه السلام) من قتله، إنه: يعني الشيطان، عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ».

قال المأمون: فما معنى قول موسى: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي»؟ قال:

يقول: إني وضعت نفسي غير موضعها بدخولي هذه المدينة «فَاغْفِرْ لِي» أى استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلوني‏ «فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ‏، قال موسى: «رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ» فن القوة حتى قتلت رجلا بوكزة «فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ» بل أجاهد في سبيلك بهذه القوة حتى ترضى «فأصبح» موسى (عليه السلام) «فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ» على آخر «قالَ لَهُ مُوسى‏ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ» قاتلت رجلا بالأمس و تقاتل هذا اليوم، لأودينك و أراد أن يبطش به. فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما» و هو من شيعته قال يا موسى أ تريد ان تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ان تريد إلا ان تكون جبارا في الأرض و ما تريد ان تكون من المصلحين.

قال المأمون جزاك اللَّه خيرا يا أبا الحسن فما معنى قول موسى لفرعون‏ «فَعَلْتُها إِذاً

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 314

أم يعني «هذا» الذي «من عدوه» أنه من عمل الشيطان كما قال اللَّه لنوح عن ابنه‏ «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ» «إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ» يعمل أشياعا له كهذا العدو، ثم يحملهم على عمله؟ أم ان «هذا» يعنيهما، هذا العدو و عمله، و ما أجمله جمعا، و هما مما أجّلا الرسالة الموسوية، معجّلا له ارادة القتل‏ «وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» و تراه إذا لم يكن عمله من عمل الشيطان فكيف يستغفر ربه فيه بما ظلم:

قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ‏ 16.

«نفسي» هنا دون غيري مما يذود عن ساحته القتل ظلما، فانما يعني بظلمه نفسه هنا الانتقاص غير القاصد بقتل الذي من عدوه في نصرة الذي من شيعته، إذ خلّف ملاحقته الشديدة من قبل السلطة الفرعونية، فقتلا له بقتله أو تأخيرا لرسالته الموعودة، فطالما الظلم هنا لا يعني التعدي الى غيره، كذلك لا يعني في انتقاص نفسه انه كان قاصدا فيه، فطلب من ربه الغفر الكامل و الستر الشامل عما يرصده من قتل «فغفر له» فدفع كيد فرعون ثم أرسله اليه بعد ردح من زمن رحلته إلى مدين.

فالغفر لموسى (عليه السلام) كما الغفر لرسول الهدى في الفتح‏ «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ» مهما كان بينهما بون من ناحية اخرى هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ» قال الرضا (عليه السلام) إن فرعون قال لموسى (عليه السلام) لما أتاه‏ «وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ» بي قال موسى‏ «فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ» عن الطريق بوقوعي إلى مدينة من مدائنك» «فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ» .. (عن الاحتجاج 234 و عيون الأخبار 110).

أقول: هو من شيعته اختلاق كما يأتي، كما لأؤدبنك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 315

الخطاء فيما فعله موسى و لم يخطأ رسول الهدى (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)! و لو لا ذلك القتل الخاطئ دونما تقصّد لم يضطر موسى (عليه السلام) إلى الفرار، و لا تأخرت رسالته عشر سنين.

و الغفر في خلفية القتل كان عاجلا في الذب عن قتله، و آجلا في بداية رسالته بعد ذلك الردح البعيد من الزمن‏ «ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏» (20: 40).

قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ‏ 17.

و قد تعني هذه النعمة اضافة الى نعمة النبوءة و الايمان نعمة الذب عن قتله و الغفران، و القوة الدفاعية القاضية على عدوّ له، و «لن» تحيل باختياره ان يكون ظهيرا للمجرمين، كما لم يكن ظهيرا لهم و هو يعيش في قصر الإجرام، ثم لما رأى قتالا بين عدو له و شيعة نصر شيعته على عدوه مهما اخطأ في قتله، حيث الظروف ما كانت تساعد على ذلك القتل- مهما كان مسموحا في أصله‏ «1»- إذ خلّف الفرار عن مسرح الدعوة، و خوفة الانتقام في فترة من الزمن بعيدة، و ليس يعني الذي من شيعته فيمن يعنيه «المجرمين» إذ بطش مرة ثانية لتخليصه و هذه مظاهرة، مهما كان من المجرمين من أوقع غيره في جرم أو من أدت إعانته إلى جرم، إذ لم تكن و كزته جرما حيث لم يقصد قتله، و انما قصد تخليص الذي من شيعته، كما و لم تكن المقاتلة من ناحية المؤمن قصدا إلى إدخال موسى في الجرم!.

و هنا ندرس ان و كزة الدفاع مقصورة على قدر الدفاع حتى مع الكافرين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 122- أخرج احمد في الزهد عن وهب قال‏ قال اللَّه عز و جل بعزتي يا ابن عمران لو أن هذه النفس التي وكزت فقتلت اعترفت لي ساعة من ليل أو نهار بأني لها خالق لأذقتك فيها طعم العذاب و لكن عفوت عنك في أمرها أنها لم تعترف لي ساعة من ليل أو نهار إني لها خالق أو رازق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 316

فضلا عن المؤمنين، اللهم إلّا في جهاد العدو في الدين، فهنا القتل مسموح مهما كان بدائيا أو وقائيا، فموسى يقضي بوكزة واحدة على عدوه المهاجم على شيعة له، مما يشي يبالغ قوته و فتوته، مصورا مدى انفعاله و غضبه، و ما كان يخالجه من الضيق بفرعون و ملإه الظالمين بحق أشياعه المضطهدين، و لكن لما رآه جثة هامدة خامدة بين يديه ندم على هذه الصدفة الهائلة فاستغفر ربه و أناب اليه و استنجده لموقفه الحرج المخيف، فأنجده اللَّه.

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى‏ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ‏ 18.

مضى يوم «فأصبح» لغده «خائفا» خلفيّة قتله بالأمس «يترقب» الفرج من ربه، ام و «يترقب» منفذا عن مضيقة، أو يترقب الفضيحة في انكشاف امره و خلفية الأذى، ملتفتا متوجسا يتوقع الشر في كل لحظة، مما يؤكد حساسية القصر ضده منذ أمد، و إلّا فما أرخص لرجل القصر، المتبنّى لفرعون، أن يقتل أيا كان من الشعب، فقد كان حين دخل المدينة منفصلا عن القصر، معروفا لدى شيعته لحد عرفه هذا الذي من شيعته، كما عرفه عدوه الثاني إذ «قالَ يا مُوسى‏ أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ ...»!

مضى يوم عن الواقعة و هو «خائِفاً يَتَرَقَّبُ»- «فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ» من شيعته «يستصرخه» في اقتتال ثان مع عدو لهما ثان، محنة بعد محنة، مما يحرّج موقفه اكثر مما كان، «قالَ لَهُ مُوسى‏ إِنَّكَ» دون شك «لغوي» عن صراط الحق «مبين» غوايتك، و الاستصراخ هي طلب الصرخة أن تطلّب من موسى بصرخة ان يصرخ على عدوه الثاني قالة و فعالة كما فعل بالأمس على الأوّل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 317

و تراه كيف يهتف بشيعة له حالة اقتتاله مع عدو له‏ «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ»؟ لأن اقتتال شيعته مع الأعداء الفرعونيين- و لمّا يحن حينه، و لا قويت لموسى يمينه، و هو في بداية أمره- ذلك القتال العجال غير صالح في هذا المجال، كما و ان رسول الهدى (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و أصحابه لم يقاتلوا أو يدافعوا في العهد المكي إذ ما حان- بعد- حينه حتى جاء العهد المدني فسمح له في الدفاع و الجهاد.

ثم الدعوة الرسالية مهما كانت قوية، ليست لتبدئ بالقتال و القتل و القسوة، و إنما بالحكمة و الموعظة الحسنة و الجدال بالتي هي احسن، ثم القتال إذا وجد له مجال.

فموسى الذي هم به فرعون، و هو هارب من بأسه فيدخل المدينة على حين غفلة من أهلها، كيف يجوز لشيعة له ان يكدّر عليه الجو اكثر مما كان فيقاتل عدوا لهما، فيفرض عليه نصره فقفزه فالقضاء عليه، ثم يكرر بعد يوم نفس المسرح، مما يحرّج موقفه الرسالي اكثر مما حرّج أول مرة، إذا فحق له هتافه‏ «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ».

اجل، غوي بعراكه هذا الذي لا ينتهي إلّا إلى ثائرة نائرة على موسى و بني إسرائيل ككل.

و هم بعد ضعفاء، ما حانت لهم الثورة «مبين» تلك الغواية في المدينة حيث ضاعت و شاعت و تشيع اكثر مما كانت فتجتث اصول الثورة المستقبلة الرسالية، و قد تلمح‏ «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ» انه ممن أشير إليه من ذي قبل ب «هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» لا فحسب الذي من عدوه، و المقاتلة، بل و الذي من شيعته حيث اقدم على المقاتلة، إذا ف «هذا» ثالوث الشيطنة و موسى قد ابتلي بها لحد يستغفر ربه من خلفياتها و لم يعمل هو إلّا واجبه دفاعا عن نفس مؤمنة، مهما اخطأ طورة بقفزه القاتل دون تقصّد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 318

«إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» تعنيه كرسول، و في ذلك القتل قتل له أو لرسالته‏ «فَاغْفِرْ لِي» سترا لما يتربص بي من دوائر السوء «فَغَفَرَ لَهُ» نجاتا عن قتله و إبقاء لرسالته و إن تأخرت عشر سنين.

لقد وقع موسى هنا في مأزق ثان كالأوّل، فهل يقفز تعجيلا فكالأول، ام هل يحفز تأجيلا، و الحفاظ على النفس المؤمنة واجب؟ فإنما يبطش بالفعل دون قفز قاض و لا حفز منحاز:

فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى‏ أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ‏ 19.

«بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما» طبعا هو القبطي الفرعوني، أ ترى‏ «قالَ يا مُوسى‏» هي قالة الإسرائيلي لأنه اغتاظ بكلامه‏ «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ» فظن انه يقصد ببطشه إلى قتله، فوبخه ببطشته تأنيبا له‏ «أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي ...»

فعرف القبطي ان موسى هو الذي قتل منهم نفسا بالأمس فأخبر فرعون الخبر فائتمروا بموسى فجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ..؟

و إرادة البطش بالذي هو عدو لهما ظاهرة الهدف ان ليس هو الذي من شيعته! و غواية المؤمن لا تقتضي قتله و هو يحارب المشرك! و لا مرجع صالحا لضمير الغائب في «قال» إلّا «بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما» فإنه الأقرب لفظيا و معنويا! و «كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ» لا تناسب إلا نفسا كهذه النفس و هي العدوة لهما، إذ لا صلة و لا مماثلة بين قتل الإسرائيلي المؤمن المهاجم، و قتل القبطي الكافر المهاجم! ثم و لا تأنيب في قتله نفسا بالأمس إذ كان دفاعا عن الذي من شيعته فكيف يؤنبه فيه! ثم و كيف يليق به القولة الفاتكة «إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ» فإنه ارتداد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 319

عن الايمان فطريا يستحق به القتل فليقتله به‏ «1»! و لعمر إلهي الحق ليس ذلك إلا تسفيرا للقرآن عن مغزاه و مرماه و ليس تفسيرا «2»، فإن هي إلا قولة الذي هو عدوّ لهما، و لم تكن القتلة السابقة مما تخفى- و هي القاتلة- من داعية إسرائيلي رباه فرعون عمرا من قبلها، فشاعت في المدينة، و القتلة المكررة من داعية تجعله جبارا في الأرض و تنفي عنه كونه مصلحا فيها، حسب الظاهرة في بداية الدعوة.

و هذه شيمة شنيعة من المتجبرين المستكبرين ان الدفاع عن الظلم إفساد و جبر، حتى ليسمي القبطي دفاع موسى عن الاسرائيلي تجبرا في الأرض يطارد الإصلاح!.

فقد تفسد الفطرة العامة الإنسانية لحد يرون الظلم فلا يثورون عليه، بل و ينكرون على الثائرين ضد الظلم، إذ لا يعطون حق الدفاع للمظلومين المضطهدين، و فوق كل ذلك يسمون الدافع عنهم و عن الظلم‏ «جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ» كما قاله القبطي، لأنهم ألفوا الطاغية تطغى و لا ثورة ضده،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 13: 27 القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في رواية القصة .. فلما كان من الغد جاء آخر فتشبث بذلك الرجل الذي يقول بقول موسى فاستغاث بموسى فلما نظر صاحبه إلى موسى قال له: أ تريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس فخلى صاحبه و هرب ..

أقول: و هذا هو الصحيح الملائم للآية.

(2)

نور الثقلين 4: 119 في عيون الأخبار باسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون ...- إلى أن قال-:

«قالَ لَهُ مُوسى‏ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ» قاتلت رجلا بالأمس و تقاتل هذا اليوم لأؤدبنك و أراد أن يبطش به‏ «فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما» و هو من شيعته‏ «قالَ يا مُوسى‏ ...»!

أقول كيف هو من شيعته و هو عدو لهما أي موسى و القبطي أن هذا إلّا بهتان مبين!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 320

فحسبوا ان الطغيان حقه المطلق و الثورة تخلّفة عن الإصلاح! فإذا رأوا مظلوما يصرخ أو يستصرخ، أم عطوفا يجيب إلى صرخته فيدافع عنه، حسبوه جبارا في الأرض، متخلفا عن السنة المتبعة و هي الحياد أمام الطاغي و الانقياد للباغي!.

أجل إنه لا ينكر أن الاشتباكات الفردية للداعية شبكات لانزلاقه في الفخ، إذ لا تجدي في قلب الأوضاع الغاشمة، كما كف اللَّه المسلمين في العهد المكي عن تلكم الاشتباكات حتى آن أوانه، و لذلك يخاطب موسى من سببها ب «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ» و اعترف على نفسه « «إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» و لكنه ليس بذلك جبارا في الأرض، و إنما وقع في فخّ من وكزته دفاعا واجبا عليه في الظرف المختلق خلاف ما يهواه.

لقد تفشى خبر قتله بالأمس رجلا من رجال فرعون، و هو طبيعة الحال، قضية استطارة الغضب من آل فرعون على موسى الملاحق من قبله، و استطارة الفرح في بني إسرائيل، فالقبيلان- إذا- هما إذاعتان لإشاعة ذلك النبإ حتى فشى و تطاير بين كل الجماهير، و منهم هذا الذي أراد موسى ان يبطش به، فائتمروا به ليقتلوه فنجاه اللَّه من القوم الظالمين:

وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى‏ قالَ يا مُوسى‏ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ 20 فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏ 21.

و يا لرجال من أقصى المدينة، ليسوا في أوساطها كالأغلبية الساحقة من المترفين، بل هم العائشون في حوامشها البعيدة القاصية، يا لهم من رجولات و بطولات للحفاظ على الرسالات الإلهية، فهنا «رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ» إلى موسى، و هناك‏ «رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ» إلى رسل عيسى،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 321

و لا رجل من أوساطها هنا و هناك ينصر المرسلين، و قد يكون هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون‏ «وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ...» (40: 28) «1».

و قد يتعلق‏ «مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ» بمقدر كما تتعلق ب «جاء» «رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ جاء من أقصى المدينة»- «يسعى» مسرعا إلى موسى‏ «قالَ يا مُوسى‏ إِنَّ الْمَلَأَ» الفرعوني «يأتمرون» فرعون‏ «بِكَ لِيَقْتُلُوكَ» كما قتلت نفسا بالأمس و هممت اليوم بطشا بآخر «فأخرج» منها إلى مكان سحيق لا يعرفونه‏ «إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ» و بالنتيجة:

«فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً» من ائتمارهم «يترقب» الفرج و النجاة الموعود حينما استغفر ربه فغفر له‏ «قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» فهو المظلوم في ذلك المسرح و ليس بظالم إلّا نفسه غير متقصد! و ان موسى قتل منهم نفسا فخرج منها خائفا يترقب، و الحسين (عليه السلام) لم يقتل منهم نفسا و خرج من المدينة خائفا يترقب! و اين خروج من خروج‏ «2».؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 119 في تتمة القصة على طولها عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) و كان خازن فرعون مؤمنا بموسى (عليه السلام) قد كتم إيمانه ستمائة سنة و هو الذي قال اللَّه عز و جل: «وَ قالَ رَجُلٌ ...» و بلغ فرعون خبر قتل موسى الرجل فطلبه ليقتله فبعث المؤمن إلى موسى (عليه السّلام) إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْها» كما حكى اللَّه عز و جل‏ «خائِفاً يَتَرَقَّبُ» قال: يلتفت يمنة و يسرة و يقول: «رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»

أقول: «فبعث ..» خلاف نص الآية انه‏ «جاءَ ... يَسْعى‏» ثم و مجيئه بنفسه إلى موسى لا يناسب كونه خازن فرعون لأنه تهدير لدمه، فقد يجوز انه قبطي مؤمن غير معروف في البلاط جاء بنفسه ليحذر موسى.

(2)

المصدر 4: 120 في ارشاد المفيد في مقتل الحسين (عليه السلام) فسار الحسين (عليه السلام) إلى مكة و هو يقرء «فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» و لزم الطريق الأعظم فقال له أهل بيته: لو تنكبت الطريق الأعظم كما صنع ابن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 322

[سورة القصص (28): الآيات 22 الى 28]

وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى‏ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (22) وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقى‏ لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)

قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى‏ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلى‏ ما نَقُولُ وَكِيلٌ (28)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 323

«مدين» هي مدينة شعيب، المرسل إلى أهله: «وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ» (7: 85) و قد جاء ذكرها عشر مرات في الذكر الحكيم، و هي واقعة تجاه تبوك على بحر القلزم، بينهما ست مراحل، و هي اكبر من تبوك، و بها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب عليهما السلام، و بينهما و بين مصر مسيرة ثمان و قد كانت خارجة من سلطان فرعون.

وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى‏ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ‏ 22.

تلقاء الشي‏ء حذاءه و قباله حيث يلقى به، من «لقى تلقية و تلقاء» و لكنه لقاء من بعيد يوصل إلى لقاء القريب، فقد خرج من المدينة متوجها تلقاء مدين فريدا طريدا خائفا يترقب الفرج، منزعجا بنذارة الرجل من أقصى المدينة دون تزود بزاد و لا ترحّل براحله، راحلته رجلاه، و زاده ترجي هدى اللَّه‏ «قالَ عَسى‏ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ» إلى مدين واردا سليما و إلى المدينة راجعا رسولا منذرا، و بينهما السبيل إلى تشكيل العائلة.

فهنا نجد موسى بعد ردح من عمره منذ ولادته حتى رجولته في نعومة العيش في البلاط، نجده في قلب المخافة، يطارده فرعون و ملأه، لينالوا منه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الزبير لئلا يلحق الطلب، فقال: لا و اللَّه لا أفارقه حتى يقضي اللَّه ما هو قاض، و لما دخل الحسين (عليه السلام) مكة كان دخوله إليها ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان دخلها و هو يقول: «وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى‏ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 324

اليوم في رجولته ما لم ينالوه منه في طفولته، و لكن اليد التي حمته هناك أحرى أن يحميه هنا: «وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي»! و تراه كيف عرف الطريق إلى مدين و لم تسبق له سابقة منه و ليس يكفيه سئوال الرجل الناصح لاهتدائه على طول الخط في الطريق؟.

«تَوَجَّهَ تِلْقاءَ» دون «توجه إلى» قد تلمح انه توجه تلقاءه تلقائيا و ما يدري هو انه متوجه تلقاءه، و إنما اللَّه هو الذي يدله إلى مدين، و «عَسى‏ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي» دليل أنه ما كان يعرف الطريق، و «تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ» دليل واقع التلقاء بما لقّاه اللَّه، و غير صحيح أن يسأل الناس عن الطريق و هو في مفازة المخافة، متسترا مقصده عنهم فرارا عن كيد المؤتمرين به ليقتلوه.

وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ 23.

لقد وصل إلى مدين و ورد ماءه، و هو بطبيعة الحال بداية ورده البلدة، وصل مكدودا مجهودا و هو بحاجة إلى رياحة «وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ» جماعة من مختلف الرعاء و سواهم يسقون أنفسهم و أنعامهم‏ «وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ» أبعد منهم إلى الماء بفصل فاصل‏ «امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ» و الذود هو المنع، و لأن المتعلق هنا مطلق فقد يعم ذودهما اغنامهما عن التفرق، و عن الخلط بأغنام الناس، و عن ورد الماء حتى يصدر الرعاء، و ذودهما الناس عن أغنامهما، و ذود أنفسهما عن الاختلاط بالرجال، و عن الاستعجال لورد الماء حتى يصدر الرعاء، و الذود عن أن ينظر إليهما، و كل ذود هو قضية الأدب في الشرعة الإلهية للنساء بين الرجال.

فهل من الوجدان في ذلك الوجدان ألّا يتأثر موسى من حالتهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 325

الحرجة، على كونه مكدودا؟ كلّا! و هو الرءوف الحنون حتى بشيعته الغوي المبين، فكيف لا يرأف بامرأتين ضعيفتين في هذا البين، فليسأل عنهما و قد سأل: «قالَ ما خَطْبُكُما» و الخطب هو الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب و التساءل، و لقد كان أمرهما- في أصل السقي و هما امرأتان، و في التأخر عن السقي- كان يبعث للتساؤل و التخاطب، فجاء الجواب عن الأمرين في ذلك الخطب الجلل.

أما التأخر عن السقي‏ «لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ» إنهاء لسقيهم و إخلاء للماء حتى نسقي و لا رعاء، مهما جئنا قبلهم ام قبل بعضهم، إذ نحتشم عن الخلط بالرجال الغرباء.

و أما أصل السقي لنا و لأنعامنا و نحن امرأتان؟ «وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ» لا يقدر على الرعي و مجالدة الرجال، فنحن على أنوثتنا و ضعفنا أقوى منه، و بطبيعة الحال ليس له أبناء حتى يكفوا عنه و عنّا، فسقينا- إذا- ضرورة معيشية تسمح لهكذا كدّ و كدح للسقي.

هنا تثور الغيرة الموسوية للإقدام على السقي لهما رغم حالته المحرجة، حيث لا تمنعه عن القيام بواجبه الحاضر، فيصبح خير ناصر لمن لا يعرفهما، و لكنه عارف عجزهما و حاجتهما إلى معين، و يعرف مرضات اللَّه في تلك الإعانة.

فَسَقى‏ لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ 24.

«فَسَقى‏ لَهُما» و كيف سقى، طبعا قبل ان يصدر الرعاء كلّا أو بعضا، فإن سقيه لهما بعد إصدارهم عن آخرهم ليست فيه معونة زائدة على سقيهما بعد الإصدار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 326

أ تراه سقى لهما حسب النوبة؟ أم تطلّب منهم تقدم النوبة؟ كلّ محتمل، و لكن القوة المعروضة في قالة إحداهما «إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ» إنها تخرج حالة السقي لهما عن العادة، فلتكن قوة بارعة خارقة أقوى من كل الرعاع، و هنا قد يصدق ما يروى انه كان يجتمع على الدلو رجال حتى يخرجوه من البئر لعظمه و ثقله‏ «1» فاستقل موسى بمفرده لإخراجه، مما سمح له منهم ان يسقي لهما قبل النوبة.

و أضف إليها القوة النفسية التي أوقعت في قلوب الرعاة هالة الانجذاب إليه، حيث الناس يتأثرون بالقوات النفسية اكثر من البدنية، فمن الجائز أنهما لمستا منه القوتين فاعترفتا عند أبيهما انه «قوي».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 120 القمي في تتمة القصة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) .. و مر نحو مدين و كان بينه و بين مدين مسيرة ثلاثة ايام فلما بلغ باب مدين رأى بئرا يستقي الناس منها لاغنامهم و دوابهم فقعدنا حية و لم يكن أكل منذ ثلاثة ايام شيئا فنظر إلى جاريتين في ناحية و معهما غنيمات لا تدنوان من البئر فقال: ما لكما لا تسقيان فقالتا كما حكى اللَّه عز و جل: «لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ» فرحمهما موسى (عليه السلام) و دنا من البئر فقال لمن على البئر أسقي لي دلوا و لكم دلوا و كان الدلو يمده عشرة رجال فاستقى وحده دلوا لمن على البئر و دلوا لبنتي شعيب و سقى أغنامهما ثم تولى إلى الظل فقال: رب اني لما أنزلت الي من خير فقير- كان شديد الجوع.

و

فيه عن كتاب كمال الدين و تمام النعمة عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) .. فانتهى إلى اصل شجرة فنزل فإذا تحتها بئر و إذا عندها امة من الناس يسقون و إذا جاريتان ضعيفتان و إذا معهما غنيمة لهما «قال ما خطبكما قالتا: أبونا شيخ كبير و نحن جاريتان صغيرتان لا نقدر ان نزاحم الرجال فإذا سقى الناس سقينا فرحمهما فأخذ دلوهما فقال لهما:

قدما غنمكما فسقى لهما ثم رجعتا بكرة قبل الناس ثم تولى موسى إلى الشجرة فجلس تحتها و قال «رب ..» فلما رجعت إلى أبيهما قال: ما أعجلكما في هذه الساعة؟ قالتا: وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لأحداهما اذهبي فأعديه لي فجاءته إحداهما ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 327

ثم الضعف الطارئ من أعباء السفر الشاق الطويل، على تخوّف، و حرّ الشمس كما «ثم تولى» منها «الى الظل» هذه مما ينهك القوي، فما أقواه موسى ان تغامض عن كل ذلك و سقا لهما قبل أن يصدر الرعاء دونما أجر حاضر و لا موعود، إلّا مرضات اللَّه.

«فَسَقى‏ لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى» عنهما «إلى الظل» ليستريح عن حرّ الشمس و وعثاء السفر، «تولّى» دونما تساءل آخر عنهما كيلا يخيّل إليهما أنه يريد منهما أجرا، أو يهواهما زواجا بديلا عما سقا لهما، و ذلك هو العفاف القاصد القاسط أمام المحاويج من النساء الأغارب، أن تقضى حوائجهن ثم يتولّى عنهن، و هذا أرغب لهن إلى الزواج إن أردنه، حيث التأبي الظاهر من الرجل القوي الأمين مما يثير رغباتهن.

«تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» و ما هو ما أنزل اليه ربّه؟ أهو الحكم و العلم؟ و قد أوتيهما من قبل! أم هو طعام يطعمه إذ كان جائعا مدقعا «1» فقد

«و الله ما سأله إلا خبزا يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض و لقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاف بطنه لهزاله و تشذب لحمه» «2»؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 125- اخرج ابن مردويه عن انس بن مالك قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه السلام) لما سقى موسى للجاريتين ثم تولى إلى الظل فقال رب اني لما أنزلت إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير- قال: انه يومئذ فقير إلى كف من تمر.

(2)

نهج البلاغة قال (عليه السلام) و ان شئت ثنيت بموسى كليم اللَّه صلوات اللَّه عليه إذ يقول‏ «إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» و اللَّه ...

و

في نور الثقلين 4: 121 في الكافي عن ابن أبي عمير عمن ذكره عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية قال: سأل الطعام، و العياشي عن حفص البختري عن أبي عبد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 328

و «لِما أَنْزَلْتَ» تدل على خير منزل عليه ماض، و لو كان هو الطعام الحاضر لم يكن بحاجة إلى دعاء الافتقار، و الصيغة الصالحة له «رب اني جائع» ام «فقير لما تنزله من طعام» ام ما شابه! اللهم إلا أن يعنى ب «من خير» القوة البدنية- اضافة إلى الروحية- التي استطاع بها ان يسقي لهما، ففقره إلى هذه القوة يتطلب طعاما يتقوى به ليستمر في هكذا إعانات في وجه اللَّه، ام خير قضاء الحاجة حيث أنزله اللَّه إليه فأدّى واجبه، ثم يتطلب من ربه قضاء حاجة الجوع جزاء وفاقا، و «لِما أَنْزَلْتَ» دون «إلى ما أنزلت» لمحة لطيفة إلى أنه يتسبب بما انزل إليه من خير لقضاء حاجته، حيث اللام هي السببية.

أم يعني خير قضاء حاجتهما، فهو مفتقر إلى مثله، متأهب لقضاء كل حاجة نازلة اليه من عنده تعالى و ذلك من شيم الخيّرين أن الحاجة المعروضة لديهم مهما كانت صعبة القضاء، هي خير منزل من الرب.

كما و يعني الامرأتين، أنني بحاجة إلى زواج إحداهما، و قد تعني‏ «لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ» كلما ذكر من خير الوحي و القوة البدنية و الروحية، و خير قضاء الحاجات، و خير حاجة البطن: الطعام، و خير حاجة الجنس:

الزواج، إظهارا للافتقار إلى كل ذلك، و قد ذكرت اللام في‏ «لِما أَنْزَلْتَ» لتعم السبب و الغاية، لسبب ما أنزلت و إلى ما أنزلت الي من خير فقير، و قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللَّه (عليه السلام) في قول موسى لفتاه: آتنا غداءنا و قوله‏ «رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» قال: انما عنى الطعام فقال ابو عبد اللَّه (عليه السلام) ان موسى لذو جوعات،

و

عن ليث بن سليم عن أبي جعفر (عليه السلام) شكى موسى إلى ربه الجوع في ثلاثة مواضع: «آتِنا غَداءَنا ..» «لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً»- «لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 329

أجاب ربه دعاءه من فوره، و قد يستبعد من ذلك المحتد الرسالي طلب الطعام و له من القوة ما يسقي لها و

«لا تحل الصدقة لغني و لا لذي قوة سوي» «1»

اللهم إلّا ضمن طلباته ليقوى على ما أعان، فعلى أية حال فليس يختص‏ «لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ» بطعام يأكله، إذ لم ينزل عليه بعد إلّا عند شعيب، و قد أنزل عليه من قبل الجاريتين بحاجتهما، و لذلك فرع مجيئهما بدعائه كإجابة عاجلة:

فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏ 25.

لما «قال‏ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ»- «فَجاءَتْهُ إِحْداهُما» دون فصل إلّا قدر السير المرجّع إلى أبيها، حال انها «تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ» فان أمرها ظاهر، و لا سيما أنها تجي‏ء إليه و هو خلاف المتعود من خطبة النساء، و قد تلمح «على» بتأكد الاستحياء و أنها علت عليه بما جاءته، و إلا ما كانت لتجيئه، و ان «استحياء» منكرة تعظمه حيث المعرف «الاستحياء» هو المعروف المتعوّد من العفائف، فقد كان استحياء عظيما منقطع النظير، و بالفعل جاءته .... و «قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ ..» جاءته جيئة جيّة في غير ما تبذّل و لا تبرّج أو إغراء، و إنما للإيواء إلى كريم البواء، جاءته يدعوه في أقصر لفظ و اكثر معنى يحمل استدعاء إجزاء الجزاء دون لفظة أخرى تتغنج بها الفتاة بطبيعة الحال فيتهيج بها الفتى في نفس الحال، كلّا و إنما «أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا»!.

و تراه كيف ساغ له اتباع امرأة في قولها، ثم المشي معها و هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التفسير الكبير للفخر الرازي 24: 240- أ ليس انه (عليه السلام) قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 330

أجنبية، و ذلك يورث عظيم التهمة؟ و كيف ساغ لشعيب (عليه السلام) ان يبعث بنته الشابة إلى شاب و لمّا يعرفه بالعفة؟ و كيف ساغ لموسى تقبّل أجر- كما قالت- و قد أعانهما لوجه اللَّه، و هذا خلاف المروءة بل و خلاف الشرعة الإلهية إذ لم يعمل ما عمله بجعالة، لا سيما و انه عرف عجز أبيهما و فقر العائلة، و لموسى من القوة ما يحصل بها على مال يحتاجه من غير فقير بمحاولة يسيرة؟.

و الجواب ان موسى انما استجابها إذ عرف من قبل عفافهما، فلمحة الصدق من قولها، و هو غريب في مدين يفتش عن قريب في العقيدة و المأمن.

ثم و لم يستجبها طلب الأجرة، و هي جائزة دون طلب، مهما كانت مطالبتها غير جائزة دون جعل، و انما استجابها إذ تلمّح منها و من مجيئها كأنها تعني تحقيق دعائه في الزواج بها، و ليس هو في الحق أجرا مهما سمته أجرا، إذ أنكحها بثماني حجج أو عشر، و قد ينقل متظافرا أنها لما قالت ليجزيك كرهه‏ «1» و لما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء فقال له كل، قال موسى (عليه السلام) أعوذ باللَّه، قال: و لم، أ لست جائعا؟ قال: بلى و لكن أخاف ان يكون هذا عوضا لما سقيت لهما و أنا من أهل بيت لا نبتغي شيئا من عمل الآخرة بمل‏ء الأرض ذهبا! قال: لا و اللَّه و لكنها عادتي و عادة آبائي نقري الضيف و نطعم الطعام فجلس موسى (عليه السلام) فأكل‏ «2».

و هذه طبيعة الحال في كل التحيات، فقد حياه موسى ان سقى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التفسير الكبير للفخر الرازي 24: 241 و روي انها قالت: ...

(2) الدر المنثور 5: 125- اخرج ابن عساكر عن أبي حازم قال لما دخل موسى على شعيب ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 331

لابنتيه، فحيّاه بأحسن منها أن أطعمه و أنكحه إحدى ابنتيه، و قبول التحية المردودة من آداب الايمان: «وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها» (4: 86)، و قد ساغ لشعيب أن يبعثها إليه لما عرف من قوته و أمانته، و ذلك أحرى من بعثهما لسقى الغنم، «فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ» السابق ذكره «قال»: شعيب‏ «لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» إذ ليس مدين داخلا في سلطان فرعون و لا أنه عارف بمكانك، و تراه كيف مشى معهما ابتعادا عن التهمة، و عن النظر إليها؟ لقد تقدمها لكي يأمن عن النظر إليها «1» و بذلك عرفت أمانته إذ قالت: «إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ»:

قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ‏ 26.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 122 عن تفسير القمي من حديث القصة الطويلة عن الباقر (عليه السلام) .. فقام موسى معها و مشت امامه فسفقتها الرياح فبان عجزها فقال لها موسى: تأخري و دليني على الطريق بحصاة تلقيها امامي اتبعها فانا من قوم لا ينظرون في ادبار النساء ..

و

عن كتاب كمال الدين و تمام النعمة عنه (عليه السلام) قال لها: وجهيني إلى الطريق و امشي خلفي فإنا بني يعقوب لا ننظر في اعجاز النساء ..

و

عن من لا يحضره الفقيه روى صفوان بن يحيى عن أبي الحسن (عليه السلام) في قول اللَّه‏ «يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ» قال قال لها شعيب يا بنية هذا قوي قد عرفتيه برفع الصخرة، الأمين من اين عرفتيه؟ قالت يا أبه اني مشيت قدامه فقال: امشي من خلفي فان ضللت فأرشديني إلى الطريق فانا قوم لا ننظر في ادبار النساء و عن المجمع قال امير المؤمنين (عليه السلام) لما قالت المرأة هذا قال شعيب: و ما علمك بأمانته و قوته؟

قالت: أما قوته فانه رفع الحجر الذي لا يرفعه كذا بكذا، و اما أمانته فانه قال لي:

امشي خلفي فأنا اكره ان تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 332

قد تكون «إحداهما»- هذه- هي التي جاءته فزوجه شعيب إياها «1» و علّها أصغرهما «2» لا ندري، حيث العادة جارية على تقديم الكبرى على الصغرى إلّا إذا كانت هي الأولى و الأحرى بمن يريدها، ثم و لا مزرئة على الأخرى.

و على أية حال‏ «قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» إذ نحن بحاجة إلى رجل يعيننا و «إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ» و قد جرّبنا قوته و أمانته‏ «3» فلتكن القائلة هذه القولة هي التي جاءته إذ جرّبت أمانته، مهما كانت تجربة القوة لهما معا، و كيف تجرأت ان تقول‏ «يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» و استيجار مثل هذا الرجل القوي الأمين مهانة؟ علّها لأنها لم تجد صيغة أخرى أحرى منها لاستجلابه لزواجها عرضا على أبيها، فقد لمحت إلى مهرها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 13: 29 عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) سئل أيتهما زوجة شعيب من بناته؟ قال: التي ذهبت إليه و قالت لأبيها: يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ..»

و

فيه (عليه السلام) بسند عن البزنطي قال‏ سألت الرضا (عليه السلام) عن قوله تعالى: «إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ..» أ هي التي تزوج بها؟ قال: نعم. و في نور الثقلين 4: 123 مثلهما في التي تزوج بها.

(2)

الدر المنثور 5: 127- اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال لي جبريل يا محمد ان سألك اليهود أي الأجلين قضى موسى؟

فقل أوفاهما، و ان سألوك أيهما تزوج فقل: الصغرى‏

و

فيه اخرج الخطيب في تاريخه عن أبي ذر قال قال لي رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) إذا سئلت اي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما و أبرهما، و إذا سئلت أي المرأتين تزوج، فقل الصغرى منهما و هي التي جاءت فقالت يأبت استأجره ..

(3) في أحاديث متظافرة مضت أن شعيب سألها دليل قوته و أمانته فقالت، قوته أن سقى لنا ما لم يقدر عليه احد من الرعاء و أمانته انه مشى امامي تحرزا عن النظر إلى خلفي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 333

باجرة الاستئجار، و إلى زواجها باستدعائه أن يظل عندهم، و ذلك لا يناسب إلّا بزواج، و القوة و الأمانة هما الدعامتان في صالح الحياة الجماعية، و لا سيما تأسيس الأسرة. «نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» كانت خطوة أولى تطمئنه نفسيا، ثم‏ «يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» خطوة ثانية فيها حظوة الجنس و رياحة الجسم من صوت الأنوثة الأنيسة، و ما ألطفه دعاء للزواج.

و هنا يحس الأب الشيخ الكبير تجاذبا بين الجانبين و ثقة متبادلة بين الطرفين، بعد ما تأكد صلوحا في موسى قوة و أمانة، فاستجاب من فوره لاقتراح ابنته:

قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى‏ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ‏ 27.

و ترى‏ «إِحْدَى ابْنَتَيَّ» هي التي قالت يأبت استأجره؟ و صيغته الصالحة الصريحة «اني أريد ان أنكحك إياها»!، أم هي الأخرى؟

فالأخرى! إن التعمية هنا هي أولا ستار على موقف الأولى ابعادا عن رخاصتها، و هي ثانيا تخيير له في اختيار أيتهما شاء دونما تسيير عليه بحصر على الأولى.

و قد نتعرف هنا إلى الصيغة الصالحة للنكاح‏ «أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ» حيث المفعول الأوّل المنكح هو الزوج، و الثاني المنكح له الزوجة و كما في اخرى‏ «زَوَّجْناكَها» (33: 37) «وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ» (44: 54) فلا معاكسة في صيغة النكاح ك «زوجتك نفسي» أمّا شابه.

و هكذا عرضت إحدى ابنتيه ان يأجره أبوها، ثم عرض الأب عليه بكل بساطة زواجه بها لما عرف الكفائة من الجانبين، عرضاه في غير التواء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 334

و لا تحرّج، خلاف التقاليد المصطنعة الباطلة التي أصبحت سنة الزواج، إذ تحتم خطبة النساء على الرجال و أوليائهم أو وكلائهم، دون جانب المرأة، رغم المخالطة و المكاشفة أحيانا بين بعضهم لبعض دونما خطبة و لا نكاح، فأما إذا حان حين الزواج فلتكن الخطبة من جانب الزوج، و إلّا فهي رخيصة بخيسة إذ عرضت نفسها للزواج أو عرضت له! و لقد كانت النساء يعرضهن انفسهن على النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) فيؤوي إليه من يشاء منهن و يرجي من يشاء، فيعرضها على من يستصلحه لها، مزودا لهن بترغيب و دونما تعييب أو تأنيب، و نموذجا من ذلك نص الأحزاب‏ «وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» (50).

و ترى كيف يصح كون الصداق لصالح ولي البنت و بقراره: «عَلى‏ أَنْ تَأْجُرَنِي ..» و الصدقات تخص البنات دون الأولياء؟.

علّه لأنه كان مؤذونا في الأمرين كما تطلّبت اليه: «يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» فاستأجره كما استصلح لصالح العائلة عامة و للبنت خاصة، إذ هي من ضمن من يستفيدون من ذلك الايجار، ام انه يحق لولي‏ «إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ» (2: 237) مهما كان موردها العفو عن نصف الصداق بطلاق قبل وقاع، إذ لو لم يكن له حق في صداقها لما حق له العفو عنه نصفا أمّاذا، و كيف يصح هكذا قرار للصداق حيث لا يعلم الوفاء به إذ ما تدري نفس متى تموت؟ إنه قد لا يصح هكذا، إلّا «أن موسى علم أنه سيتم له شرطه» «1» فحين لا يعلم الوفاء كان الصداق معلقا غير مقطوع به‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 123 عن المجمع روى الحسن بن سعيد عن صفوان عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال:- لما قيل له: فدخل بها قبل ان بمضي الشرط أو بعد انقضاءه؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 335

فغير صالح للنكاح، أم إن له بديلا مما ترك بعد موته إن كانت له تركة، و حتى إذا لم تكن فالتصميم على الوفاء مع إمكانيته في ظاهر الحال يكفي صدقا للصداق، فمن هذا الذي يعلم بيقين أنه يوفي بما وعد في أية معاملة من المعاملات، و منها الصداقات المؤجلة، بل و المعجلة بعد هنيئة من عقد النكاح إذ من الجائز عدم قدرته على الإنجاز لموت أو فقد مال، و هنا «ثَمانِيَ حِجَجٍ» و هي ثماني سنين، تصريحة على سابق الفرض في حج البيت، لحدّ كانت تسمى كل سنة حجة «1» و الحجج الثمان هي الصداق الأصيل، و الإتمام عشرا نافلة هو بالخيار فيها، و قضية الكرم من مثل موسى إتمامها عشرا و قد أتم و كما يروى عن الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و عن اهل بيته الكرام عليهم السلام‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: قبل ان ينقضي، قبل له: فالرجل يتزوج المرأة و يشترط لأبيها إجارة شهرين أ يجوز ذلك؟ قال: ان موسى علم انه سيتم له شرطه، قيل: كيف؟ قال: علم انه سيبقى حتى يفي.

(1).

في تفسير العياشي قال الحلبي‏ سئل ابو عبد اللَّه (عليه السلام) عن البيت أ كان يحج قبل ان يبعث النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)؟ قال: نعم و تصديقه في القرآن قول شعيب حين قال لموسى عليهما السلام حيث تزوج‏ «عَلى‏ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ» و لم يقل ثماني سنين.

(2)

الدر المنثور 5: 126- اخرج ابن ماجه و البزار و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه عن عقبة بن المنذر السلمي قال: كنا عند رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) فقرأ طس حتى بلغ قصته موسى (عليه السلام) قال: ان موسى آجر نفسه ثماني سنين أو عشرا على عفة فرجه و طعام بطنه فلما و في الأجل قيل يا رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) أي الأجلين و في موسى؟ قال: أبرهما و أوفاهما فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته ان تسأل أباها ان يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت من غنمه ...

و رواه مثله في أبر الأجلين و أوفاهما أبو هريرة عن أبي سعيد الخدري عنه (صلّى اللَّه عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 336

أو ليس شاقا على موسى على محتده و علو مقامه و واجب تحضيره للرسالة المستقبلة أن يؤاجر نفسه ثماني حجج أو عشرا؟ حسب الظاهر نعم، و في الحق لا كما وضحه أبوها «وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ» في أصل الثمان و لا في التكملة، و إنما هي مصلحة ككلّ من صالح إلى صالح‏ «سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ..»

و من الصالح في هذه الحجج أن يصبح موسى من رعاة الأغنام قبل ان يرسل رسولا إلى الأنام، فلقد لبثت من عمره ردحا في بلاط النعمة و النعومة، فليعش- ما بينه و بين الرسالة إلى فرعون و ملإه و سائر المكلفين- راعيا لأغنام و ذلك قدره الذي قدّره له ربه‏ «.. وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏. وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» (20: 30- 41).

و يا له من اصطناع بارع ليصنع بعد أمة صارمة ضد الفراعنة المجرمين، فقد نقلته يد القدرة الرقيبة الربانية منذ رضاعته إلى طفولته و إلى رجولته و حتى ذلك الحين و قد حان حين الوحي الحبيب، و في هذا الخط الطويل قبل الرسالة و بعدها تجارب منقطعة النظير- إلّا لمحمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)- من تجربة الحياة في جو الفرعنة، ثم الخوف و الفزع و المطاردة، و تجربة الجوع و الوحدة و الغربة، و تجربة رعي الغنم و الخدمة بعد حياة القصر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و آله و سلم) و أبو هريرة نفسه عنه.

و

في نور الثقلين 4: 125 عن المجمع روى الواحدي بالإسناد عن ابن عباس قال‏ سئل رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما و ابطأهما،

و

فيه مثله عن أبي ذر عنه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و عن تفسير القمي عن الصادق (عليه السلام) لما قيل له: اي الأجلين قضى؟ قال: أتمهما عشر حجج ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 337

و هكذا تكون الرسالة الإلهية ضخمة الجوانب و التبعات في مقدمات و مؤخرات، يحتاج صاحبها إلى عظيم الزاد في سفرته الشاقة الطويلة المليئة بالأشلاء و الدماء و الحرمانات عن المشتهيات في هذه الأدنى ليجتاح دون عبأه كل العرقلات، و الرسالة الموسوية هي اضخم الرسالات- بعد الرسالة الختمية- فليستعد موساها لكل إعداداتها حتى يجي‏ء على قدر فيها.

و عرض قصص موسى في معرض القرآن أكثر من سائر القصص، لأنه أعرض القصص الرسالية، و أشبهها بقصص الرسول محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و ليستأنس به في هذا السبيل الشاق الطويل.

قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلى‏ ما نَقُولُ وَكِيلٌ‏ 28.

«ذلك» الميعاد «بَيْنِي وَ بَيْنَكَ» مخيرا بين الأجلين لا مسيّرا «وَ اللَّهُ عَلى‏ ما نَقُولُ» في شرط الزواج «وكيل» دونما حاجة إلى شهود آخرين، مما يدل على أن الإشهاد في النكاح غير واجب، مهما كان واجبا في الطلاق.

فقد تمت هنا مواضع العقد بشروطه بلا مجال فيها لغموض، و هنا التعمية من موسى (عليه السلام) «أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ» تأكيدا للتخيير، و فسحا لمجال الإكرام بأوفاهما، و ذلك مما ندب إليه في الشرعة الإلهية، أن يزاد في الأجر مهما كانت مماكسة فيه في البداية.

[سورة القصص (28): الآيات 29 الى 42]

فَلَمَّا قَضى‏ مُوسَى الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى‏ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (30) وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى‏ أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (32) قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33)

وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (35) فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى‏ بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (36) وَ قالَ مُوسى‏ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى‏ مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37) وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (38)

وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (41) وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 339

«قَضى‏ مُوسَى الْأَجَلَ» المعروف بينهما و هو آجل الأجلين دون الأعجل، إكراما لشعيب و معاملة بمعروف مع أهله كما هو المأمور به في الشرعة الإلهية، و كما

يروى عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): «تزوج‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 340

صغراهما و قضى أوفاهما» «1».

و بالفعل‏ «قَضى‏ مُوسَى الْأَجَلَ» و مضى ما مضى حيث أمضاه، و لا إشارة هنا إلى كيف مضت العشر إذ لا تدخل في صميم القصص الرسالي، مهما أجمله في‏ «ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏» مما يلمّح إلى الصالح الرسالي المستقبل في هذه العشر العشيرة مع الأهل، «وَ سارَ بِأَهْلِهِ» مسيره المترقّب المعهود إلى مصر «آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً ..» و قد شرحناه في طه و النمل فلا نعيد إلّا ما أعيد هنا تكرارا يناسب تفصيل القصص، و «اهله» هنا هم زوجته و ولده‏ «2» و هم ذكور أو بينهم ذكور لمكان الجمع المذكر «امكثوا».

مسير الإياب هنا هو مسير الذهاب نفسه و اين مسير من مسير، فهناك كان فريدا شريدا خائفا يترقب، و هنا «سارَ بِأَهْلِهِ» مستأنسا بهم و بالنار التي آنسها من جانب الطور وارفا يتأهب، ليناديه به و يناجيه بما ينجيه و سائر المستضعفين فيرثوا الأرض‏ «وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ»! فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى‏ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ‏ 30.

و هذه إجمال عما فصل في «طه»: «إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏» (14- 16) مما يلمح أن هذه الأصول الثلاثة مستفادة من كلمة التوحيد بإجمال.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 24: 224- اعلم انه روي عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) انه قال: ...

(2) في سفر الخروج من التوراة 4: 20- انه حمل معه إلى مصر امرأته و بنيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 341

و أما محل ذلك النداء فهو «مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ» و هو الجانب الأيمن الجامع ليمين الجانب و يمنه‏ «فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ» و هي التي كانت فيها الشجرة، بوركت ببركة الوحي و قدّست: «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً» (20: 12)- «نودي ...» و هذا هو جانب الطور الأيمن: «وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ» (19: 52) فليس إلّا مكان الطور «1» في القدس دون سواه، كربلاء «2» و سواها، فقد جاء يقتبس نارا فاقتبس بديلها نورا «من الشجرة» فلقد كان صوت النداء من سمت الشجرة و هي الزيتونة، لا شرقية و لا غربية، بل هي الشرق الأوسطية، حيث الوحي الرباني لا ينحاز إلى شرق أو غرب، بل هو الوسط الرباني المحلّق على مشارق الكون و مغاربه من امكنة المرسل إليهم.

و هنا الشجرة ليست إلّا وسيط الوحي بحجابها، لا أن اللَّه حل فيها كما لا يحل في سائر حجب الوحي و وسائطه: «وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ» (42: 51).

ف «وحيا» هنا يعنيه دون أي حجاب كما حصل للرسول الأقدس محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) ليلة القدر و ليلة المعراج أماهيه من نهار أو ليلة، و «مِنْ وَراءِ حِجابٍ» يعني كل حجب الوحي، كلاما في منام أم بواسطة ملك الوحي أم شجرة أمّاهيه، فالوحي إلى موسى يحمل حجابين اثنين:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 127 عن المجمع روى ابو بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: فَلَمَّا قَضى‏ مُوسَى الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ» نحو البيت المقدس اخطأ الطريق فرأى نارا ..

(2)

المصدر (126) عن تهذيب الأحكام بسند متصل عن مخرمة بن ربعي قال قال ابو عبد اللَّه (عليه السلام) شاطئ الوادي الأيمن الذي ذكره اللَّه في القرآن هو الفرات و البقعة المباركة هي كربلاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 342

الشجرة و لفظ الكلام، و «فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏» كان معنى مجردا أجرد عن كل حجاب إلّا حجاب الذات، و ذلك حين لم يكن بينه و بين اللَّه أحد في مقام «دنى» أم و لا نفسه فضلا عن سواه من سائر الحجب في مقام «أو أدنى» حيث‏ «دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏. فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏. ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏» رؤية معرفية- في قمتها- اللَّه، و رؤية الوحي القمة! لقد تلقى موسى بازغ الوحي بمل‏ء كيانه، و وقف في أكرم موقف يلقاه إنسان حيث أصبح موسى الأجير الراعي للأغنام، الرسول الراعي للأنام! هنا «نُودِيَ‏ .. إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» و في طه «نودي إني أنا ربك» و في النمل‏ «نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. يا مُوسى‏ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (9) مع العلم انه لم يكن النداء إلّا بصيغة واحدة علّها هي أولاها فانها أشملها حيث تعني شامل الربوبية له و لسائر العالمين.

ثم «اني» تعني اللَّه المتكلم من إذاعة الشجرة دون الشجرة نفسها و كما يسمع من مسجلة الصوت الآية «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» و ليست المسجلة هي القائلة بل هي وسيط إذاعة الصوت أيا كان، فالشجرة كانت- إذن- مذياع النداء، و كما رسول الوحي إلى الرسل ينقل‏ «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» ثم الرسل ينقلونها لأممهم‏ «إِنِّي أَنَا اللَّهُ»، فلا أن اللَّه حلّ في الشجرة و سبحانه، و لا أنها حلّت إلى مرقى الربوبية، و إنما اللَّه هو الذي تكلّم بحجاب الشجرة كما يتكلم بسائر الحجب.

لقد أتاه بازغ الوحي مصحوبا بآية الرسالة الربانية، مطمئنة إياه في عقبات الدعوة الشاقة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 343

وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى‏ أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ‏ 31.

«نُودِيَ‏ .. أَنْ يا مُوسى‏ .. وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ» إلقاء الإلغاء حيث كانت متكاك، عساك ان تأتي فرعون و ملأه ببرهان مبين، فألقاها فأصبحت كأنها جان‏ «فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ» تتلوّى على كبرها، و كأنها حية صغيرة تجن نفسها و تخفيها «ولّى» موسى خوفة منها «وَ لَمْ يُعَقِّبْ» ليراها مرة اخرى، فقلنا «يا مُوسى‏ أَقْبِلْ» إليها «و لا تخف» منها «إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» عندنا، لا يصيبك منّا أية أذى‏ «إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» (27: 11).

و مهما ظلمت أنت نفسك بما قتلت القبطي خطأ و لكنك بدلت حسنا بعد سوء، من حسن التوبة، و حسن الغربة أجيرا في مدين‏ «ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏» (20: 40)، فهنا «لا تخف» في مقام الخوف المتعوّد ل «إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» و أما في مقام الأمن فيقال: «خف» عن زهوة الأمن و زهرة حياة الأمن و كل في محلّه فلكلّ مجال حال.

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ‏ 32.

«اسْلُكْ يَدَكَ ..» تعني: «أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» (12: 27) و «اضْمُمْ يَدَكَ إِلى‏ جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى‏» (20: 22) فقد كان إدخالا خاصا بضمّ إلى جناحه و سلك فيه و هو النافذ الراكز، تعابير ثلاثة عن ذلك الإدخال، و كيف هنا «وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ» و في طه‏ «وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى‏ جَناحِكَ»؟ (22) إن جناح طه هو الجيب هنا المسلكة يده فيه و هو تحت إبط اليسرى، و الجناح هنا هو اليد اليمني التي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 344

أصبحت مرتخية كالجناح فليضممها الى اليسرى، و إنما سميت اليد جناحا بعد ما أصبحت بيضاء لأنها أصبحت من الرهب كالجناح، كأنها تريد ان تطير من رهبها و رهب حية العصا.

«تَخْرُجْ بَيْضاءَ» و لم تكن، لكنها «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» من برص خلاف نص التوراة: «ادخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها و إذا يده برصاء مثل الثلج» (الخروج 4: 6)! «فذانك» قلب العصا حية تسعى و اليد البيضاء «بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ» و ماذا تعني إذا «وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ»؟ أ تعني نفس السلك؟ و قد ذكر قبل دون فصل! أم ان يضم جناحه اليه من رهب جان العصا، ان يجمع يديه على صدره إذا عرضه خوف عند مشاهدة حية العصا ليذهب ما في قلبه من الروع؟ و قد سبق‏ «أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» كما و لا يناسبه الفصل بينهما بآية اخرى!.

أم تعني أن يتخذ لنفسه سيماء الخاشع فلا يزد هي بزهوة المكانة الرسالية مفرجا بين عضديه و جنبيه كالمتمطي في مشيته، بل يخفض جناحه للمؤمنين كما أمر الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): «وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» (15: 88)؟ و لا تناسبه «من الرهب» حيث الرسالة لا ترهب الرسول بل تعجبه و ترغبه! ثم و موقف الرسالة إلى فرعون و ملإه ليس موقف خفض الجناح!، فقد تعني ضم جناحه من رهب الآيتين، فكما حية العصا ترهب، كذلك اليد البيضاء ترهب فترتخي كجناح الطائر الخائف، فليضممها إليه استئصالا لظاهرة الرهب.

أم و كما أمر بأخذ عصاه‏ «خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى‏» (20: 21) كذلك امر بضم يده التي أصبحت كجناح الطائر المرتخي، ضما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 345

إليه من الرهب، ف «من» قد تكون سببية تعني أن الرهب يسبب ضم جناحه إليه ليزول ذلك الرهب بزوال البياض الطارئ من إدخالها في جيبه.

أم ان «من الرهب» متعلقة بمحذوف «جناحك» الكائن «من الرهب» إذ أصبحت يدك من الرهب جناحا، فاضممها إليك قبضا عن الانبساط و الارتخاء استئصالا للرهب و زوالا للبياض المسبب للرهب.

و علّ «جناحك» تعني يديه إذ تطلق على الجناحين و اليدين الجانحين، مهما كانت اليمنى هي الأصل في ذلك الضم، رجعا لها إلى ما كانت من قبل ليذهب عنه الرهب.

«فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى‏ فِرْعَوْنَ» من ربك تربية رسالية، إلى فرعون إنذارا رساليا ل «إِنَّهُمْ كانُوا» على مرّ حياتهم الجهنمية «قَوْماً فاسِقِينَ» خارجين عن طورهم.

و كيف هنا «برهانان» و في النمل‏ «وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ» (12).

علّه لأنهما الأصل فيها كلها، ام ان الباقية صادرة عنهما إذا فهما التسع في الأصل و باقي التسع فروعهما! قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ 33 وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ‏ 34.

«قال رب» الذي ربيتني لهذه الرسالة السامية، إن أمامي عقبتين كئودتين قد تعرقلان الدعوة أو الداعية، اما الداعية «إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» و أما الدعوة، فان لم يقتلوني‏ «إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ» فأنا إذا بين قتل الدعوة و قتل الداعية، و ليس هذا اعتذارا عن أصل الرسالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 346

و تقاعصا عنها و انتكاسا، و إنما يعرض حاله الحرجة ليطمئنه ربّه فيها، و لا سيما بالنسبة لتصديق الدعوة، فإنها هي المهمة الأولى للداعية مهما قتل دونها، و لذلك تراه لم يتطلب من ربه علاجا صراحا عن قتله، و إنما العلاج المستدعى فى‏ «إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ» و هو «أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي» مما يبين ان مهمة الداعية هي نفاذ الدعوة مهما قتل في سبيلها!.

و كيف‏ «أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً» و لا بد لولي العزم من الرسل أن يكون أفصح من سائر الرسل كما هو أصلح؟ إنها فصاحة وقتية و ليست أصلية، فقد كانت في لسان موسى عقدة عن الإفصاح الكامل، لا لرتّة في لسانه، بل لأنه قتل منهم نفسا، و المذنب عند قوم لا ينطلق لسانه كما يجب: «وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى‏ هارُونَ» (26: 13)- «قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ...» (20: 32) و قد شرحناها في طه بما لا مزيد عليه فلا نعيد.

و هلّا يكذبون أخاه هارون و هو أهون تكذيبا منه كولي له في الرسالة؟

إنه يعني افصاحا كاملا للدعوة، بعيدا عن التكذيب، أو أن يؤثر فيها التكذيب، و إنما أنا المذنب عندهم لا ينطلق لساني في بزوغ الدعوة كما يجب، و قد يأخذني الغضب فيحرّج موقف الدعوة و الداعية، و اخي هارون هو أفصح مني في صيغة الدعوة، و إن كذّبت يصدقني فيها تزويدا في البيان و تأكيدا لصدق الدعوة، و تبينا للبرهنة، إذ لا تكفي الآية المبصرة ما لم تزود بآية الحجة البصيرة، و مزيج الآيتين يأتي حجة بينة لا مدخل إلى تكذيبها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 347

و لأن «ردءا» هي المتابعة للإعانة فقد تطلّب إلى ربه أن يجعله وزيرا له يزر عنه عب‏ء الرسالة الحرجة، و «ردء» مصدرا مبالغة في تلك الوزارة المعنية ألّا شغل له في ذلك الحقل إلّا الوزارة دونما استقلال و لا استغلال.

قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ‏ 35.

«عضدك» هنا هو عضد الرسالة ان يعاضد فيها بأخيه‏ «وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً» قاهرا على فرعون و ملإه، دون اي سلطان لهم عليكما لا قتلا و لا تكذيبا، إذا فهو سلطان القوة إلى سلطان الحجة لمكان‏ «فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما» قتلا أو تكذيبا «بآياتنا» التي هي السلطان نفسه، فذلك السلطان- الآيات- له جانبان، جانب المنعة عن الوصول إليكما: «فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا» و جانب الغلبة لكما عليهم: «بِآياتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ» «1»، و قد تعني «آياتنا» هنا كل التسع التي أرسل بها إليهم، و هي الطالعة من العصا و من يده البيضاء، و من تلك الغلبة الموعودة الشاملة نتلمح أن السحرة ما صلبوا بما آمنوا، لأنهم أصبحوا من أفضل «من معكما» فقد غلبوا على فرعون كونا إذ لم يصلبوا و كيانا في الحجة الغالبة لأن سحرهم- فقط- كان حجة، و هم أولاء الذين آمنوا بموسى دونما تخوف من تألّب أو تصلّب و سواه، متصلبين في هداه.

و هذه طمأنة ربانية للداعية على طول خط الدعوة فلا يخاف عقبة في أولاها و عقباها، فإنهما لم يذهبا إلى الطاغية مجردين حتى يخافاه، بل هما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف «بآياتنا» هنا تتعلق ب «لا يصلون» و «الغالبون» و ما أجمله جمعا بينهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 348

مزوّدان بسلطان لا يقف له أي سلطان، من أيّ كان و أيان، سياج صارم لا قبل لهم به.

فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى‏ بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ‏ 36.

«جاءَهُمْ مُوسى‏» و معه هارون «بآياتنا» التسع حالكونها «بينات» لا خفاء فيها و لا ريبة تعتريها «قالوا» فرعون و ملأه «ما هذا» الذي جاء به موسى‏ «إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً» على اللَّه‏ «وَ ما سَمِعْنا بِهذا» الذي يقوله‏ «فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ».

و كيف ما سمعوا بهذا في آباءهم الأولين، فالموحدون منهم أسمعوهم التوحيد و الوحي مصدقين، و المشركون كذلك مهما كانوا مكذبين؟.

و كيف‏ «ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً» به على اللَّه انه آية؟ «أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ» (52: 15) «أَ سِحْرٌ هذا وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ» (10: 77) فأتوا بسحر مثله إن كنتم صادقين، أنتم و آباءكم الأوّلون.

و إنها قولة لعينة لئيمة مكرورة على طول الخط ضد الرسالات الربانية، فنفس الصيغة نجدها من المشركين زمن الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) كأنهم تواصوا بها في سلسلتهم النكيدة المكيدة! وَ قالَ مُوسى‏ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى‏ مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ‏ 37.

رد مهذب مبرهن مؤدب، و كأنه لا يحمل برهانا عليهم و هو يحمل اتقن برهان‏ «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى‏ مِنْ عِنْدِهِ» و هي كحجة مرسلي المسيح (عليه السلام، «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» (36: 16) فالتربية الربانية الرسالية باهرة فيّ أعمالا و أقوالا و أحوالا، و فيما معي من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 349

آيات بينات، و «اعلم» ب «مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ» و هي الحياة العاقبة حيث تعقب حياة العرقلة الكافرة «وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» لهم- فقط- دون الطاغين، ل «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» بل يفلجون مهما ارعدوا و عربدوا لردح من الزمن طال أم قصر. و قد تعني الدار هنا الدار الدنيا إلى جنب الآخرة حيث تشملهما لفظة الدار: «قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (3: 128)- «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً (28: 83).

فالحال الحاضرة لنا بكل حجة باهرة تضمن لنا البقاء دونكم، ثم لنا- لا لكم- عاقبة الدار، فلو كنا مفترين على اللَّه كذبا فلن نفلح إذا ابدا، و نحن المفلحون في العاقبة الآجلة كما نحن في العاجلة بما معنا من سلطان مبين.

و ما كان رد فرعون على هذه الحجة الأديبة العجيبة إلّا كلمة مكرورة رديئة:

وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ‏ 38.

هذه قالة الفرعنة اللعينة المهينة «ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي» كأنه يحيط علما بكل شي‏ء فإذ لا يعلم إلها غيره فلا إله- إذن- غيره، يقولها فرعون قاهرا دون ان يسمح لمخّ أن يفكر، و لا للسان أن يعبر إلّا سمعا و طاعة، و تشبهها قالته الأخرى: «ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى‏ وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ» (20: 29).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 350

و لقد قلّب هنا امر كلمة التوحيد: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» بمقلوبها «ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي» أي: لا إله إلّا أنا! و قد يعني ب «ما علمت ..» جهله، و لذلك يأمر ببناء صرح و يقول‏ «إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ» فلو كان يعني ب «علمت» عدم إله غيره بصورة قاطعة لما صحت حيلته الثانية و الثالثة، اللهم إلّا تماشيا و تنازلا من علمه المحيط المدّعى، و هو بدون هذه الدعوى الخاوية ليست حيلته الأولى حجة على السلب بل هي سلبه للحجة، و قد يحتج بسلبها لعدم ثبوت إله غيره، فليفتش عنه في السماوات بأسبابها بعد الأرض، و لو كان لبان! ثم و لكي يؤكد سلبيته الماكرة يأمر هامان ببناء صرح رفيع يصعد عليه لعله يطلع إلى إله موسى، فيتأكد انه ليس في السماء كما لم يجده في الأرض، و كأن إله موسى ساكن السماء أو ساكن الأرض!. و «ما عَلِمْتُ لَكُمْ» قالة مكرورة على ألسنة الماديين الناكرين لوجود اللَّه كشريطة تدار، إننا ما وجدناه بأيّ من حواسنا، فليس- إذن- كائنا، متجاهلين عن ان الكائنات لا تنحصر بالإدراكات الحسية، و حتى لو انحصرت بها فلا يحيط بها أحد علما حتى يصح القول: ما لا نجده فهو غير موجود! أجل يصلح القول: ما علمت فليس كائنا، للذي يحيط علما بكل شي‏ء و هو اللَّه تعالى شانه العزيز: «وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (10: 18). هناك كيد أوّل «ما علمت ..» و كيد ثان‏ «فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ ..» و ثالث‏ «إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ» كلها ادعاءات جوفاء خواء يصارح بها على ملإه و لا يخاف ردا عليه و لا نكيرا.

و قد نلمس عمق الحمق الفرعوني من كيده الأوسط و هو بناء صرح، و قد كان يكفيه ان يصعد أعلى جبل في مصر، و هو دون شك أرفع مما يبنيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 351

هامان خلال سنين! ثم السماء لا تخص محل الصرح لا طولا و لا عرضا، حتى إذا لم يطلع إلى إله موسى من على صرحه فليس الإله- لو أنه في السماء- في سائر السماء!.

فمثله كمثل الذي ينكر وجود الذهب في الكون كله، لأنه لم يجدها عنده أو في الأفق الذي يعيشه! و ما أحمق هؤلاء الذين سمعوا قالته هذه الحمقاء و لم يردوا عليه! و أحمق منها قالته الأخرى: «يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ. أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً ..» (40: 37) «1».

و كيف بالإمكان بلوغ أسباب السماوات بالصعود على صرح، و لو كان هو الإله فكيف يترجى ذلك البلوغ و ما هو ببالغ؟

و «إله موسى» هنا و هناك- و علّهما واحد مذكور بصيغتين- إنه تعريض عليه لو أن هناك إلها غيري فليس إلّا إله موسى و ليس إلهي و إلهكم! لقد تقولها الطاغية في بداية المواجهة، كما تقوّل اخرى في النهاية «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» و بين الكلمتين أربعون سنة «2».

وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ‏ 39.

و لما يبلغ الاستكبار إلى هذا العمق من الحمق، أن لا إله إلا أنا، ظنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هناك في تفسير آية المؤمن بحث فصل عن اسباب السماوات فليراجع.

(2)

الدر المنثور 5: 129- اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) كلمتان قالهما فرعون ... كان بينهما أربعون عاما فأخذه اللَّه نكال الآخرة و الأولى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 352

منهم‏ «أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ» و هم يحسبونه علما ألّا إله إلّا فرعون، و لا مرجع إلى اللَّه، فلا علاج لهؤلاء الحماقى الأنكاد إلا أخذا و نبذا:

فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ‏ 40.

هذه عاقبتهم يوم الدنيا فكيف- إذن- عاقبتهم يوم الدين، و قد تبين‏ «مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

و يا له من اختصار حاسم قاصم، أخذ و نبذ في اليم كما تنبذ الثفالات و تحذف الحصاة، نبذ في ذلك اليم تمليصا، اليم الذي القي فيه موسى تخليصا، هذا مأمن و ملجأ، و ذلك مكمن عليه و مهلكة و مضجع‏ «فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ».

وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ‏ 41.

جعل تكويني لإمامتهم النارية يعني أنه تعالى ما منعهم عنها كما لم يمنعهم قسرا عن كفرهم، فخلى بينهم و بين ضلالهم و إضلالهم، ثم يذرهم في طغيانهم يعمهون‏ «وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (7: 183).

ف «جعلناهم» بين مثلث التكوين تخييرا في ضلال و إضلال، ثم ايكالا لهم إلى أنفسهم جزاء وفاقا: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»- «وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ» (41: 25) «وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ» (43: 36) «أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (19: 83). هكذا جعلناهم بما بغوا و طغوا، كما عكسناه لآخرين‏ «وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ» (32: 24) و اين جعل من جعل، و الآخر تشريعي إلى كونه تكوينيا جزاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 353

وفاقا «1».

و لقد كانت الفراعنة في كل التاريخ أئمة الضلال‏ «يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» مناوئين لأئمة الهدى الذين يدعون إلى النور.

وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ‏ 42.

«اتبعناهم» بدعواتهم اللعينة «فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً» حيث‏ «لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ» (29: 13) «وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» (36: 12).

فكل لعنة تابعة لضلال من ضل بإضلالهم، «اتبعناهم» إياها مع تابعيهم، كلا على قدره و قدره‏ «وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً»، ف «من سن سنة سيئة كان عليه و زمن عمل بها إلى يوم القيامة و لا ينقص أولئك من أوزارهم شي‏ء».

فهم من المقبوحين في الدارين، و الملعونين في النشأتين، عائشين أجواء الاشمئزاز و التقزّز، خلاف الضفة الهادية، حيث تعيش جوّ الإعزاز و التعزز.

و كما فرعون و ملأه هم أقبح المستكبرين في التاريخ، كذلك موسى الرسول (عليه السلام) هو أفضل الرسل في التاريخ الرسالي بعد خاتم النبيين محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و قد جاء ذكره في الذكر الحكيم مائة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 130 في أصول الكافي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال قال: إن الأئمة في كتاب اللَّه عز و جل امامان قال اللَّه تعالى: «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» لا بأمر الناس يقدمون امر الله قبل أمرهم و حكم الله قبل حكمهم، قال: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» يقدمون أمرهم قبل امر اللَّه و حكمهم قبل حكم اللَّه و يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب اللَّه عز و جل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 354

و ستة و ثلاثين مرة في أربع و ثلاثين سورة بتفصيل قصصه أو إجماله كما تقتضيه الحال و يناسبه المجال، مما يدل على أن له المكانة الثانية بعد الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) في الرسالة النبوة الإمامة، فقد كان‏ «رَسُولًا نَبِيًّا» (19: 52) إماما من أولي العزم (33: 7 و 42: 13) كما و كتابه إمام (46: 52) و فرقان و ضياء و ذكر (21: 48) فيها هدى و نور (5: 44).

و بين التوراة الحاضرة و القرآن اختلافات شاسعة في قصص موسى و هارون مع فرعون:

فالقرآن يوحّد فرعون الذي أخذه و رباه و الذي أرسل إليه، و التوراة تفرق‏ «1» ثم و هنا بازغ النداء الرسالي إلى موسى من الشجرة المباركة في القدس بعد الرحيل عن مدين، و هناك في مدين نفسه‏ «2» و هنا ألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون و موسى، و هناك لم يؤمنوا بل عارضوا موسى‏ «3» و هنا صانع العجل هو السامري، و هناك هارون النبي (عليه السلام) «4» و هنا ملقي العصا هو موسى (عليه السلام) و هناك هو هارون بأمر موسى (عليه السلام) «5» و إلى أمثال هذه من اختلافات تكشف عن اختلاقات توراتية أهمها البشارات المحمدية فيها، و قد نذكرها مقارنة بطيات الآيات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سفر الخروج 3: 23.

(2) في التوراة ان أبا زوجة موسى هو يثرون كاهن مديان دون شعيب.

(3) الخروج الاصحاح 7 و 8.

(4) الاصحاح 32 من الخروج.

(5) الاصحاح السابع من الخروج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 355

[سورة القصص (28): الآيات 43 الى 56]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى‏ بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى‏ مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47)

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى‏ مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (48) قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى‏ مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50) وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52)

وَ إِذا يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (54) وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (55) إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 356

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى‏ بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ‏ 43.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 357

«و لقد» تأكيدان اثنان تؤكدان ضرورة إيتاء الكتاب‏ «مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى‏» و هي التي قبل قرنه منذ قرن نوح و عاد و ثمود إلى قرن فرعون و من بينهم من المهلكين‏ «آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ»: التوراة «بَصائِرَ لِلنَّاسِ»: تبصّرهم تأريخ الهالكين و عاقبة الظالمين، تأتي البصائر توصيفة غالية في الذكر الحكيم خمسا، ثلاثا تخصه نفسه: «قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ» (6: 104)- «هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (7: 203)- «هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (45: 20).

و رابعة للآيات الرسالية الموسوية: «ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ» (17: 102) و خامسة للتوراة كما هنا.

و القرآن هو مجمع البصائر في كلتا المرحلتين، هما مقسومتان على توراة موسى و معجزاته و اين بصائر من بصائر؟.

ثم «بصائر» هي جمع «بصيرة» و قد تكون تاءها للمبالغة كما «الْإِنْسانُ عَلى‏ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ» (75: 14) مبالغة اطلاعه على نفسه، و بصيرة التوراة و آيات موسى فضلا عن بصيرة القرآن هي مبالغة في الإبصار، كأنها التي تبصر الناظرين إليها، أو تبصر نفسها لهم لشدة التماعها و اشراقتها كما «وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً» (17: 12) بصيرة تجلب إلى الإبصار إليها لمحجتها البيضاء.

«بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدىً» مصدرا هي نفس الهداية و خالصها دون شوب، «و رحمة» و ذلك المثلث البارع من الإضاءة و الإلماع‏ «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» الحقّ فبه يؤمنون.

وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى‏ مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ‏ 44.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 358

«وَ ما كُنْتَ» بطبيعة الحال و لمّا كوّنت‏ «بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ» من الوادي‏ «إِذْ قَضَيْنا إِلى‏ مُوسَى الْأَمْرَ» الرساليّ بإنزال التوراة «وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ» صورة القضية إذ ذاك، و لكنا بيناها لك وضح الشمس في رايعة النهار.

وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ‏ 45.

«ما كُنْتَ‏ .. وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً» منهم‏ «فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ» أغفالا و جهالا ثم أشهدناك قصصهم‏ «وَ ما كُنْتَ ثاوِياً» مقيما «فِي أَهْلِ مَدْيَنَ» لترى ما مضى على شعيب و موسى فيها «ما كُنْتَ‏ .. تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا» لترى ردة الفعل منهم‏ «وَ لكِنَّا كُنَّا» على طول خط التكليف «مرسلين» دونما وقفة في إرسال الرسل، و «مرسلين» إياك ل «تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا».

وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ‏ 46.

«بِجانِبِ الطُّورِ» من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة «إِذْ نادَيْنا» أول ما ناديناه «ما كنت» لا هنا و لا هناك لتسمع النداء و الوحي فتعلم ما علّمه موسى «و لكن» ناديناك و أنزلنا إليك الكتاب‏ «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» في قمتها العالية المنقطعة النظير بين كل بشير و نذير «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ» في الفترة الرسالية البعيدة المدى، «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» فأمرك- إذن- يا محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) أصعب من أمر موسى، و لأن عبأك أثقل و رسالتك أعلى و أشمل، فطريقك أطول و أعضل، فاصبر يا حامل الرسالة الأخيرة التي تحمل جوهرة خالدة من كل الرسالات.

و قد تلمح «ما كنت إذ قضينا و نادينا» أن جرى ذكر محمد (صلّى اللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 359

عليه و آله و سلم) فيما نودي إلى موسى و قضي إليه، و كما نجده في بشارات توراتية باقية حتى الآن رغم تطاولات التحريفات و التجديفات! و هنا روايات تؤيد تلك اللمحة اللّامعة بحق الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و أمته‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 130- اخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: لما قرب اللَّه موسى إلى طور سيناء نجيا قال: اي رب هل أحد أكرم عليك مني قربتني نجيا و كلمتني تكليما؟ قال: نعم محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) أكرم علي منك، قال: فان كان محمد أكرم علي منك فهل امة محمد أكرم من بني إسرائيل فلقت لهم البحر و انجيتهم من فرعون و عمله و أطعمتهم المن و السلوى؟ قال: نعم امة محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) أكرم علي من بني إسرائيل، قال: الهي أرنيهم، قال: انك لن تراهم و إن شئت أسمعتك صوتهم، قال: نعم، فنادى ربنا امة محمد أجيبوا ربكم فأجابوا و هم في أصلاب آباءهم و أرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا لبيك ربنا حقا و نحن عبيدك حقا، قال: صدقتم و انا ربكم و أنتم عبيدي حقا و نحن عبيدك حقا، قال: صدقتم و انا ربكم و أنتم عبيدي حقا قد غفرت لكم قبل ان تدعوني و أعطيتكم قبل ان تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا اللَّه دخل الجنة»

أقول علّه تعالى أسمعهم صوتا يشبه صوتهم إذ لا صوت لمن في الأصلاب و الأرحام ذرا و لا عقل و لا تكليف!.

و

في نور الثقلين 4: 130 عن عيون اخبار الرضا (عليه السلام) في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من الأخبار المتفرقة حديث طويل و فيه ان رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال:- و ذكر ما في معناه بزيادة قبل فضل أمته هي «قال موسى يا رب فان كان محمد أكرم عندك من جميع خلقك فهل في آل الأنبياء أكرم من آلي؟ قال اللَّه جل جلاله يا موسى اما علمت ان فضل آل محمد على جميع آل النبيين كفضل محمد على جميع المرسلين، و زيادة اخرى في جواب موسى بالنسبة لأمة محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): يا موسى لن تراهم و ليس هذا أو أن ظهورهم و لكن سوف تراهم في الجنان جنات عدن و الفردوس بحضرة محمد في نعيمها يتقلبون و في خيراتها يتبججون أ فتحب ان أسمعك كلامهم ... و عبارة اخرى هي التلبيات بدلا عما مضت: لبيك اللهم لبيك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 360

وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ‏ 47.

«لو لا» امتناعية تمنع‏ «مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» في الدنيا، و علّ الجواب بقرينة «لَوْ لا أَرْسَلْتَ ..» هو: لما أرسلنا رسولا، و ذلك مصيبة تصيب منكري الرسالات لو أن الدنيا دار جزاء، و انهم لا يحتجون على اللَّه‏ «فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا ..» و لكنهم محتجون لو لا الإرسال رغم ما قدمت أيديهم من التكذيب على مدار الزمن الرسالي، فيرسل اللَّه رسلا تترى: «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً» (4: 165)- «يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى‏ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَ لا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» (5: 19):

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى‏ مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ‏ 48.

«فَلَمَّا جاءَهُمُ» هؤلاء المشركين و أهل الكتاب أجمعين «الحق» رسول الحق محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) بالكتاب الحق في بعدي الشرعة و آية الرسالة «قالوا» المشركون‏ «لَوْ لا أُوتِيَ» محمد «مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى‏» من كتاب و آية رسالية، فلا أن القرآن مثل التوراة، و لا معجزة القرآن كالآيات الرسالية لموسى.

و هنا أجوبة ثلاث حلا و نقضا و تحديا اكتفي هنا بالثاني: ألم يكفروا ذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد و النعمة و الملك لك لا شريك لك، قال: فجعل اللَّه عز و جل تلك الإجابة شعار الحاج ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 361

الجيل المشرك بكل الرسالات‏ «أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى‏ مِنْ قَبْلُ» كما كفروا بما أوتيت يا محمد من بعد «1» إذ «قالوا» فيك و في موسى على سواء «سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ».

و الحل‏ «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» (6: 124)- «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ» (29: 51) و ليست من لزامات آيات الرسالات المشابهة إلّا في التدليل على صدقها و هي دالة حيثما حلت، فالمشركون لم يكونوا صادقين في اعتذارهم، إذ كانوا مع أهل الكتاب في الجزيرة فلم يصدقوا بما أوتي موسى من قبل، فهنا الاعتذار باعتراض: «لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى‏» مردود عليهم بنقض المثل‏ «أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا ..» فما ذا تفيدهم المماثلة المقترحة إلّا مماثلة الكفر، و لا يزيدون غير تخسير.

كما و «قالوا» أهل الكتاب هودا أو نصارى نفس القالة: «وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى‏ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ..» (6: 124). «أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى‏ مِنْ قَبْلُ» كفرا بإشراك حيث عبدوا العجل، و كفرا في مواضع عدة كقصة البقرة و اضرابها، و كفرا بالبشارات المحمدية المودوعة في التوراة «قالوا» هؤلاء الكفرة من أهل الكتاب لموسى و هارون، و للتوراة و القرآن‏ «سِحْرانِ تَظاهَرا» لا «ساحران» تعميقا في فرية السحر كأن كل كيان الكتابين و الرسولين سحر «إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ»!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الواو في «أ و لم» عطف على محذوف هو الكفر بالرسالات السابقة و الرسالة الأخيرة، فهم في ثالوث الكفر بالرسالة ما تشابه منها و سواها.

ثم «من قبل» كما تتعلق ب «أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا ..» قصدا إلى المشركين زمن موسى، كذلك تتعلق ب «ما أُوتِيَ مُوسى‏» قصدا إلى الحاضرين، توحيدا بين الحاضرين و الغابرين في ذلك الكفر المماثل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 362

و مهما كان المعنيان معنيين من «سحران» و لكنما الأصل هنا هما الكتابان كما يشهد له‏ «أَهْدى‏ مِنْهُما» كجواب التحدي فيهما: «سِحْرانِ تَظاهَرا» بغير مظهرهما كأنهما آية بينة، و أظهر القول هنا هو من المشركين، و الكتابيون معنيون على هامشهم، فالنقض يشملهما جميعا مهما اختلفت دركاتها في كفرهما، و إلى جواب ثالث تحديا ان يأتوا بمثل التوراة و القرآن:

قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى‏ مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏ 49.

و حين لا بد في الرسالات الإلهية من كتب الوحي‏ «فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى‏ مِنْهُما»: التوراة و القرآن‏ «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» في فرية السحر، فأتوا من عند اللَّه بغير سحر هو أهدى منهما اتبعه، و ذلك تنازل في التحدي، فانه من واجهة اخرى قبلها «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ‏ ... إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (2: 23).

و ترى التوراة الحاضرة هي كتاب هدى مطلقة حتى يتحدى بها؟ علّ القصد هنا إلى التوراة الأصيلة، أم و الحاضرة المهيمن عليها القرآن مخطّئا أخطاءها و مصوّبا صوابها، ثم التحدي بهما جميعا و لا أهدى منهما جميعا و لا مثلا لهما!، ثم الهدى في بعد الدعوة الرسالية ماثلة في التوراة الأصلية مهما لم تكن في بعد الحجة للداعية.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ‏ 50.

«فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ» و لن «فاعلم» ثباتا على علمك بالوحي بمزيد علم من ذلك التحدي «انما» ليس إلّا «يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ» لا عقولهم المتحللة عنها، غير المحجوبة بها، و ذلك هو الضلال البعيد أن متبع الهوى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 363

يحاول أن تتبعه الهدى‏ «وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ» ضلالا ذا بعدين بعيدين عن الهدى: اتباع الهوى- بغير هدى من اللَّه! فقد توافق الهوى الهدى أحيانا كما تخالفها اخرى، و اما اتباع الهوى كأصل، ثم التخلف عن الهدى الأصل فهما أضل ضلال، و أظلم ظلم‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» فلا يهدي الهوى المتخلفة عن الهدى.

و كضابطة ثابتة كلما لا يوافق كتاب اللَّه و سنة رسول اللَّه، أو تخالفهما من رأى، فهو هوى ضالة، مهما أثبتته الأدلة العلمية و العقيلة أماهيه، فإما هدى تختص هي بوحي اللَّه، و إما هوى تعم ثالوثها نفسا و عقلا و علما، كما و ان رسول الهدى‏ «ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏» «1».

وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ‏ 51.

و انه قول الوحي الهدى حيث تترى على مدار الزمن دونما انقطاع‏ «وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (43: 48) «و لقد» تأكيد في بعدي الرسل و الرسالات، و هما و الكتابات، و هما و المعجزات‏ «وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ» الحق المطلق‏ «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» به و لمّا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 132 في أصول الكافي عدة من أصحابنا عن احمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن (عليه السلام) في الآية قال: يعني من اتخذ دينه رأيه بغير امام من أئمة الهدى.

و

عن علي بن ابراهيم بسند متصل عن سدير قال قال ابو جعفر (عليه السلام) يا سدير أ فأريك الصادين عن دين اللَّه ثم نظر إلى أبي حنيفة و سفيان الثوري في ذلك الزمان و هم حلق في المسجد فقال: هؤلاء الصادون عن دين اللَّه بلا هدى من اللَّه و لا كتاب مبين، ان هؤلاء الأخابث لو جلسوا في بيوتهم فجال الناس فلم يجدوا أحدا يخبرهم عن اللَّه تبارك و تعالى و عن رسوله (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) حتى يأتونا فنخبرهم عن اللَّه تبارك و عن رسوله (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 364

إلّا شذرا منهم قليلا و أكثرهم كافرون.

فهؤلاء المشركون الناكرون لوحي القرآن دونما اية حجة إلا لجة غامرة من الهوى، غير عامرة بالهدى، ثم أولاء أهل الكتاب و كأنهم لم يؤتوا الكتاب، و اما:

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ‏ 52.

أ ترى ضميري الغائب في «قبله- به» راجعان- فقط- إلى القرآن، لأنه هنا كان محلّ النقض و الإبرام كما «قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ ..»؟ و الحق في‏ «فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا» هو الرسول الحق برسالة حقة في القرآن:

«قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ» هذا الحق الرسالي‏ «مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ ..»! أم هما راجعان إلى رسول القرآن؟ و «إِذا يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ» لا تعني إلّا القرآن! الوجهان هما المعنيان، و الرسول يتلى عليهم كما القرآن، بل و هو ايضا قرآن: «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ»، و حتى إذا لا تناسبه ان يتلى، فهذه قرينة انه القرآن، و تلك‏ «.. الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا» إنه نبي القرآن، فهما- إذا- معنيّان، فهما واحد مع أنهما اثنان.

«الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ» رسولا و قرآنا «هم به» قرآنا و رسولا «يؤمنون» و طبعا ليسوا هؤلاء كل الذين أوتوا الكتاب، بل هم‏ «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» (2: 121) «1»، اجل أولئك الأكارم يؤمنون به‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 131- اخرج ابن جرير و ابن المنذر عن أبي رفاعة قال: خرج عشرة رهط من أهل الكتاب منهم ابو رفاعة إلى النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) فآمنوا فأوذوا فنزلت‏ «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ» و فيه اخرج عبد بن حميد و ابن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 365

قرآنا و نبيه، لا فحسب بل و «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (2: 146) «... الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (6: 20). «1» و قد نص عليه في التوراة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

جرير و ابن المنذر عن قتادة في الآية كنا نحدث انها أنزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها و ينتهون إليها حتى بعث اللَّه محمدا (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و صبرهم على ذلك و ذكر لنا ان منهم سلمان و عبد اللَّه بن سلام.

و

فيه (133) اخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: نزلت في عبد اللَّه بن سلام لما اسلم أحب ان يخبر النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) بعظمته في اليهود و منزلته فيهم و قد ستر بينه و بينهم سترا فكلمهم و دعاهم فأبوا فقال: اخبروني عن عبد اللَّه بن سلام كيف هو فيكم؟ قالوا: ذاك سيدنا و أعلمنا، قال: أرأيتم ان آمن بي و صدقني أ تؤمنون بي و تصدقوني؟ قالوا: لا يفعل ذاك هو افقه فينا من أن يدع دينه و يتبعك! قال (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): أرأيتم ان فعل؟ قالوا: لا يفعل! قال: أرأيتم ان فعل؟ قالوا: إذا نفعل، قال: أخرج يا عبد اللَّه بن سلام فخرج فقال (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): أ و لم تثنوا عليه آنفا؟ قالوا: إنا احيينا أن تقول اغتبتم صاحبكم من خلفه فجعلوا يشتمونه فقام اليه أمين بن يامين فقال: اشهد ان عبد اللَّه بن سلام صادق فابسط يدك فبايعه فانزل اللَّه فيهم‏ «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ ..»

و

عن سعيد بن جبير نزلت في سبعين من القسيسين فبعثهم النجاشي فلما قدموا على النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قرأ عليهم‏ «يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» حتى ختمها فجعلوا يبكون و اسلموا و نزلت فيهم هذه الآية «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ».

(1).: الدر المنثور 5: 131- اخرج البخاري في تاريخه و ابن المنذر عن علي بن رفاعة قال:

كان أبي من الذين آمنوا بالنبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) من أهل الكتاب و كانوا عشره فلما جاؤا جعل الناس يستهزءون بهم يضحكون منهم فانزل اللَّه: أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 366

كما في النص العبراني التالي «يدعوا ييسرائل إوايل حنبيا مشوكاع إيش هاروح عل روب عونخا و رباه مشطماه»:

بنو إسرائيل يعلمون و يعرفون ان النبي الأمي المصروع صاحب روح الهامي و صاحب الوحي»! و «المصروع» هنا تعريض عليهم حيث‏ «يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ»!.

وَ إِذا يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ‏ 53.

«وَ إِذا يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ» القرآن- أو- و نبي القرآن عرضا عليهم‏ «قالُوا آمَنَّا بِهِ» نبيا بكتابه، و إن اختصت التلاوة بالقرآن، فحين يتلى عليهم يقولون آمنا به: تاليا و متلوا عليهم، حيث القرآن برهان أن من جاء به رسول من عند اللَّه‏ «قالُوا آمَنَّا بِهِ» الآن‏ «إِنَّهُ الْحَقُّ» المطلق‏ «مِنْ رَبِّنا» بل ليس فحسب الايمان الآن‏ «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ» لما بشّرنا في كتاباتنا السماوية بالقرآن و نبيه، و كنا ناظرين ظهور ذلك الحق المبين، ف:

أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ‏ 54.

مرة أولى من الأجر الموعود بما آمنوا بكتابهم و بنبيه، و اخرى أن آمنوا بما يتلى عليهم من القرآن و نبيه‏ «1» أو الأولى بما آمنوا به من قبل، و اخرى لمّا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 133، أخرج احمد و البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي و ابن ماجه و ابن مردويه و البيهقي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأول و الكتاب الآخر و رجل كانت له امة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها و تزوجها و عبد مملوك أحسن عبادة ربه و نصح لسيده‏

و

فيه اخرج أحمد و الطبراني عن أبي امامة قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): من اسلم من أهل الكتاب فله اجره مرتين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 367

يتلى عليهم، أم الأولى بإيمانهم في المرحلتين، ثم‏ «بِما صَبَرُوا» «1» في المرحلتين من الايمان، «صبروا» على عقبات الايمان و عقوباته من ضفة اللّاإيمان، لا فحسب انهم صبروا على الأذى بل و استعلوا على الكبرياء النفسية:

«و يدرءون»: يدفعون أو يرفعون «ب» الطريقة «الحسنة» و بنفس الحسنة «السيئة» و كما أمروا «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (41: 34) «وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» في سبيل الايمان، و درء السيئة بالحسنة دفعا عن الايمان و قبيله و عن أنفسهم، بمال و قوة في الروح أو الجسم.

و قد تعني الحسنة و السيئة الحياة، فبالحياة الحسنة و هي الايمانية الصابرة المثابرة، يدفعون الحياة السيئة المتكاثرة المكابرة، و التقية في مجالاتها الصالحة من الحسنة و الإذاعة في غير صالحها سيئة «2»: «وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ» (13: 22).

ثم الدرء قد يكون دفعا و لمّا تصبه السيئة و هي مشرفة، أم رفعا كما التوبة الرافعة للمعصية، و كذلك ترك كبائر السيئات و فعل كبائر الحسنات، و على أية حال فسنة الحياة الايمانية المليئة بالشبكات و الشوكات و الحرمانات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 131- اخرج البخاري في تاريخه و ابن المنذر عن علي بن رفاعة قال:

كان أبي من الذين آمنوا بالنبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) من أهل الكتاب و كانوا عشرة فلما جاؤا جعل الناس يستهزءون بهم و يضحكون منهم فأنزل اللَّه: أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا ...».

(2) نور الثقلين 4: 123 في أصول الكافي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في قول اللَّه عز و جل: «أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا» على التقية، «وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ» قال: الحسنة التقية و السيئة الاذاعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 368

هي- حتى المقدرة- ان تدرء السيئة بالحسنة، فقد تكون الحسنة هي التقية و أخرى هي الجهاد و المقاتلة كل في سبيل الحفاظ على صالح الايمان و المؤمنين، فالحياة التي تفني فى سبيل القضاء على الكفر هي من الحسنة التي تدرء بها السيئة، كما و كلما ينفق من مال و حال و منال و عقل و علم في سبيل درء السيآت هي من الحسنة، «فلا تكونن ممن يقول في شي‏ء أنه في شي‏ء خاص» ما وسعت الدلالة لمداليل واسعة شاسعة.

وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ‏ 55.

أولئك الأكارم من أهل الكتاب، المؤمنون بالقرآن و نبيه هم صابرون في ايمانهم صامدون، و من تصبّرهم في اللَّه‏ «إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ» حين انتقلوا من كتابهم الى القرآن، سمعوا من أهل ملتهم السابقين‏ «أَعْرَضُوا عَنْهُ» و الإعراض عن اللغو هو عدم التأثّر به، و الإجابة عنه، و هو من شيم المؤمنين الصادقين‏ «وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً» (25: 72) و لم يقولوا لغوا جوابا عن لغو بل‏ «وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ» فلما ذا اللغو إذا، فكما لا نسمعكم لغوا إذ لم تؤمنوا فلا تسمعونا لغوا إذ آمنا، و ليس منها إلّا «سَلامٌ عَلَيْكُمْ» في لفظة القال و واقع الحال و الأعمال‏ «وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً»! «لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ» اللاغين بلغوا لقول و زخرفه رغم ما يبغون علينا هؤلاء المجاهيل، و هذا من درء السيئة بالحسنة، «لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ» إلّا أن ننصحهم و نهديهم إلى صراط مستقيم.

و هذه مفاصلة حسنة بينهم و بين اللاغين، اعراضا عن المقابلة بالمثل أولا، و جدالا بالتي هي احسن ثانيا، و سلام عليهم اعلاما انهم ليسوا لهم إلّا سلامة ثالثا، ثم متاركة معهم أخيرا: «لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ» أن نكالمهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 369

أو نجالسهم إذا هم مصرون على الجهالة «1».

و يا له من ادب بارع يقابلون به السوء الهارع، إذ هم يحتاجون إلى مزيد من صامد الايمان، فلا يهتاجون أمام اللغو من قولة للإيمان، و إنما هو الترفع و السماحة وحب الخير حتى للمسيئين، مهما اقتضى الخير استئصالهم إذا كانوا مفسدين.

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ‏ 56.

إن رسول الهدى كان يحب ان يهدي الضالين كلهم أو جلّهم فيضيق صدرا بما يرى من صمودهم على الضلال قلقا، و يحاول ليل نهار ان يحصل على عدد أكثر ممن يهتدي إلى اللَّه، فنزلت هذه و اضرابها مسلية خاطره القلق‏ «إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ»- «لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ» .. و «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ» هداه‏ «وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» هدى التوفيق إلى صراط مستقيم بدلالتك الرسالية الوافية، فلا بد لواقع الهدى من ضم الهديين، هدي منك تدليلا إلى شرعتك، و هدي من اللَّه توفيقا لتقبلها و الإقبال إليها، و ليس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

روى محمد بن إسحاق في السيرة «ثم قدم على رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و هو بمكة عشرون رجلا أو قريبا من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه و كلموه و سألوه و رجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مساءلة النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى و تلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله و آمنوا به و صدقوه و عرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من امره فلما قاموا عنه اعترضهم ابو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من اهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم و صدقتموه فيما قال؟ ما نعلم ركبا أحمق منكم! فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه و لكم ما أنتم عليهم لما نأل أنفسنا خيرا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 370

يوفق اللَّه عبدا إلّا ان يريد هو الهدى فاهتدى بما تحرّى و وفقه اللَّه‏ «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17).

و

قد يروى عن رسول الهدى قوله في واقع الضلالة و الهدى: «بعثت داعيا و مبلغا و ليس إلي من الهدى شي‏ء و خلق إبليس مزينا و ليس اليه من الضلالة شي‏ء» «1»

، و هو (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) لا يعني من السلب إلّا التدليل في الهداية أو التضليل، و لا من الإيجاب إلّا واقعهما في حقل التخيير و ليس التسيير.

فليس الرسول هاديا إلّا في حقل الدلالة الرسالية: «وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (42: 53) ثم الهدى الواقعية توفيقا لها فوصولا إليها هي من اللَّه لا سواه، فالثابتة له هي هداية البيان، و المسلوبة عنه هي هداية التوفيق.

هذه هي الوجهة العامة للآية و اضرابها، و اما الخاصة، المتناحرة فيها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 134- اخرج العقيلي و ابن عدي و ابن مردويه و الديلمي و ابن عساكر و ابن النجار عن عمر بن الخطاب قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): ...

و

في نور الثقلين 4: 134 في أصول الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن ابن فضال عن علي بن عقبة عن أبيه قال قال أبو عبد اللَّه (عليه السلام): اجعلوا أمركم هذا للَّه و لا تجعلوه للناس فأما ما كان للَّه فهو للَّه و ما كان للناس فلا يصعد إلى السماء و لا تخاصموا بدينكم الناس فان المخاصمة ممرضة للقلب أن اللَّه عز و جل قال لنبيه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» و قال‏ أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس و إنكم أخذتم عن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و علي (عليه السلام) و لا سواء و اني سمعت أبي (عليه السلام) يقول: إذا كتب اللَّه على عبدان يدخله في الأمر كان اسرع إليه من الطير إلى و كره، و في كتاب التوحيد مثله سواء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 371

بين روايات العامة و الخاصة فمما يجب ان نذود عن ساحة القرآن الحكيم، ما يمس من ساحة الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) ام ربيّه و وصيه علي امير المؤمنين، نكاية اولى على الرسول مصارحة، و ثانية عليه إشارة في الإزراء بأخيه في أبي طالب أبيه، و من اشنع ما رووه ان النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) كان يحب إسلام أبي طالب فنزلت‏ «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ...»

و كان يكره إسلام وحشي قاتل حمزة فنزلت فيه‏ «يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ..» فلم يسلم ابو طالب و اسلم وحشي» «1»! و ذلك البعيد البعيد عرض للمعارضة بين حب اللَّه و رسوله، نكاية بالإمام علي (عليه السلام)، و المختلق أعمى! و روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام عن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) متظافرة في ايمان أبي طالب، و قد ألفت فيه كتب فذة و أنشدت أشعار، و الشعر و النثر المنقول عنه شاهد لإيمانه، و قد آوى النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) صغيرا و حماه كبيرا و حتى النفس الأخير من حياته كان من أعظم المناصرين له (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)! و قد تبلغ أشعاره في مدح النبي و تصديقه سفرا فذا، كما الروايات في ايمانه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في المجمع قيل نزول قوله «انك ...» في أبي طالب فان النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) كان يحب ... رووا ذلك عن ابن عباس و غيره، و في الدر المنثور 5: 133

عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال يا عماه قل لا إله إلا اللَّه أشهد لك بها عند اللَّه يوم القيامة فقال: لو لا ان تعيرني قريش يقولون ما حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك فأنزل اللَّه: انك لا تهدي من أحببت و لكن اللَّه يهدي من يشاء و هو اعلم بالمهتدين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 372

[سورة القصص (28): الآيات 57 الى 75]

وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى‏ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى‏ إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (57) وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (58) وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى‏ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى‏ إِلاَّ وَ أَهْلُها ظالِمُونَ (59) وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ زِينَتُها وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (60) أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)

وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (63) وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (66)

فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى‏ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67) وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ (69) وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى‏ وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ (71)

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (72) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (75)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 374

هنا قولة اخرى عاذرة غادرة للمتخلفين عن الإيمان من هؤلاء المشركين القاطنين في حرم اللّه، بعد ما و جموا بنقض و تحدّ في قولتهم الأولى، و شهدوا أن الرسول حق، يردها اللّه عليهم بإجابات عدة تستأصل كل أعذارهم و أغدارهم، فإما ان يؤمنوا أم يظلوا كافرين لمصلحيات متخلفة خاوية:

«وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا»! وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى‏ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى‏ إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ‏ 57.

«إن» هنا دليل قربهم إلى الايمان لظهور الحجة و بهور الحجة، أم إظهارا لقربهم لو لا المانع، و «نَتَّبِعِ الْهُدى‏» دليل تصديقهم لها و إلّا لم يسمّوها هدى، و «معك» دليل انه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لم يطلب منهم اتباعه، بل اتباع الهدى معه، الهدى التي معه، و اتباعها معه إلى اللّه.

«نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا» و هي الحرم المستفاد من‏ «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً» و التخطف هو الاختلاس بسرعة، إذ لا تمهلنا كتلة الشرك أن نظل هنا بعد أن آمنا!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 375

و هنا عليهم ردود عدة تلميحة و تصريحة، و من الأولى المعطوف عليه المعروف ل «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ ..» ك: الم نمكن المؤمنين طول التاريخ الرسالي و نورثهم الأرض كما في بني إسرائيل و الذين من قبلهم و من بعدهم حتى هذه الرسالة الأخيرة، مهما تحملوا- على طول الخط- صعوبات هي طبيعة الحال في مسيرة الايمان بسيرته خلاف اللّاإيمان.

و من التصريحة كرد حاضر هو المعطوف هنا «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ ..» فقد مكنه اللّه لهم و هم مشركون، «حَرَماً آمِناً» يحترمونه فلا يحاربون فيه إلا شذرا نذرا و هم عارفون تلك الحرمة المنقطعة النظير في ذلك الحرم المحترم‏ «1».

فمن ذا الذي مكنه لهم حرما آمنا- و هم لا حرمة لهم- إلّا اللّه، أمنا تكوينيا و تشريعيا، فأحرى لهم ذلك الأمن إن آمنوا و طبقوا شرائط الايمان.

و هنا «آمنا» بدلا عن «مأمونا فيه» للتدليل على مدى الأمن فيه كأنه هو الأمن فضلا عن قاطنيه كما «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» (32: 97) ثم الكعبة المباركة يزيد أمنا لحد كأنه بنفسه الأمن: «وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً» (2: 125) و مما لا يريبه شك ان مكة المكرمة هي أءمن البلاد تكوينيا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 135 في روضة الواعظين قال علي بن الحسين عليهما السلام‏ كان ابو طالب يضرب عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- إلى أن قال-: فقال ابو طالب: يا ابن أخ إلى الناس كافة أرسلت ام الى قومك خاصة؟ قال: لا بل إلى الناس أرسلت كافة الأبيض و الأسود و العربي و العجمي، و الذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض و الأسود و من على رؤوس الجبال و من في لجج البحار و لأدعون السنة فارس و الروم، فتخيرت قريش و استكبرت و قالت: اما تسمع الى ابن أخيك و ما يقول؟ و اللّه لو سمعت بهذا فارس و الروم لاختطفتنا من أرضنا و تقلعت الكعبة حجرا حجرا فانزل اللّه تبارك و تعالى‏ «وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى‏ ..».

أقول: طبعا لم يكونوا هم كلّ قريش، و انما هم الذين و جموا بتلك البراهين و لم يبق لهم عذر إلا هذا، كما تدل الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 376

و تشريعيا و حتى قبل الإسلام، و قد كان يتخطف الناس من حولهم: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ» (29: 67) و لقد آمن قليل من هؤلاء العاذرين فآواهم اللّه و أيدهم بنصره مهما هاجروا: «وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (8: 26).

«.. حَرَماً آمِناً يُجْبى‏ إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» و الإجباء هو الإجلاب و «يجبى» مستقبلا مما يدل على استمرارية جبيها من كل مكان في كل مستقبل اكثر مما كان، و طبعا حسب الحاجيات الوقتية و المستمرة للحجيج و المعتمرين و القاطنين.

و «كل شي‏ء» تعم ثمرات القلوب كما في دعاء ابراهيم‏ «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ ..» (14: 37) إلى سائر الثمرات العلمية و العقلية و الاقتصادية و السياسية اماهيه، كما هي قضية الحال في ذلك المجال بالحشد العظيم من الحجاج و سائر الزوار، «رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا» و هو الرزق المتميز المنقطع النظير في المعمورة كلها، جمعا في هذا البلد الأمين بين كل الثمرات، في تلك الأرض القاحلة التي لا ماء وافرا فيها و لا كلاء!.

«وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» جاهلين هذه النعمة و المكرمة العظيمة أو متجاهلين عنها، و عن ان الذي مكّن لهم و آمنهم ليس هو الشرك باللّه، بل هو كرامة من اللّه بقبلة المؤمنين و مأمن الايمان!.

ثم و أقلهم يعلمون و هم الذين آمنوا و حقق اللّه لهم وعدهم كما مضت في آية الأنفال (26)، مهما كان منهم‏ «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا»! و لقد طمأن اللّه المؤمنين بنصرة من لدنه كما «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51) مهما كانت في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 377

سبيل الايمان عراقيل و عقبات.

فحتى إذا تخطّفوا من أرضهم، فهل ان عرضهم المتخطّف أولى بالصيانة أم أرضهم، و قضية الإيمان الصادق اليقين ان يضحي المؤمن للحفاظ عليه بكل ما لديه فضلا عما وعدهم اللّه من النصر مهما كان سبيله شائكا «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ».

ثم البقاء على أرض الوطن لا يضمن الأمن حين تكون الحياة متخلفة عن شرعة اللّه و المعيشة بطرة:

وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ‏ 58.

و ذلك نقض ثان و حجة ثالثة تدحض عاذرتهم‏ «وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ» مجتمع كافر غادر «بَطِرَتْ مَعِيشَتَها» فالنعمة المعيشة حين تحوّل إلى النعمة فهي بطرة ملهية، فالبطر دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة و قلة القيام بحقها و صرفها الى غير وجهها، فبطر المعيشة هو جعلها مبطرة ملهية في غير ما حقّ «و الدهر يومان يوم لك و يوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر و إذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر».

و قد تكون «بطرت» من كلا البطر: الشق، و البطر: تجاوز الحد في المرح، فعلها لذلك تعدت بنفسها إلى مفعولها، فقد شقت معيشتها إلى غير عيشتها فبدلت نعمة اللّه كفرا، و تجاوزت الحد في المرح و التغنج في النعمة فأصبحت نعمة و نقمة.

«فتلك» البعيد الرذيل العزيل «مساكنهم» البطرة العطرة العالية الغالية «لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ» إذ هلكت عن سكناها «إلّا قليلا» و قد يعم الاستثناء هنا مثلثا من المستثنى منه أن «أهلكنا .. إلا قليلا- لم تسكن إلا قليلا منها-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 378

من بعدهم إلا قليلا» قلات ثلاث في استثناءات ثلاث، مهما كان الأوسط منها يقتضي ادبيا «إلا قليل» لكن الآخران يقتضيان النصب كما هو، و الجمع بين الكل يقتضي النصب.

فقد أهلكنا إلا قليلا منها، و لم تسكن ما هلكت إلا قليلا منها، و لا من بعدهم إلا سكنى قليلة حيث أصبحت ممرات المارة المستفيدة منها قليلا دون أن تتخذ مساكن دائمة «وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ» إذ لا ساكن لها، فكما ان للّه ملك السماوات و الأرض في الأصل، ثم يجعلنا مستخلفين في بعض الملك مجازيا عارضيا و وقتيا، كذلك له هذا الثاني الذي يستخلفنا فيه حين تهلك أو يهلك أهلوها، فقد تهلك القرية بأهلها فلا بيوت حتى تسكن و إن قليلا، و قد يهلك أهلوها و تهلك هي بعضا فتبقى بعض البيوت عامرة أو شبه عامرة فلا تسكن إلا قليلا «وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ» على أية حال.

فيا أهالي أم القرى المرزوقة من كل الثمرات لا تبطروا معيشتها فتستحقوا الهلاك و الدمار، فإن بطر المعيشة هو السبب الأصيل لهلاك القرى باستهلاكها، و قد أوتيتم ذلك الحرم الآمن، فاحذروا أن يحل بكم الهلاك كما بالغابرين، فقد بقيت قراهم شاخصة تحدّث عن مصارع أهليها و لم يرثها احد بعدهم‏ «وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ».

وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى‏ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى‏ إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ‏ 59.

ليس- فقط- إهلاك القرى أن بطرت معيشتها إلّا بحجة قاطعة تبين حق المعيشة عن باطلها، أن يبعث في أمها- لا كلها- رسولا، فأم القرى و عاصمتها متّبعة بطبيعة الحال في حق أم باطل، و «ما كان» على طول خط التكليف «ربك» الذي أرسلك في أم القرى‏ «مُهْلِكَ الْقُرى‏ حَتَّى يَبْعَثَ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 379

أُمِّها رَسُولًا» لا فحسب «يبعث» بل و «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ» كل القرى آياتنا «يتلوا» بنفسه ام مرسليه الحاملين دعوته معصومة عاصمة «وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ» (26: 208) «وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى‏ إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ» فإنهم رغم الرسالات في أمها يظلمونها تكذيبا لها و بطرا في معيشتهم، ظلما لا يتحمل في حياة التكليف دون الظلامات اليسيرة القصيرة: «وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً» (17: 16) «وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا» (20: 134) «ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى‏ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ» (6: 131).

وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ زِينَتُها وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ أَ فَلا تَعْقِلُونَ‏ 60.

و هذه حجة رابعة تقطع معاذيرهم عن بكرتها أن أرضكم و كل ما عليها و لكم‏ «وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا» فحتى إذا خطّفتم من أرضكم ان اتبعتم معي الهدى، فما هي أرضكم و كل حياتكم إلّا متاع الحياة الدنيا و زينتها أمام عرضكم فلتشتروا بها ما عند اللّه‏ «وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ» مما أوتيتم‏ «وَ أَبْقى‏ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» رجاحة الهدى على الردى، و ان‏ «ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏» من «متاع‏ الْحَياةِ الدُّنْيا»؟ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 135- اخرج مسلم و البيهقي في الأسماء و الصفات عن أبي هريرة ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: يقول اللّه عز و جل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، فيقول: رب كيف أعودك و أنت رب العالمين؟ فيقول: اما علمت ان عبدي فلانا مرض فلم تعده، اما علمت انك لوعدته لوجدتني عنده، و يقول: يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني فيقول: اي رب كيف أسقيك و أنت رب العالمين؟ فيقول تبارك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 380

و ذلك هو التقويم الأخير لكل ما أوتيتم من شي‏ء فتخافون أن تختطف منكم إن آمنتم، و المفاضلة بين أمان الايمان و أمان اللاإيمان بحاجة إلى عقل عن الحياة و قيمتها، في مفاصلة بين وعد اللّه لقبيل الإيمان و وعد الشيطان لقبيله للّاإيمان:

أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ‏ 61.

كلا الوعد الحسن و متاع الحياة الدنيا من اللّه لأهل الآخرة و الدنيا، و الوعد الحسن لأهله هو الحياة الطيبة في الدارين‏ «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (16: 97) «حَياةً طَيِّبَةً» تشملهما، و «لنجزينهم» تخص الأخرى.

كما و هي حياة النصرة الربانية فيهما: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» و أما «من‏ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا» مطمئنا إليها، غافلا عن الأخرى‏ «هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» لسوء الحساب، حيث المحضرون هم المجبرون على الحضور، حسابا لسيئاتهم و تحسبا لعقوباتهم، و الحاضرون يوم الحساب هم أعم من المحضرين، كما في آيات ثمان تعد المحضرين من المعذبين اللهمّ إلّا البعض منها حيث تستثني عن الإحضار عباد اللّه المخلصين: «فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و تعالى: اما علمت ان عبدي فلانا استسقاك فلم تسقه اما علمت انك لو سقيته لوجدت ذلك عندي، قال: و يقول: يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، فيقول: اي رب و كيف أطعمك و أنت رب العالمين، فيقول: اما علمت ان عبدي فلانا استطعمك فلم تطعمه اما انك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 381

(37: 128) في احتمال اتصال الاستثناء تعميما لضمير الجمع كافة العباد، صحيح ان من الممتعين متاع الحياة الدنيا من يتذرّعها للحياة الأخرى، إلّا ان التقابل بينهم- هنا- و بين «من متعناه متاعا حسنا» يختص هؤلاء الممتّعين بمن‏ «رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها» فحتى إذا لم تخلف حياة المتاع عذابا في الأخرى، فقد يكفي أنها محرمة لها، و هل من عاقل يرجح هذه الفانية الهزيلة الرذيلة على تلك الباقية الفضيلة؟! فضلا عن انها تخلف العذاب الدائب فيها، ذلك! و إلى سائر المفاصلات بين الفريقين في النشأتين، ذكرى لمن كان له قلب أو ألقي السمع و هو شهيد!:

وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ‏ 62.

و هؤلاء الشركاء المزعومون هم بين خيّرين كالملائكة و النبيين، و الشريرين كفرعون و نمرود و سائر الطاغين، ثم عوان بينهما ككلّ الأصنام و الأوثان إذ لا عقل لها حتى تكون لها خيرة خيّرة أم شرّيرة، فالأولون ناكرون أنهم شركاء، هناك كما هنا، و الأوسطون ينكرون حق الشركة، معترفون بباطلها فهناك يستسلمون، و الآخرون لا عقل لهم فيصدقوا و ينكروا، و الثلاثة شركاء في نكران شركهم مع اللّه إذ تزول الحجب فتظهر الحقائق: «فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ» (10: 28).

قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ‏ 63.

«الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» هنا هم الشركاء الطغاة بين داعية إلى نفسها، أم إلى أصنامها، دون الأولين الأكارم، فهؤلاء هم حصب جهنم و أولاء من السابقة لهم الحسنى: «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ. لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ‏ ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 382

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ» (21: 101).

قال الأولون‏ «رَبَّنا هؤُلاءِ» المشركون الأتباع‏ «الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا» فطبيعة الغاوي هي الإغواء، كما طبيعة المهتدي هي الإهداء، مهما كانت باختيار دون إجبار كما هيه، فكما غوينا دون قسر، كذلك أغويناهم دون قسر، فلا سلطان على القلوب في غواية «وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ» (12: 22) «وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ. فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ. فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ» (37: 32).

«تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ» أ ترى «ما» هنا موصوفة، المتبرّء منه إلى اللّه هو عبادتهم إيانا، و هو في معنى قول قائدهم الأوّل:

«إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ» (14: 22)؟ و صيغته الصريحة «تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا»! أم موصولة، فالمتبرء منه هو أنفسهم؟ و صيغته الصريحة «تبرأنا إليك منا حيث عبدنا»! أم هي نافية نكرانا لعبادتهم إياهم كما «قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ» (10: 28)؟ و قد تكون «أغويناهم» تثبيتا لعبادتهم إياهم! و علّ الكل معنية فإن لكلّ شاهدا، ف «أغويناهم» مهما كان تثبيتا لعبادتهم إياهم، و لكنها في الأصل عبادتهم لأهوائهم، فهي هي آلهتهم التي ألهتهم عن عبادة اللّه إلى ما تهواه أنفسهم من دون اللّه، و «تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ» من عبادتهم إيانا و من أنفسنا إذ عبدنا «تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ» عن عبادتهم إيانا إذ ما كانوا إيانا يعبدون، و إنما يعبدون أهواءهم، ام لم تنحصر عبادتكم بنا، بل و مع اهوائكم و هي البادءة فيها، كما يلمح تقديم «إيانا» فلم يقولوا: «ما كنتم تعبدوننا» فإنها كاذبة، بل‏ «ما كُنْتُمْ إِيَّانا ...» أي ما انحصرت عبادتكم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 383

فينا، بل و معنا غيرنا و هي اهوائكم التي دعتكم إليها! و هي الأصل في عبادتكم المتخلفة، تبرأنا إليك من جريمة إغواءهم، و من عبادتهم لنا، و من ان يكونوا- في الحق- يعبدوننا فقط، و إنما هي أهواءهم‏ «أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ» (45: 23) فانما عبدوا أهوائهم مبدئيا، و لذلك أطاعونا فيما أغويناهم، إذ وجدوا فينا أهواءهم، و أما أنهم ما دعوهم إلى عبادتهم فلا تصريحة لها و لا لمحة، بل و «أغويناهم» و أضرابها تصريحة لهذه الدعوة النكدة الناكبة.

وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ‏ 64.

«ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ» الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لينجوكم من عذاب اللّه كما وعدتم فيهم «فدعوهم» شاءوا أم أبوا إذ لا خيرة في أمر اللّه هناك‏ «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ» فيما دعوهم إذ لا يستطيعون، و هم من الذين حق عليهم القول، و ذلك عذاب نفسي فوق العذاب، ثم‏ «وَ رَأَوُا الْعَذابَ» من فورهم متحسرين متمنين‏ «لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ» فلا يرووا العذاب، و قد تعني «لو» هنا استحالة ذلك المتمني فقد مضى يوم خلاص ولات حين مناص، إذ يتمنون لو ردّوا فاهتدوا فلم يروا يومئذ لعذاب.

وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ‏ 65.

هذا سئوال تأنيب و تهييب و اللّه يعلم ماذا أجابوا المرسلين، و كما المرسلون يسألون، إلّا أن هناك تخجيلا و هنا تبجيل: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ ..» (5: 109)، لا جواب هنا و لا هناك، فهنا «قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» احتراما على علمهم بما علمهم اللّه، و هناك تحيرا و انبهارا:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 384

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ‏ 66.

فرغم انهم على علم بأنباءهم في تكذيب المرسلين عميت عليهم حتى يزدادوا حيرة على حيرة، فالذاكر لذنبه قد يعرضه اعتذارا، و أخرى إنكارا، و في كلّ تخفيف وقتي، فحتى لا يخفّف عنهم هول المطلع عميت عليهم الأنباء «فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ» بعضهم البعض عن أنباءهم لأنهم سواء في التعمية عليهم فهم حائرون مائرون، و «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ» دون «عموا عنها» يلقي ظلام العمى عليهم ككل دونما منفذ ينفذون عنه، فهم في ذهولهم صامتون لا يدرون من اي إلى ايّ يميلون!.

و ذلك- فقط- للمكذبين دون المؤمنين على اختلاف درجاتهم في إجاباتهم المرسلين:

فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى‏ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ‏ 67.

هنا تقابل بين الصفحة المظلمة للكافرين، و الصفحة المشرقة للمؤمنين، و «عسى» ترجّيهم بذلك المثلث البارع من الفلاح، توبة و ايمانا و عملا صالحا، ان يكونوا من المفلحين، إذ لا يضمن لهم- ككل- العاقبة الحسنى، فقد يرجعون كفارا في العاقبة، فليلجأوا إلى اللّه ملتمسين منه حسن العاقبة، كما و ان الايمان بزميليه ليس هو السبب التام للإفلاح لو لا رحمة من اللّه و فضل، فعساه لهذا و ذاك يأتي هنا بعسى.

و قد تكون‏ «فَأَمَّا مَنْ تابَ ..» استثناء عن‏ «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ» تعميما للسؤال في «يناديهم»، أن الكل يسأل عنهم» «ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ» بين تخجيل و تبجيل و كما يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 385

و سلم) «1».

وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ‏ 68.

ذلك هو الجواب القاطع القاصع الأخير عن عاذرتهم ان لا مؤثر في الوجود إلّا اللّه، فلا طاقة مستقلة تتخطفكم عن أرضكم، مستغلة ذلك دون أن يشاء اللّه، فان له الخلق و الأمر دونما جبر و لا تفويض.

فعلى العبد أن يقدّم في اللّه ما في طوقه و وسعه، و للّه الخيرة في أمره أن يفعل ما يشاء كما يشاء، دون اتكالية بلا سعي و لا عمل، و لا استقلالية لهم فيما يشاءون، بل «أمر بين أمرين» أن يسعى و يتوكل على اللّه فيما يسعاه.

فلا إلغاء هنا للعقول و الإرادات و النشاطات، و لا تفويض لها في الحصول على كل المرادات، بل عليهم ان يتقبلوا ما يقع و يرضوا بما وقع بعد ما بذلوا- دون تبذّل- ما في وسعهم من التفكير و الإختيار و التدبير، و للّه الأمر من قبل و من بعد.

ف «و ربك» الذي خلقك و اختارك و رباك‏ «يَخْلُقُ ما يَشاءُ» لا ما يشاءون «و يختار» فيما يخلق أو يشرع دونما إجبار له فيما يخلق و يختار ما يشاء لا كما يشاءون‏ «ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» لا في خلق و لا اختيار «سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ» به في خلق أو اختيار.

إن «يخلق» هنا تعم كل خلق للمادة الأولية أماهيه من خلق، لا شريك له في أيّ كان منه و أيان من اي كان، و كذلك «يختار» في حقلي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 135- اخرج ابن المبارك في الزهد و عبد بن حميد و النسائي و الطبراني و ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: «ما من احد الا سيخلو الله به كما يخلو أحدهم بالقمر ليلة البدر فيقول يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 386

التكوين و التشريع‏ «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» «وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» (33: 36) مع العلم أن خيرة الرسول إنما هي خيرة اللَّه إذ لا يختار ما يختاره إلّا بوحي من اللَّه، و «ما كان» نهي و ليس نفيا يسلب عنهم أي اختيار.

و من اختياره تعالى أمر التشريع أن يختار الرسول الحامل لشرعته، و أوصياءه المحمّلين تبيين شرعته، فكما له اختيار الرسول دون سواه، كذلك له اختيار أوصياءه لا سواه، و ترى‏ «ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» تنفي عنهم الإختيار في الأفعال التكليفية؟ كلّا! و الإختيار فيها ثابت بدليل العقل و الكتاب و السنة، و الإختيار المنفي عنهم يختص بما يختص اختياره باللَّه، كخيرة الخلق و الأمر تشريعا و سواه من أمر الخلق، و كذلك الاختيار المطلق في الأفعال الاختيارية، فللَّه الإختيار المطلق في كل ما يختار، و ليس لنا مطلق الإختيار إذ قد تمنعنا موانع عما نختار، ثم قد نختار صالحا أو طالحا لا يختاره اللَّه تكوينا فهنالك يكلّ الإختيار كما في ذبح ابراهيم ولده، و في حرقه (عليه السلام) بالنار، إذ لم يؤثر الإختيار هنا و هناك.

فالاختيار المنفي عنا في حقل التكوين هو الإختيار المطلق، و في حقل التشريع هو مطلق الإختيار، فحين «لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين» لم يكن لنا في أفعالنا الاختيارية الإختيار المطلق، فانه تفويض فإشراك باللَّه في ذلك الاختيار «سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ»، و حين لا شارع إلّا اللَّه:

«أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ» (42: 21) فمطلق الإختيار لنا في التشريع- و إن في حكم واحد- إشراك باللَّه‏ «سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

كما و أن اختيار الرسل و أوصياءهم الحملة لرسالاتهم من غير اللَّه إشراك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 387

باللَّه في حقل التشريع‏ «سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

و قد استدل الامام الرضا و القائم المهدي و الإمام الصادق عليهم السلام بالآية و سواها على انحصار نصب الإمام باللَّه و انحساره عمن سواه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 136 في أصول الكافي ابو القاسم بن العلا رفعه عن عبد العزيز بن مسلم عن الرضا (عليه السلام) حديث طويل في فضل الإمام و صفاته يقول فيه: هل يعرفون قدر الامامة و محلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم- إلى قوله (عليه السلام)- لقد راموا صعبا و قالوا إفكا و ضلوا ضلالا بعيدا و وقعوا في الحيرة إذ تركوا الإمام عن بصيرة، زين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل و كانوا مستبصرين، رغبوا عن اختيار اللَّه و اختيار رسول اللَّه الى اختيارهم و القرآن يناديهم: «وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ» و قال عز و جل: «وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ».

و

فيه عن كتاب كمال الدين و تمام النقمة باسناده إلى سعد بن عبد اللَّه القمي عن الحجة القائم (عليه السلام) حديث طويل و فيه: قلت فأخبرني يا ابن مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الامام لأنفسهم؟ قال: مصلح ام مفسد؟ قلت: مصلح، قال: فهل يجوز ان تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد؟ قلت: بلى، قال (عليه السلام): فهي العلة و أوردها لك ببرهان ينقاد لك عقلك ثم قال (عليه السلام): اخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم اللَّه عز و جل و انزل عليهم الكتاب و أيدهم بالوحي و العصمة إذ هم أعلام الأمم، أهدى إلى الإختيار منهم مثل موسى و عيسى عليهما السلام، هل يجوز مع و فور عقلهما إذ هما بالاختيار ان تقع خيرتهما على المنافق و هما يظنان انه مؤمن؟ قلت: لا- قال: هذا موسى كليم اللَّه مع وفور عقله و كمال علمه و نزول الوحي عليه اختار من اعيان قومه و وجوه عسكره لميقات ربه عز و جل سبعين رجلا ممن لا يشك في ايمانهم و إخلاصهم فوقع خيرته على المنافقين قال اللَّه عز و جل: «وَ اخْتارَ مُوسى‏ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا- الى قوله- لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ» فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه اللَّه عز و جل للنبوة واقعا على الأفسد دون الأصلح و هو يظن أنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 388

و قد تحتمل «ما» هنا بجبب كونها نفيا، أنها موصولة: «وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» اختيارا فوق كل اختيار، فلا يمضى اختيار و لا يمشّى إلّا ان يختاره اللَّه‏ «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» و هذا و إن كان في نفسه صحيحا، و هو قضية الأمر بين أمرين، إلّا أنه ليس يختار كلّ ما كان لهم الخيرة، كما في قصتي إبراهيم الخليل و أضرابهما، إلّا ان تختص‏ «ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» بالبعض دونما استغراق، لا سيما و أنه ضمن المعني من «ما» إذ تعنيهما كما هو الصالح لساحة الربوبية.

و من الخيرة الإستخارة في مورد الحيرة، حين لا تزول بتفكير و لا مشورة فيظل الإنسان حائرا لا يدري من أي إلى أي و كما يروى عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الأصلح دون الأفسد علمنا ان الاختيار لا يجوز أن يفعل إلا من يعلم ما تخفي الصدور و تكن الضمائر و تنصرف إليه السرائر و أن لا خطر لاختيار المهاجرين و الأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لما أرادوا أهل الصلاح»!،

و

في تفسير الفخر الرازي 25: 14 روى ابو امامة الباهلي عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) انه قال: كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام اللَّه تعالى.

و

فيه عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) في كلام طويل: و تعلم ان نواصي الخلق بيده فليس لهم نفس و لا لحظة إلّا بقدرته و مشيته و هم عاجزون عن إتيان اقل شي‏ء في مملكته إلا باذنه و ارادته قال اللَّه عز و جل: «وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ..».

(1).

الدر المنثور 5: 135- اخرج البخاري و ابو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجه و ابن مردويه و البيهقي عن جابر بن عبد اللَّه قال‏ كان يعلمنا السورة من القرآن يقول إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك و استقدرك بقدرتك و اسألك من فضلك العظيم فانك تقدر و لا اقدر و تعلم و لا أعلم و أنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم ان هذا الأمر خير لي في ديني و معاشي و عاقبة امري‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 389

وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ‏ 69.

إذا فهو- لا سواه- الذي له الخيرة إذ يعلم كائنات الصدور و كناناتها، فلا تخفى عليه خافية منها، فهو الذي يعلم صالحهم من طالحهم، تكوينا و تشريعا و انتصابا لرسل و أوصياء، و انتخابا لآيات الرسالة و موادها كما يعلم بحكمته العالية، فيختار كما يعلم دون اختيار من سواه إذ لا يعلمون كما «يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ».

وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى‏ وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ‏ 70 «هُوَ اللَّهُ» لا سواه‏ «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» لا سواه‏ «لَهُ الْحَمْدُ» كله لا لسواه، «فِي الْأُولى‏ وَ الْآخِرَةِ» فلا يحمد سواه إلّا من يحمل رضاه حمدا متجها في أصله إلى اللَّه‏ «وَ لَهُ الْحُكْمُ» لا حكم بجنبه لسواه «و اليه» لا سواه «ترجعون» كما منه تبدءون‏ «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».

و إنها كلمة التوحيد بأركانها الثلاثة بعد ركني السلب و الإيجاب، فلأنه‏ «اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» إذا «لَهُ الْحَمْدُ» في كل حقوله و اتجاهاته، في الدارين‏ «وَ لَهُ الْحُكْمُ» تكوينا و تشريعا» «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» هنا في الخلق و الأمر، و هناك في الحساب فالثواب و العقاب، ثم «هو» هنا كما ترجع إلى الذات المقدسة الغيبية، كذلك راجعة إلى «ربك» السابق ذكره خلقا و اختيارا و علما بما تكن صدورهم، ذلك «هو اللَّه» دون من لا يخلق و لا يختار و لا يعلم كما هو، «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» في الذات و الصفات و كافة شئون الألوهية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و عاجل أمري و آجله فاقدره لي و يسره لي و ان كنت تعلم ان هذا الأمر شر لي في ديني و معاشي و عاقبة امري و عاجل امري و آجله فاصرفه عني و اصرفني عنه و اقدر لي الخير حيث كان و رضني به و يسمى حاجته باسمها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 390

و الربوبية، توحيد بيّنة الجهات، محلّقة على كلّ النشآت، في الذات و في صفات الذات، يزيل كل وحشة و دهشة عن المؤمنين به، مطمئنا إياهم على أية حال، في كل حلّ و ترحال.

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ‏ 71.

سرمد الليل- و هو تداومة عذاب- كما سرمد النهار عذاب، و قد تلمح له «عليكم» هنا و هناك، و «إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ» فيها لاختلاف شروط الحياة في الدارين، فليكن القياس في المعروف من الحياة الأولى، و ترى كيف يجتمع سرمد الليل و إتيان الضياء فيه و هما لا يجتمعان مهما كان هناك إله يأتي بضياء، فالمحال محال سواء أ كان للَّه ام لإله سواه؟

ليس القصد هنا إلى تحدّي الجمع، بل هو نقض الإرادة الإلهية في سرمد الليل المعروض، فلو كان هناك إله يريد ليرحمكم عن بأس الليل السرمد لقسم الزمان الى ليل و نهار كما قسمه اللَّه، أو «يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ» دون (نهار) هو من تعميم التنازل، أنه إذا يأتي بنهار فليأت بضياء مهما كان بغير الشمس، لأن سرمد الليل يقتضي تباعد الشمس لحد لا تضي‏ء هذه الكرة، و إذا أتي بالشمس فقد أتي- بطبيعة الحال- بكلا الليل و النهار قضية حراك الأرض الدورانية.

و القصد من ذلك التحدي ليس هو نقض الإرادة الإلهية ككل، بل هو تتميمها لو أنه جعل عليكم الليل سرمدا، فليكن الإتيان بضياء دون نهار فيه استئصال إرادته عن بكرتها.

فالناس متشوقون إلى فلق الصباح حين يطول بهم الليل أيام الشتاء، أم لا يهنأ لهم الليل لعارض يعرضهم، فيحنّون إلى ضياء الشمس، فكيف بهم لو فقد الضياء عن بكرته، فان سرمد الليل بظلامه يظلم الحياة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 391

و يكدّرها، على فرض إمكانية الحياة إن جعل الليل سرمدا، «أَ فَلا تَسْمَعُونَ» إلى هذه الذكريات التي توقظكم من همود الإلف و العادة في تتابع الليل و النهار؟.

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ‏ 72.

فالليل سكن و النهار فيه ابتغاء فضل من اللَّه و إبصار «أَ فَلا تُبْصِرُونَ» إلى ضوء النهار الذي هو فضل و إبصار كيف يصبح عذابا إن كان سرمدا، فكلا الليل و النهار رحمة متعادلة معتدلة:

وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ‏ 73.

فلكلّ من الليل و النهار خاصة رحمته، من سكن الليل و إبصار النهار:

«هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» (10: 67).

فأصل السكن و ضابطته هو في الليل، كما أصل الإبصار و الابتغاء من فضل اللَّه ضابطة في النهار، مهما تبادلا فيهما أحيانا لضرورة معاكسة: «وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ» (30: 23).

و آيتنا هنا عوان بين الآيتين، فاللف و النشر المرتب بين‏ «بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ» و بين‏ «لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» ينحو نحو الأولى، و عدم ذكر كلّ بعد كلّ يلمح إلى الأول، و الأولى أولى لأولوية الترتيب، و الثانية هامشية إذا اقتضت الحال‏ «وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» في الترتيب الأصل، و في المعاكسة الفرع، فإنهما على اختلافها نعمة و رحمة، قبال الرحمة و النقمة في سرمد الليل أو النهار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 392

وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ‏ 74.

هذه تتكرر هنا بعد آيات ثمان في حجة متصلة متواصلة، لأنها تجد بعدها ظرفا راجحا لتكرارها:

وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ‏ 75.

فمشهد نزع شهيد من كل أمة هو رسولها الذي يشهد بما جاء به و اجابته فصدقته أو كذبته، ذلك المشهد يتقاضى الشركاء الشهداء المزيفين، ليكون الشهيد ان بمعرض العرصات بين ضفتي الإيمان و الكفر، فيقضي اللَّه امرا كان مفعولا «فقلنا» للضفة الكافرة «هاتُوا بُرْهانَكُمْ» و هم خواء خلاء عن كل برهان «فعلموا» علم اليقين بعد ما تجاهلوا «أن الحق» كله «للَّه» دون من سواه‏ «وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ» من شركائهم، فالشهداء الحق يشهدون عليهم كما يشهدون لمن سواهم أو عليهم، ثم لا شهداء لهم من شركاءهم، إلّا شركاء في جحيم النار و بئس القرار ولات حين فرار.

[سورة القصص (28): الآيات 76 الى 88]

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى‏ فَبَغى‏ عَلَيْهِمْ وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ عِنْدِي أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلى‏ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ لا يُلَقَّاها إِلاَّ الصَّابِرُونَ (80)

فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ (81) وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (82) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (84) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى‏ مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى‏ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (85)

وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى‏ إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (86) وَ لا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْ‏ءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 394

الآيات السبع الأولى عرض عريض عن سيرة أثرى الأثرياء في تاريخ الإنسان و مسيرته و مصيرته، و هي تصوّر الدركات السبع الجهنمية له و لأضرابه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 395

من الطغاة البغات.

و لا تهمنا في ذلك العرض معرفة من هو قارون؟ إلّا أنه‏ «كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى‏» و لا يستفاد منه إلّا أنه كان من بني إسرائيل دون القبط الفرعونيين، تأشيرا عشيرا إلى أن القومية لا تفيد الإنسان ما لم يتخلق بأخلاق القائد الروحي للقوم، فقد يتخلف عنها- على ايمانه المدعى- لحد يصبح انحس و اتعس من قوم فرعون، و قد كان قارون هكذا، إذ جاء ذكره الفصل كأصل بين الطغاة بعد فرعون و قومه و الألدّاء الأشداء من المشركين على مدار الزمن حتى مشركي قريش، و قد نصحه قومه بإيحاء من الشرعة التوراتية بخمس هي سلبيات ثلاث و ايجابيتان:

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى‏ فَبَغى‏ عَلَيْهِمْ وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ‏ 76.

إن قلة الايمان و ضآلته، بكثرة الكنوز و قد فرح بها و مرح، هي السبب لبغيه ما بغى، في حين أن فرعون و قومه يبغون عليهم، و ما أنحسه بغيا عليهم و هو من قوم موسى؟

و قد ودعت‏ «فَبَغى‏ عَلَيْهِمْ» كمجهل يعلم أنه يحلّق على كل دركات البغي، عرضا و نفسا و مالا و عقلا و عقيدة الايمان، و هي النواميس الخمسة التي يجب الحفاظ عليها، و لكنه بغى عليهم ككل و في كل هذه، و لو كان بغيا دون الجميع لأتى بما يدل عليه، فالإطلاق يلمح إلى طليق البغي، و هكذا يصنع المال بوفره في قلب مقلوب عن الهدى، ملي‏ء من الردى، فيبغي صاحبه بماله و ماله على كل المستضعفين كما يهواه و يستطيع، و «إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى‏. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى‏» (96: 7).

و الكنوز هي الجواهر الثمينة ذهبا و فضة أماهيه، المخبوءة تحت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 396

الأرض، الفاضية عن الاستعمال و تداول الأيدى، «و آتيناه» دليل انه ظفر بها بإشارة إلهية دون علم من عنده، و يكفي بيانا لعظم هذه الكنوز و كثرتها «ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة» و هنا بطبيعة الحال تحل المروي عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) محلها من الواقع أن‏

«كانت أرض دار قارون من فضة و أساسها من ذهب» «1».

و ما هي «مفاتحه»؟ أ هي «مفاتيحه» جمع مفتاح: ما يفتح به القفل؟ و لا مفاتيح للكنوز ككنور إلّا إذا استخرجت الى غير مخابئها الكانزة، و إذا لا تسمى كنوزا! و حتى إذا سميت بها، ام بقيت في مخابئها و أقفلت، فلا تصل مفاتيحها لحدّ «لتنوء بالعصبة أولى القوى»! و أقل العصبة- علّها- عشرة ام تزيد كما في اخوة يوسف‏ «وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ» و إذا كانت العصبة اولي قوة، فكل واحد منها يحمل لا قل تقدير مائة كيلو غراما، فحمل الكلّ لأقل تقدير الف كيلو غرام! و ذلك- علّه- أثقل من كل مفاتيح الكنوز في الأرض كلها! فيا ويلاه إن كانت العصبة أو ألو القوة عشرة آلاف كما في رواية «2».

ثم التبعثر في الكنوز خلاف الحيطة للحفاظ عليها فلتجمع في مكانات عدة شاسعة واسعة، تكفيها لأكثر تقدير كيلو غرام من المفاتيح! ثم «مفاتح» هي جمع مفتح دون المفتاح!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 136- اخرج ابن مردويه عن سلمان رضي اللَّه عنه قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ...

(2)

نور الثقلين 4: 138 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى أبي بصير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام): و ما يكون أولوا قوة إلا عشرة آلاف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 397

أم إنها الكنوز نفسها؟ و ليست هي مفاتح، و لا أنها مفاتيح لنفسها! و لا أن حمل العصبة العشرة أولي القوة، ثروة منقطعة النظير!.

إنها «مفاتحه» جمع مفتح، و هو مكان فتح الكنز و هو بابه، و الضمير المفرد الغائب راجع إلى «ما» فقد كانت أبوابها كبيرة و ثقيلة لحد «لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ» و النوء هو النهوض بالحمل على ثقل للحامل، و العصبة من يتعصّب بعضهم لبعض متضامنين في قواتهم كرجل واحد، و لو كانت هي المفاتيح لكانت المفاتيح دون المفاتح، و لكانت تناء بالعصبة لا «تنوء» فهي- إذا- أبوابها العريضة الثقيلة التي تنهض بالعصبة أولي القوة، كما و أن باب خيبر كانت لتنوء بالعصبة و نهض الإمام علي (عليه السلام) بفتحها شخصيا دون حاجة إلى سواه! ... و لقد كان مرحا فرحا بما أوتي من الكنوز جامحا شرها في بغيته بما أوتيه، فوجد من قومه من يحاول رده من بغيه باستئصال سببه و هو فرحه بكنوزه: «إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ» بما لك فيلهيك عما يعينك‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ» بأموالهم و على أية حال، إلا فرحا بالفوز عند اللَّه، و لحدّ يشجع صاحبه إلى ما يرضاه اللَّه، «وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ ..» (30: 4) و من سواهم يفرحون بالحياة الدنيا بغير الحق: «وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ» (13: 46)- «ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ» (40: 75)- «حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً» (6: 44).

ف «لا يحب» يختص بهؤلاء الفرحين دون أولئك المؤمنين، و لأن اللَّه يحب فريقا و يبغض آخرين، ف «لا يحب» عبارة اخرى عن «يبغض»، و كما «لا يبغض» هي الأخرى عن «يحب»، و ذلك لأن اللَّه عالم الغيب و الشهادة و بيده ناصية كل شي‏ء، لا انعزالية له عن أيّ من المخلوقين، فلا ثالث عنده ألّا يحب و لا يبغض، فإنه إما لجهل بمادة الحب و البغض، أم جهل بمن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 398

يحملهما! ففرح الزّهو الذي هو من مخلّفات الاعتزار بالمال، و الاحتفال بالثراء و حسن الحال، إنه بطر يلهي عما يعنى، و ينسي النعمة و المنعم و ما يتوجب على المنعم.

كما أن فرح الشكر بما أنعم اللَّه، مستخدما في سبيل مرضات اللَّه، تفريحا للمؤمنين باللَّه و تفريجا عن عباد اللَّه، إن ذلك فرح الإيمان كما نراه من أهل اللَّه، هنا و في يوم لقاء اللَّه: «فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» (3: 170)

«لا تفرح بكثرة المال و لا تدع ذكري على كل حال فان كثرة المال تنسي الذنوب و ترك ذكري ينسي القلوب» «1»

، و ذلك نهي صارم عن فرح عارم، و من ثم أمر ثم نهي ثم أمر ثم نهي، فإنهما القائمان بالإصلاح في المفسدين.

وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ‏ 77.

الابتغاء هو التطلّب، فهم يأمرونه أن يتطلب فيما آتاه اللَّه من الكنوز

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 138 في كتاب الخصال عن أبي عبد اللَّه عن أبيه عليهما السلام قال: أوحى اللَّه تبارك و تعالى إلى موسى (عليه السلام): لا تفرح ..

و

فيه عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه: و الفرح مكروه عند اللَّه عز و جل،

و

فيه عن كتاب التوحيد باسناده إلى أبان الأحمر عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام‏ انه جاء اليه رجل فقال له: بأبي. و امي عظني موعظة فقال (عليه السلام): إن كانت العقوبة من اللَّه عز و جل حقا فالفرح لماذا؟

و

في الدر المنثور 5: 137 عن أبي الدرداء قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): زر القبور تذكر بها الآخرة و اغسل الموتى فانه معالج جسد خاو و موعظة بليغة و صل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فان الحزين في ظل اللَّه يوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 399

و سواها من النعم آفاقية و انفسية «الدَّارَ الْآخِرَةَ» لا فحسب هذه الأدنى، إخلادا إليها، و مشية المكبّ عليها، «وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ» الحياة «الدنيا» فلا نصيب لك أخيرا فيها إلا الكفن، إذ لا تسحب معك غيره فتصحبه في الأخرى، و لا في الأخرى إلّا متاعها أن تشري ذلك الأركس الأدنى بالحياة العليا، و لا لك قبلهما إلا قدر الحل من الحاجة المعيشية و الزائد عليها و بال هنا و في الأخرى، فلتغتنم الفرصة السليمة لك فيها قبل فوات الأوان، فما لك نصيب من الدنيا فيها و في الأخرى إلّا هذه الأربع، من ينساها أخلد إلى الأرض و اتبع هواه و كان امره فرطا، و «نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا» لا «فيها» مما يدل على ان النصيب منها يعني صالح الدارين، فالحياة الدنيا لكلّ على قصرها هي بكل جنباتها نصيب المتاع للأخرى، فليتزوّد منها لها، من نسي النصيب المتاع أقبل إليها مبصرا إليها فيعمى، و من تمتع بها للأخرى مبصرا بها أبصرته.

فالذاكر نصيب الحاجة من الدنيا يوسع على خلق اللَّه فيما زاد عنها «1» و الذاكر نصيب رأس المال فيها مالا و حالا يتجر بها للأخرى‏ «2» و الذاكر نصيب الكفن منها لا يطمئن و يركن إليها، «و أحسن» إلى عباد اللَّه‏ «كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ» «و أحسن» في نفسك أعمالك للَّه‏ «كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 139 في الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يؤتى يوم القيامة برجل فيقال: احتج، فيقول: يا رب خلقتني و هديتني و أوسعت عليّ فلم أزل أوسع على خلقك و أيسّر عليهم لكي تنشر عليّ هذا اليوم رحمتك و تيسره فيقول الرب جل ثناءه و تعالى: صدق عبدي أدخلوه الجنة.

(2)

المصدر عن معاني الأخبار باسناده الى موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر قال حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الآية قال: لا تنس صحتك و قوتك و فراغك و شبابك و نشاطك ان تطلب بها الآخرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 400

إحسانا بإحسان و اين احسان من إحسان.

ف «أحسن» حالا و مالا و اعمالا، كما و كل ذلك مما «أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ» و ذلك تمثيل المجاراة، و إلّا فما احسان العبد بجنب إحسان اللَّه بشي‏ء يذكر! «وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ» «1» بما أحسن اللَّه إليك، جزاء الإحسان بالإساءة، و لا تبدل نعمة اللَّه كفرا تحلّ بها نفسك و ذويك دار البوار. جهنم يصلونها و بئس القرار «إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» و هو يبغضهم، فالمال و الثراء ذريعة ضارعة هارعة إلى كل إفساد في الأرض عرضا و عقلا و عقيدة و نفسا و مالا، لا سيما إذا كان بأيدي مردة الشياطين الذين يفسدون في الأرض و لا يصلحون.

و لأن هذه النصائح كانت مستأصلة لزهوة الثراء، و الالتهاء بالنعماء، فهو بزعمه يستأصل ان تكون كنوزه مما آتاه اللَّه، قائلا في جوابهم قولته النكدة الجاهلة:

قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ عِنْدِي أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) فساد الظاهر من فساد الباطن و من أصلح سريرته أصلح الله علانيته و من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية، و أعظم الفساد أن يرضى العبد بالغفلة عن الله تعالى و هذا الفساد يتولد من طول الأمل و الحرص و الكبر كما اخبر الله تعالى في قصة قارون: و لا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين و كانت هذه الخصال من صنع قارون و اعتقاده، و أصلها من حب الدنيا و جمعها و متابعة النفس و هواها و إقامة شهواتها و حب المحمدة و موافقة الشيطان و اتباع خطواته و كل ذلك مجتمع تحت الغفلة عن الله و نسيان مننه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 401

78.

ذلك الجواب- في زعمه- يستأصل كل تأنيب في هذه التساؤلات المتبنّية «آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ» ب «إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ» فلم يؤته اللَّه اياي- لو آتاه- دون علم و جدارة، و قد تلمح «أوتيته» دون‏ «آتاهُ اللَّهُ ..» أنه أوتي إياه على علم منه دون مشية من اللَّه، فالأوّل إشراك باللَّه في ذلك الإيتاء، و الثاني إلحاد فيه بتوحيد العلم في ذلك الإيتاء! أن ليس للَّه أي مدخل فيه حتى إذا لم يكن على علم عندي، صدفة فيه ام تقصدا ممن سوى اللَّه.

و هذان مزعمتان للأكثرية الساحقة ممن أوتوا مالا أو منالا، موحدين أو مشركين أو ملحدين، مهما استثني الأوّلون عن الإلحاد في الإيتاء: «فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ. قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ. فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ. أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (39: 52).

و تلك القولة الفاتكة من قارون هي قولة المغرور المطموس الناسي مصدر النعمة و صادرها حيث تعميه الثراء، قالة خاوية مكرورة على مرّ الزمن للأكثرية المطلقة ممن أوتيها مهما اختلفت دركاتها فيما تعنيه.

و تراه ماذا عني بقالته القالة: «إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ عِنْدِي» مع العلم انه يحصر إيتاءه به مهما كان الإيتاء من اللَّه أم سواه؟

أهو علم التوراة؟ و قد أوتي موسى و سائر المرسلين اكثر منه يوحي صارم لا دخيل فيه، و لم يؤتوا كنوزا كما أوتي! و كان ذلك يكفيه نقضا لما ادعاه، دون النقض بإهلاك قرون قبله!.

أم علم جمع المال؟ و لا يختص به علمه! فكثير هؤلاء الذين يعلمون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 402

ما يعلمه و اكثر و لا يؤتون معشار ما أوتي! ثم و ما هو- إذا- دور «عندي» و كان يكفيه «بعلمي»! إم إنه علم محال الكنوز؟ و قد تؤيده «عندي» اللامحة إلى اختصاصه به، كما و أن «على» الإحاطية هنا، تجعله يحيط علما بمحالّ الكنوز! و الكنوز مع العلم بمحالها هما من اللَّه!.

أم إن «عندي» تعني رأيه الخاص، ف «عندي انما أوتيته على علم» مني يحيط بموارد الكنوز أما ذا من علم مدعىّ؟ و إيتاء الكنوز على أية حال ليس إلّا من اللَّه امتحانا أم امتهانا! و على أية حال يدعي أن‏ «عَلى‏ عِلْمٍ عِنْدِي» هو فقط السبب لذلك الإيتاء، فقد أوتيته بجدارة و استحقاق، سواء أ كان المؤتي هو اللَّه ام سواه فلي التصرف فيه كما أريد، فلا حق للَّه و لا لمن سواه فيما يختص بي.

و هنا الجواب كلمة واحدة مشيرة إلى سواها «أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ» معطوفا على محذوف معروف ك:

الم يعلم ان كثيرا ممن كان على علمه و أعلى لم يؤت ما أوتي و لا معاشره، فليس إذا «عَلى‏ عِلْمٍ عِنْدِي» و ان لم يعلم ذلك لحمقه في عمقه‏ «أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ» الماضية «مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً» كفرعون و نمرود و شداد بإرمه ذات العماد، فإن كانت هذه الكنوز أوتيت على علم، فلما ذا الإفساد بها في الأرض و ذلك جهل، و ليس لمن يحصل على نعمة بسعي و علم ان يبد لها نعمة و يفسد بها، و إذا أوتيه على علم، فيعلم هو طرق الحصول على كنوز، فكيف لم يعلم ان ليس كل ذي علم يؤتى ما أوتيه، «أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ ..» و علم تحصيل المال أجهل من كل جهل إذا لم يعلم كيف يتصرف فيه، و لم يعلم ما هو مصير المفسدين بأموالهم في الأرض! و ذلك هو العلم النافع البارع أن يحجز صاحبه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 403

عن و بال المال على أية حال، لا- فقط- ما يجمع به المال، إن صح أن العلم هو الذي يجلب الأموال!.

فالشرعة الإلهية تحدد الملكية الفردية تحصيلا بكيفيتة، و تجميدا و تصريفا، فلها في كل هذه الثلاث حدود مقررة في كتابات الوحي و لا سيما القرآن و السنة المحمدية (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

فليكن تحصيل المال بوجه مشروع، و إبقاؤه و صرفه بوجه مشروع، و التخلف عن شرعة الإقتصاد قد يكون ثالوثا محرما في زواياه الثلاث، أم حلا في اقتناءه محرما في الآخرين، ام و حلا في مصارفه محرما في إبقاءه، أو معاكسا له، فلا حرية- إذا- في التصرفات الاقتصادية مصرفيا بحجة الحل في اقتناء المال.

فكما أن الحصول على المال بغير الحلال إفساد في الأرض، كذلك إبقاءه تكنيزا، أم صرفه بغير وجهه، هما ايضا إفساد في الأرض.

فهب إن قارون أوتي كنوزه بحلّ كما تلمح له «و آتيناه»- «عَلى‏ عِلْمٍ عِنْدِي» أم على جهل، و لكنها على أية حال مال اللَّه يؤتاه هو و أحزابه فتنة و ابتلاء، و أصحاب الأموال الطائلة إنما هم مستخلفون فيها إنفاقا صالحا دون إسراف و لا تبذير: «وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» (57: 7) فالمتخلف عن الإنفاقات الصالحة، تكنيزا أم تصريفا غير صالح، هو من المفسدين في الأرض، المهددين بالدماء و البوار «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ»:

«وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ»- «فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ ..» إذ «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ» (55: 41).

و هذا السئوال المنفي هو الاستعلام، حيث الملك العلام يعلم كل إجرام فلما ذا- إذا- سئوال الاستعلام، لا هنا عند ما يهلكون، حيث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 404

يباغتهم عذاب الاستئصال، و لا هناك مهما سئلوا سئوال التنديد و الإفحام دونما استفهام: «وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ» (37: 24)، و عذاب المجرمين مباغتة دون تساؤل الاستعلام، فهو عذاب فوق العذاب، و هذا هو مصير الأثرياء المفسدين في الأرض بثرواتهم الهائلة، و لا سيما هؤلاء الذين يحصلون عليها ببغي، بسعي أم دون سعي.

تلك النصيحة الفسيحة الفصيحة لم تزدد صاحب الكنوز إلّا عتوا و نشوزا، و إفسادا في الأرض اكثر مما كان:

فَخَرَجَ عَلى‏ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ‏ 79.

«على» هنا تلمح لخروج عال غير متعوّد إظهارا لقوته الزاهية و شوكته العالية «في زينته» كأكثر ما يمكن، فقد خرج بمسرح هذه المسيرة الغالية في كل زينة له ممكنة، ليقطع ألسنة الناصحين، و يقمع الحاسدين عليه الناقمين، فقد تصدق ما

يروى عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) انه‏ «قال في اربعة آلاف بغل يعنى عليه البزيون» «1».

في ذلك الخروج ينقسم قومه قسمين: «الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا» و «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» و الأولون و هم الأكثرية الساحقة في كل زمان و مكان، هم الذين تستهوي زينة الحياة قلوبهم و تبهرهم دونما تطلّع إلى الحياة العليا، فتتهافت نفوسهم كما الذباب على الحلويات، و تتهاوى في هوات، سائلة لعابهم على ما في أيدي الأثرياء، ذوي الزينة و الكبرياء، يتمنون لو أن لهم مثل ما لهم، إذ هم- فقط- يريدون الحياة الدنيا، و يرونها الحظ العظيم، و ذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 138، اخرج ابن مردوية عن أوس بن أوس الثقفي عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «فَخَرَجَ عَلى‏ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ» قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 405

هو الجهل القاحل: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7)- «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» (53: 30).

و «يا ليت» التحسر لهؤلاء المجاهيل يحلّق على حياتهم غصة على غصة العدم، متجاهلين عن أسباب الثراء و مسئولياتها و خلفياتها، فأما الآخرون:

وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ لا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ‏ 80.

«العلم» هنا هو الناصح صاحبه و ذويه، فهو علم الإيمان و المعرفة الربانية، إيمانا صالحا بالتوحيد و الوحي و اليوم الآخر، دون مجرد الصلاحات الجامدة التي تحجب عن ذلك العلم بدل ان تكون نورا، فهو- إذا- العلم الذي يخشع صاحبه أمام ربه دون إلهاء، «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» (35: 28).

و قضية ذلك العلم النور أن ينير الدرب على المظلمين، دون كتمان عنهم و لا ضنّة، و هنا «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» أدوا واجب النصيحة البالغة لهؤلاء المجاهيل «ويلكم» و هي إما تركيبة عن «وي- لكم» أم مخففة عن «ويل- لكم» و هما متقابلتا المعنى، هتافا عليهم بتأويه من قولتهم الجاهلة «ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ» و ما أوتي قارون شر، فلا تعني «خير» هنا المعدّاة ب «من» تفضيلا، إذ لا فضل فيما أوتى حتى يفضّل عليه ثواب اللَّه.

و من ذا الذي يناله ذلك الثواب؟ «لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً» و الثواب الناتج عنهما يعم النشأتين، فإن منه النصرة الربانية: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51) كما منه اللذات الروحية من عبادة اللَّه و زلفاه، و لقد كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 406

و سلم) إذا همه أمر استراح إلى الصلاة فانها كانت قرة عينة في الحياة.

«وَ لا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ» و ترى ماذا تعني «ها» و السابق عليها «ثَوابُ اللَّهِ» مذكرا لا يتحمل ضمير التأنيث؟

التلقية هي التفهيم كما التلقي هو التفهّم، و لكنه تفهّم يلقى شغاف القلب، فهو أخص من التلقّن، و لقد عدّ الصبر هنا ظرفا لذلك التلقي، و ليس هكذا صبر إلا من حصائل الايمان و العمل الصالح، فقد تعني «ها» تلك العظمة- سواء أ كان استثناء «الصابرون» من الذين أوتوا العلم، أم تلحيقة معترضة من اللَّه، فلا تصل هذه العظة إلّا إلى «الصابرون» على فتنة الحياة و زينتها و إغرائها، و «الصابرون» على حرمانها، فهم أعم ممن اوتي متع الحياة و من حرمها، بل و الصبر على وجدانها أحجى و أقوى.

هؤلاء الصابرون، و هم المؤمنون العاملون الصالحات، هم يلقّون هذه العظة من قبل اللَّه و أهل اللَّه فيتلقونها.

و أما رجوعها إلى هذه الثلاث «ثواب الله- آمن- عمل صالحا» فغير صواب، حيث الصبر هكذا هو من مخلفات الايمان و العمل الصالح، فكيف يلقيّان مع الثواب للصابرين، اللهم إلّا ايمانا أءمن، و عملا صالحا أصلح، هما من خلفيات ذلك الصبر، و هذا من باب الاستخدام، أن لا يلقّى ثواب اللَّه و مزيد الايمان و العمل الصالح إلّا الصابرون، إلّا أن ثواب اللَّه هنا يتبنّى أصل الإيمان و العمل الصالح لا مزيدهما، و التلقية التفهيم لا تناسب واقع هذه الثلاث أم سواها، فهي إذا تلقية العظة، فلكل عظة ظرف له صالح، و لهذه العظة ظرف الصبر على زخارف الحياة الدنيا لمن أويتها أو حرم عنها.

هنا- و قد بلغت فتنة الزينة ذروتها- حيث تتهافت أمامها بعض النفوس المؤمنة و تتهاوى فضلا عن سواها- هنا من الرحمة الربانية ان تتدخل يد القدرة، تحطيما للغرور الجاهل القاحل، و حفاظا على ضعاف الايمان:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 407

فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ‏ 81.

و مهما كان مع قارون- في خروجه بزينته- أهله و هوامشه أم لم يكونوا، فالخسف حسب هذا النص خصّه دونهم‏ «فَخَسَفْنا بِهِ» قارون «و بداره» التي كان فيها- بطبيعة الحال- قسم عظيم من ثروته، فقد ابتلعته الأرض بداره، هاويا فيها بلا فئة ينصرونه من دون اللَّه، حيث تركته و شأنه الشائن، كما هو دأب الهوامش المتملقين دائما أنهم شركاء في رغد العيش فإذا جاء البلاء فحيدي حياد! و لا فحسب ان لم تنصره فئته، بل‏ «وَ ما كانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ» يائسا عنهم، بائسا في انخسافه!.

وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ‏ 82.

«الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ» و هم‏ «الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا» و ما كانوا من الصابرين على زهرتها و زهوتها، و لم يلقّوا العظة من الذين أوتوا العلم، هم الآن- و قد رأوا كيف خسف اللَّه به و بداره الأرض- ينتبهون قليلا «وَيْكَأَنَّ اللَّهَ ..» دون‏ «إِنَّ اللَّهَ» إذ لم يبلغوا بعد إلى اليقين بان الله يبسط و يقدر، و لا أنه لا يفلح الكافرون، و إنما» ويكأنه» في النفي و الإثبات فهم بعد في سبات، و على أية حال وقفوا يحمدون اللَّه أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس و هم يرون مصير قارون و هو رأس الزاوية! فانما الثراء هي ابتلاء قد تعقبها البلاء، فقليل هؤلاء الأثرياء الذين لا يبدلون نعمة اللَّه كفرا و نعمة، و كثيرهم الكافرون.

و هنا يسدل الستار على الفريقين، نقلة إلى ضابطة صارمة للناجحين في هذا الميدان:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 408

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ‏ 83.

إن الدار الآخرة بالزلفى و المكانة العليا، «تلك» البعيدة المدى، العالية الصدى، الغالية الهدى‏ «الدَّارُ الْآخِرَةُ» الحسنى، حصيلة لحسنى الأولى «نجعلها» تكوينا و تشريعا «لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ» أيا كان، و حتي في منصب العدل و الحكم الحق، إذ لا يريدون في ذلك الحقل إلّا تحقيق الحق و إبطال الباطل، و ما العلوّ الحكم عندهم إلّا ذريعة لذلك، و كما أشار إمامهم أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى نعله المخصوف قائلا:

«و الله لهي أحب إلي من إمرتكم هذه إلا أن أقيم به حقا أو أبطل باطلا».

فالعلو في الأرض لهم غير مراد، ثم‏ «وَ لا فَساداً» بعلو و غير علو، و العلو أيا كان يستتبع فسادا مهما كان لأهل العدل إلّا من عصم اللَّه و هداه.

فارادة العلو هي بطبيعة الحال من أقوى مصاديق الفساد في الأرض‏ «مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى‏ ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ. وَ إِذا تَوَلَّى سَعى‏ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ. وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ» (2: 206)) ... و ليس ان إرادة العلو في الأرض ممنوعة- فقط- لألد الخصام، بل و عدول المؤمنين، لأن كراسيّ الحكم مآزق بطبيعة الحال، و قل من ينجو منها، و

قد يروى عن رسول الهدي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قوله في الآية: «التجبر في الأرض و الأخذ بغير الحق» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 139- اخرج المحاملي و الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في قوله‏ «تِلْكَ الدَّارُ ..» قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 409

و

«لما دخل عليه (صلى الله عليه و آله و سلم) عدي بن الحاتم ألقى إليه و سادة فجلس على الأرض فقال (صلى الله عليه و آله و سلم): أشهد انك لا تبغي علوا في الأرض و لا فسادا فأسلم» «1»

و

«أوصيكم بتقوى الله و أوصي الله بكم‏ «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» ألّا تعلوا على اللَّه في عباده و بلاده فان اللَّه تعالى قال لي و لكم‏ «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» «2».

و

عن وصيه و خليفته في أمته علي امير المؤمنين (عليه السلام) «فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة و مرقت اخرى و فسق آخرون كأنهم لم يسمعوا اللَّه سبحانه ان يقول‏ «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ..» بلى و الله لقد سمعوها و وعوها و لكنهم حليت الدنيا في أعينهم و راقهم زبرجها» «3».

فقد يعني منها انني لست من هؤلاء الذين يريدون علوا في الأرض و لا فسادا فلما ذا- إذا- ثالوث النكث و المروق و الفسق، فلا يصلح لولاية أمور المسلمين إلّا مثلي، و كما

يقول‏ «نزلت هذه الآية في أهل العدل و التواضع من الولاة و أهل القدرة من ساير الناس» «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر- اخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم قال لما دخل على النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عدي بن حاتم ..

(2) نور الثقلين 4: 143 في امالي الطوسي باسناده إلى ابن مسعود انه قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في كلام طويل: ...

(3) المصدر عن نهج البلاغة عنه (عليه السلام).

(4)

عن مجمع البيان و روى زادان عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه كان يمشي في الأسواق و هو وال يرشد الضال و يعين الضعيف و يمر بالبياع و البقال فيفتح عليه القرآن و يقرء هذه الآية و يقول: نزلت ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 410

أجل فقد

«ذهبت و الله الأماني عند هذه الآية» «1»

أماني العلو في الأرض حتى للمؤمنين العدول فضلا عمن سواهم! و هذه الآية طليقة في التنديد بمن يريدون علوا في الأرض أيا كان فتنونين التنكير تنكير على تلك الإرادة على أية حال، و حتى‏

«ان الرجل ليعجبه ان يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها» «2»!.

فإرادة العلو في الأرض دركات أسفلها ارادة القيادة الكبرى للأمة، و أدناها إرادة الأجود من المال أو الحال، إلّا أن يبتغى مرضات اللَّه و تحقيق شرعة اللَّه، و كثير هؤلاء الذين يريدون علوا كذريعة «وَ إِذا تَوَلَّى سَعى‏ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ» و كما نراه على مدار الزمن الرسالي للرساليين فضلا عن سواهم.

و في كلمات للإمام علي (عليه السلام) حول قيادة الأمة نبراس ينير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن تفسير القمي حدثني أبي عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود المنقري عن حفص بن غياث قال قال ابو عبد اللَّه (عليه السلام) يا حفض! ما منزلة الدنيا من نفسي إلّا بمنزلة الميتة إذا اضطررت إليها أكلت منها، يا حفص إن اللَّه تبارك و تعالى علم ما العباد عاملون و إلى ما هم صائرون فحلم عنهم عند اعمالهم السيئة لعلمه السابق فيهم، فلا يغرنك حسن الطلب ممن لا يخاف الفوت ثم تلا قوله: تلك الدار الآخرة .. و جعل يبكي و يقول: ذهبت و اللَّه الأماني عند هذه الآية، قلت: جعلت فداك فما حد الزهد في الدنيا؟ فقال: قد حد اللَّه عز و جل في كتابه فقال: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ ..».

و

فيه عن كتاب سعد السعود و روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) انه قال: ان الرجل ليعجبه ...

(2) المصدر 144 سلام الأعرج عن امير المؤمنين علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 411

الدرب على من يريدون صالح الحكم بلا علو في الأرض:

فحينما تجتمع عليه الأمة الحائرة المظلومة- قاصرة و مقصرة- ليبايعوه‏

يقول: «دعوني و التمسوا غيري فإنا مستقبلون أمرا له وجوه و ألوان لا تقوم له القلوب و لا تثبت عليه العقول و إن الآفاق قد أغامت و المحجة قد تنكرت و اعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم و لم أصغ إلى قول القائل و عتب العاتب و إن تركتموني فأنا كأحدكم و لعلي أسمعكم و أطوعكم لمن وليتموه أمركم و أنا لكم وزيرا خير لكم مني أميرا» «1».

«و بسطتم يدي فكففتها و مددتموها فقبضتها ثم تداككتم علي تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى انقطعت النعل و سقط الرداء و وطي‏ء الضعيف و بلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير و هدج إليها الكبير و تحامل نحوها العليل و حسرت إليها الكعاب» «2».

«فأقبلتم إلي إقبال العوذ المطافيل على أولادها تقولون: البيعة البيعة، قبضت يدي فبسطتموها و نازعتكم يدي فجذبتموها» «3».

«فما راعني إلا انثيال الناس حولي كعرف الضبع ينثالون علي حتى لقد وطي‏ء الحسنان و شق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم» «4».

«إني إلى لقاء الله لمشتاق و إلى حسن ثوابه لمنتظر راج و لكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاءها و فجارها فيتخذوا مال الله دولا و عباده خولا و الصالحين حربا فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام و جلد حدا في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 88 ص 182 عبده.

(2) الخطبة 224 ص 249.

(3) الخطبة 133 ص 27.

(4) الخطبة الشقشقية 133: 27.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 412

الإسلام، و إن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ، فلولا ذلك ما أكثرت تأليبكم و تأنيبكم و جمعكم و تحريضكم و لتركتكم إذا أبيتم و ونيتم‏ «1»

: «اما و الذي فلق الحبة و برء النسمة لو لا حضور الحاضر و قيام الحجة بوجود الناصر و ما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم و لا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها و لسقيت كأس آخرها بكأس أولها و لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عطفة عنز» «2».

«فو الله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين و لم يكن جور إلا علي خاصة»! ...

«فقمت بالأمر حين فشلوا، و تطلعت حين تمنعوا، و مضيت بنور الله حين وقفوا، و كنت أخفضهم صوتا و أعلاهم فوتا، فطرت بعنانها، و استبددت برهانها، كالجبل لا تحركه العواصف و لا تزيله القواصف، لم يكن لأحد في مهمز، و لا لقائل في مغمز، الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، و القوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه، رضينا عن الله بقضائه و سلمنا لأمره» «3».

اجل و ان هؤلاء الطيبين لا يقوم في نفوسهم خاطر العلو في الأرض و الاستعلاء بأنفسهم لذوات أنفسهم، و لا يهجس في قلوبهم الاعتزاز باشخاصهم، فانما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور باللَّه و إعلاء كلمة اللَّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الكتاب 62 ص 131 عبده.

(2) تتمة من الخطبة الشقشقية.

(3) الخطبة 36 ص 84- أقول: راجع كتابنا علي و الحاكمون تجد فيه تفصيل البحث عن حق الحكم و الولاية الحقة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 413

«وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» و هي الحياة العاقبة لمسيرة الحياة و مصيرته لمختلف الأحياء، هنا في الرجعة و هناك في البرزخ و القيامة، و المتقون هنا هم الذين لا يريدون علوا في الأرض و لا فسادا، فضلا عن أن يحاولوا الاستعلاء، اللهم إلّا إعلاء لحكم السماء في أرض اللَّه.

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ‏ 84.

علّ «الحسنة» هنا هي الحياة الحسنة المحلّقة على العقيدة و النية و العمل، و السيئة خلافها، و «خَيْرٌ مِنْها» هي أضعافها بادءة من عشرة «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها ..» (6: 160) و هذه ضابطة ثابتة، و قد تزيد حسب مزيد الحسنة أثرا و كيانا كما في آيات، و لأن السيّئة لا يجازى بها صاحبها إلّا العملية، دون سوء النية «فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ».

فالحسنة المضاعفة الجزاء يعم الأعمال و النيات و الطويات، و السيئة المكافحة تخص الأعمال دون النيات، و أما العقائد السيئة فبارزة الأعمال فيها داخلة في الأعمال، و سيئه العقيدة دون عمل تشملها الآيات الواعدة سيئي العقائد النار، أم هي داخلة في‏ «عَمِلُوا السَّيِّئاتِ» شمولا لأعمال القلوب و القوالب، و ليست النية عملا، بل هي نية العمل، يثاب على حسنتها دون سيئتها، ثم‏ «إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ» حصر لجزاء السيآت على قدر الأعمال، فنفس العمل السي‏ء هو جزاءه إذ يبرز بحقيقته يوم تبلى السرائر، و ليس غير المحدود صورة واقعية للسيئة المحدودة إلّا مزيدا غير محدود و هو ظلم‏ «وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً»! ثم‏ «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ ..» تحدد موقف الحسنة و السيئة أنه حين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 414

المجي‏ء إلى عالم الجزاء، فالحسنة- إذا- هي عاقبة الحياة الحسنة، مهما كانت سابقتها أيضا حسنة أم سيئة.

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى‏ مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى‏ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ‏ 85.

«فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» هو الفرض الرسالي تلقيا لوحيه و تفهما له و تطبيقا بنفسه و تبليغا للمرسل إليهم، و قد ذكر من فرضه عليه تلاوته‏ «وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ ..» (27: 92) «وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ» (18: 27) «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ».

و لأن القرآن هو الوحي الأخير الشامل كافة المكلفين الى يوم الدين، ففرضه الرسالي البلاغي هو البلوغ إليهم أجمعين، و بأحرى منزل وحيه الأول أم القرى فانها عاصمة الدعوة القرآنية.

ثم‏ «لَرادُّكَ إِلى‏ مَعادٍ» و هذه آية منقطعة النظير في صيغة الفرض و الرد إلى معاد، مما يضخّم أبعاد رده (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الموعود إلى معاد، فما هو «معاد»؟

أ تراه معاد الآخرة إلى الجنة «1»؟ و لم يكن فيها حتى يرد إليها! و الصيغة الصالحة له «الجنة» دون «معاد» منكرا، و لا حتى «المعاد» معرفا، لأنها اليتيمة التي تحمل لفظ «معاد» دون سواها من كل آيات المعاد!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 140- اخرج الحاكم في التاريخ و الديلمي عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لرادك إلى معاد «قال: الجنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 415

أم هو الموت‏ «1»؟ و لم يك ميتا حتى يرد إلى الموت! و لا يخصه ذلك الرد الممنون فيه عليه! ثم و لا منة في الموت ما دامت الحياة الدنيا مدرسة الآخرة!.

ام هو الرجعة ايام المهدي القائم عجل اللَّه تعالى فرجه‏ «2»؟ و لا يناسب خصوصها المقام و لا الطمأنة الحاضرة لخاطره الخطير عن بأس المشركين! أم هو الرجوع إلى مكة المكرمة «3»، ردا إليها بعد هجرية؟ و السورة مكية و لما يهاجر النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى المدينة!.

«معاد» هنا كأصل في الموعود ردّه إليه هو في الحق مكة المكرمة، و قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر- اخرج عبد بن حميد و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري‏ «لَرادُّكَ إِلى‏ مَعادٍ» قال: الموت.

(2)

نور الثقلين 4: 144 عن تفسير القمي حدثني أبي عن حماد عن حريز عن أبي جعفر عليهما السلام قال: إنه سئل عن جابر فقال: رحم اللَّه جابرا بلغ من فقهه انه كان يعرف تأويل هذه الآية يعني الرجعة

و

فيه عنه حدثني أبي عن النضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن عبد الحميد الطائي عن أبي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليهما السلام في الآية قال: يرجع نبيكم (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أمير المؤمنين و الأئمة صلوات اللَّه عليهم.

(3)

الدر المنثور 5: 139- أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال‏ لما خرج النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من مكة فبلغ الحجفة اشتاق الى مكة فانزل اللَّه: ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد إلى مكة

و

فيه اخرج ابن مردويه عن علي بن الحسين بن وائد قال: كل القرآن مكي أو مدني غير قوله: ان الذي فرض ... فانها أنزلت على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قبل الهجرة فهي مكية نزلت بمكة أو بغيرها من البلدان، و كل آية نزلت بالمدينة بعد الهجرة فانها مدنية نزلت بالمدينة أو بغيرها من البلدان.

أقول: و قد أخرج إلى مكة في تفسير الى معاد عن ابن عباس و مجاهد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 416

نزلت الآية في غضون هجرته عنها إلى المدينة، بالغ الحجفة ام دونها ام و لمّا يخرج من الغار، إذ تكفي في نزولها حالة الهجرة، ثم و جو السورة المستعرضة قصص موسى و من أهمها رجوعه إلى «معاد» الدعوة الرسالية «مصر» يناسب وعد هذا الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) برده إلى معاد الدعوة الرسالية و هو مكة المكرمة، فكما خرج موسى من مصرها ربا مطاردا يترقب، كذلك الرسول محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)، و كما وعد موسى ان يرد إلى معاد الدعوة كذلك الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فامض يا رسول الهدى في مهجرك، و دع امر الحكم فيما بينك و بين قومك للَّه الذي فرض عليك القرآن، و انما سمي مكة معادا لأنه مكان العود، وعد محتوم في ذلك الرد لحدّ يسمى مكانه «معاد» كما و مكة معاد لكل مسلم على مدار الزمن، أخذا من رسالتها المحمدية و عودا إليها.

كما و هي معاد الحج و ميعاده.

«كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ» (8: 5) كذلك‏ «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى‏ مَعادٍ».

ذلك تفسير رده إلى معاد و من تأويله رده بعد موته إلى معاد الرجعة، فكما «معاد» الى مكة المكرمة كان له فتحا مبينا، كذلك معاد الرجعة حيث الدولة الأخيرة الإسلامية العالمية، و قد ردّ إليه معه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عترته المعصومون و سائر النبيين و كل من محض الايمان محضا، كما يرد اليه كل من محض الكفر محضا، و قد يعود في معاد رجعته إلى معاد هجرته فهما معا- إذا- مكان عوده قبل مماته و بعده، و قد يعني تنكير «معاد» جنسه الشامل لمعاد الدعوة و معاد الرجعة و معاد القيامة، و الرد إلى الأخير اعتبارا إلى لقاء اللَّه‏ «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» فلو عنى واحدة من هذه لعرّف: «المعاد».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 417

ف «قل» على أطلال تلك البشارة السارة بكل قوة و سداد، لهؤلاء الذين كفروا بك و انكروك و أخرجوك «ربي» الذي رباني لهذه الرسالة القرآنية المفروضة عليّ‏ «أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى‏» و ذلك لائح من التربية الرسالية الباهرة فيّ، و هو «أَعْلَمُ‏ ... مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» و قد يبين ذلك في «معاد» مكة و «معاد» الرجعة، ثم في «معاد» يوم القيامة!.

ذلك رجاءك بما نعدك غير مكذوب، كما و ألقينا إليك الكتاب و لم تك ترجوه:

وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى‏ إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ‏ 86.

«ما كُنْتَ تَرْجُوا» حيث المعدات- المتعوّدة العلمية لتلقّي ذلك العلم القمة- منفية، و مكة بلدة جاهلة قاحلة، و الفترة البعيدة الرسالية، و قومك اللّد ضد الرسالة، هذه و اضرابها مما تقطع الرجاء عن إلقاء ذلك الكتاب الكافل للدعوة العالمية في الطول التاريخي بالعرض الجغرافي.

و «أَنْ يُلْقى‏ إِلَيْكَ الْكِتابُ» دون ان ينزل، لمحة أخرى إلى عدم الرجاء، حيث الملقى إلى مكان قد تلغى فيه ظرفية المكان، و كل ذلك اليأس هو قضية الحالة الظاهرة، و لكنما الهالة الباطنة الزاهرة، كانت تتطلّب تلك الرسالة الباهرة، «ما كُنْتَ‏ .. إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» حيث رباك تربية خفية حفية لتلك الرسالة البهية، ليناسب منزل الوحي نازله، مهما لم يكن يرجوه صاحب المنزل.

و «إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» استثناء متصل إذ كانت رحمة ربه له مرجوة، عائشا بين‏ «ما كُنْتَ تَرْجُوا» كنفسه بظروفه آفاقية و انفسية مهما كان بالغ القمة المعرفية، و بين‏ «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» إشراقة رحيمية من ربه الذي رباه لهذه الكرامة الكبرى و الدرجة العليا، فجملة القول في هذه الآية هي الحالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 418

العوان لرسول الهدى بين الخوف و الرجاء! إذا فلم يكن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يتطلع إلى الرسالة، فانها اختيار اللَّه له كما لسائر الرسل، حيث المعرفة مهما كانت قمة لا تتطلب بمفردها الانتصاب للرسالة، فهي رحمة من اللَّه و «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» رحمة غالية عالية توهب للمتأهلين كما يعلم اللَّه و يختار، دون المتطلعين، و قد اختار للرسالة الأخيرة من لم يتطلّع إليها، بل و لم يرجها، أو لم ير نفسه مستأهلا لها تطامنا للَّه و اتكالا على رحمة اللَّه؟.

أو كان يرجوها «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» الذي رباك تربية تؤهلك لهذه الرسالة السامية، رجاء رحمة من ربك، و عدم الرجاء اعتبار بنفسك كأحد من الناس مهما كنت بالغ العقل و الزهادة!.

إذا «فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ» كما لم يكن و لن، و إنما ذلك النهي إعلان على رءوس الأشهاد في هذه الإذاعة القرآنية استئصالا لآمال الكافرين أن يظاهرهم أو يماريهم، بل هي مفاصلة دائبة، ام مواصلة بالحق المبين و الدين المتين، دون تقسيم للبلد بلدين، بانقسام الدعوة شطرين.

و هنا صلة وثيقة بين‏ «ما كُنْتَ تَرْجُوا ..» و بين‏ «لَرادُّكَ إِلى‏ مَعادٍ» ان عدم الرجاء في إلقاء الكتاب أولى من عدمه في رده إلى معاد، و هنا وعد دونما هناك فلترج ما وعدناك من ردك إلى معاد، اكثر مما لم نكن نعدك من إلقاء الكتاب، و لتعش رجاء رحمة من ربك دون تلكّع و لا تزعزع مهما عارضك العالمون، فموسى الذي قتل القبطي خطأ خلّف عليه تأخّر الرسالة و البعد عن معاد الدعوة، رددناه إليه رسولا، فأنت الذي ما أخطأت طول عمرك في أيّ من أمرك، اقرب إلى الرسالة إلقاء للكتاب عليك، و اقرب إلى ردك الى معاد الدعوة، و هذه نعمة لك عظيمة تتطلّب ألّا تكون ظهيرا للكافرين،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 419

و كما موسى‏ «رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ» (28: 17).

و هنا اللَّه بما أنعم على محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلقاء الكتاب و الردّ إلى معاد، يتطلب إليه ما تستحكم به عرى الدعوة الرسالية، لا جزاء فإنه غير مفتاق إلى جزاء، و إنّما تنمية للدعوة المحضرة للعالمين، فهنا نجده في خماسية الطلبات الربانية كدعامات خمس لهذه الدعوة الوامضة الناهضة الباهظة: هي سلبيات اربع بايجابية واحدة «ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ» حيث الدعوة الصالحة إلى الرب تتطلب هذه السلبيات قبلها لتستحكم عراها و تحمى حماها.

وَ لا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ 87 وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْ‏ءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ‏ 88.

مواصلة واحدة «وَ ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ» تتقوم بمفاصلات أربع، و هي تتوسطها هنا، و فاعل‏ «لا يَصُدُّنَّكَ» هو كونه- و عوذا باللَّه- ظهيرا للكافرين، كخلفيّة أولى لذلك الظهر الظهير، أن يصده عن آيات اللَّه، في اي حقل من حقولها، و التأكيد في‏ «لا يَصُدُّنَّكَ» يؤكد النهي عن كونه ظهيرا لهم، أن يتهاون في تلقي الوحي و إلقاءه، بإلغائه عن فاعلياته، ام يتهاوى بما يكذبونه فيه أنه سحر أو جنّة أم كهانة أما هيه؟.

ثم‏ «وَ ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ» امر بالمضيّ الصارم في دعوته الناصعة الناصحة، بعيدة عن كافة النزعات و الانتزاعات و الرغبات إلا إعلاء كلمة اللَّه العليا، و إلغاء كلمة الذين كفروا السفلى، ثم‏ «وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» باللَّه على أية حال، و إن شركا خفيا كدبيب النمل، فانه يقصم ظهر الداعية، و يفصمه عن صالح الدعوة.

«وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ» مهما كان مصلحيا لاجتذاب المشركين كما اقترحوه عليه: «أعبد آلهتنا سنة نعبد إلهك سنة» فنزلت سورة «الكافرون» ثورة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 420

قاصمة على ازدواجية الدعوة و مصلحيتها، «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» في كل شئون الألوهية، و:

«كُلُّ شَيْ‏ءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ..»: إذ «كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ. وَ يَبْقى‏ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ» (55: 27).

و الشي‏ء هو الكائن أيا كان، إلها و مألوها، إذا فاللَّه شي‏ء كما الخليقة كلها أشياء، و ان كان الشي‏ء اللَّه هو الذي شيّأ سائر الأشياء، و بين شي‏ء اللَّه و سائر الشي‏ء تباين كلي، لا مشاركة بينهما إلّا في لفظة الشي‏ء و أصل الوجود، دون أية مشاركة في ذلك الأصل، فالأشياء المخلوقة كلها خلو عن شي‏ء اللَّه ذاتا و صفات و أفعالا، كما اللَّه تعالى خلو عنها في مثلث الجهات، ف «هو خلو من خلقه و خلقه خلو منه»- «باين عن خلقه و خلقه باين منه»- «لا هو في خلقه و لا خلقه فيه» كما: لا هو من خلقه و لا خلقه منه:

مباعضة ذاتية أماهيه؟.

و ترى «وجهه» هنا تعني الجارحة؟ و هي تأويلة عليلة جارحة كيان الربوبية، انه يهلك- و عوذا به- بسائر اجزاءه كسائر الكون إلا وجهه! مهما أوّل انه وجه جارحي لا كسائر الوجوه، حيث الجارحة للَّه جارحة ألوهيته على كل الوجوه، إذ «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» فلا تركّب له حتى تكون له جوارح و سواها من اجزاء و حدود متركبة ف «من المحال ان يهلك منه كل شي‏ء و يبقى الوجه» «1»!، ل «وجهه» هنا وجهان ثانيهما وجه كل شي‏ء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 145 في كتاب الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه: و اما قوله‏ «كُلُّ شَيْ‏ءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» فالمراد كل شي‏ء هالك الا دينه، لأن من المحال ان يهلك منه كل شي‏ء و يبقى الوجه، هو اجل و أعظم من ذلك و انما يهلك من ليس منه الا ترى انه قال: كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى‏ وَجْهُ رَبِّكَ» ففصل بين خلقه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 421

المتجه إلى اللَّه، رجوعا لضمير الغائب إلى الحاضر الذكر و هو «كل شي‏ء» فالهلاك شامل كل شي‏ء، إلّا وجهه المواجه المتّجه إلى الرب، فإنه باق ببقاء اللَّه بإذنه و رحمته، كالربانيين من السابقين و المقربين و اصحاب اليمين، و الجنة بأهلها، فلا هلاك كلّيا لهم و لها «1».

ثم و في الوجه الأوّل لا وجه لوجه الجارحة، فان لكل شي‏ء وجها يناسبه، و هو في الكل ما يواجه به و يواجه، و اللَّه يواجه الكائنات علما و قدرة، و يواجه معرفيا و عبوديا، و الوجه الوجيه هنا لوجهه هو ذاته بصفاته ذاتية و فعلية، و الروحانيون الذين يواجهونه حياتهم معرفيا و عبوديا.

فاختصاص «وجهه» هنا بذاته يقتضي تبديل وجهه بذاته، فانها صريحة في ذاته، و وجهه غير صريح، كما اختصاصه بغير ذاته إدخال لها ضمن الهالكين، أن ذاته يهلك و سائر وجوهه تبقى!.

إذا ف «وجهه» تعم ذاته كقمة الوجوه، إلى متعلقاتها الربانية ذاتيا و خارجيا، و من الثاني دينه‏ «2» و الدعاة اليه، فإنهم وجه اللَّه الذي يتوجه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و وجهه،

و

فيه عن التوحيد عن أبي حمزة قال‏ قلت لأبي جعفر عليهما السلام قول اللَّه عز و جل: «كُلُّ شَيْ‏ءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ»؟ قال: يهلك كل شي‏ء و يبقى الوجه؟ إن اللَّه أعظم من ان يوصف بالوجه، و لكن معناه: كل شي‏ء هالك إلّا دينه و الوجه الذي يؤتى منه.

(1). راجع الى تفسير آية «وَ يَبْقى‏ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ» في الفرقان 27: 33 أ 37.

(2)

المصدر عن التوحيد باسناده الى خيثمة قال‏ سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن الآية قال: دينه، و كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أمير المؤمنين (عليه السلام) دين اللَّه و وجهه و عينه في عباده و لسانه الذي ينطق به و يده على خلقه و نحن وجه اللَّه الذي يؤتى منه و لن نزل في عباده ما دامت للَّه فيهم روية، قلت: و ما الروية؟ قال: الحاجة، فإذا لم يكن للَّه فيهم حاجة رفعنا اليه و صنع ما أحب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 422

بهم إليه، و كما

يروى‏ «نحن وجه الله الذي لا يهلك» «1»

و كما ان المتجهين الى اللَّه بهم، هم من وجهه‏ «2» و الإضافة في «وجهه» تختلف حسب مختلف مصاديق الوجه، ففي وجه الذات هي من إضافة الشي‏ء الى نفسه، و في وجه صفات الذات هي إضافتها إلى الذات، و في وجه الدعوة و الدعاة، هي اضافة الفعل الى مصدره، فإنهم صادرون عن اللَّه فموجّهون إلى اللَّه! فالمتخلفون عن اللَّه هم هالكون في حياتهم و بعد موتهم و إلى النار حيث تهلك و من فيها، و المتجهون إلى اللَّه باقون و ان ماتوا فإنهم في الجنة باقون كما هي دون نهاية.

هذه وجوه وجيهة من «وجهه» هنا مهما اختلفت درجاتها، فوجه الذات لن يتغير و لن يهلك بأي هلاك‏ «3» كما صفاته الذاتية، و صفاته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 146 عن كتاب التوحيد باسناده الى صفوان قال قال ابو عبد اللَّه (عليه السلام): ...

(2)

المصدر عن التوحيد باسناده الى الحارث بن المغيرة النصري قال: سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن قول اللَّه عز و جل: كل شي‏ء هالك إلا وجهه؟ قال: كل شي‏ء هالك إلا من أخذ طريق الحق،

و

في محاسن البرقي مثله و في آخره: من أخذ الطريق الذي أنتم عليه،

و

عن التوحيد باسناده إلى صفوان الجمال عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية قال: من أتى اللَّه بما امر به من طاعة محمد و الأئمة من بعده صلوات اللَّه عليهم فهو الوجه الذي لا يهلك ثم قرء: من يطع الرسول فقد أطاع اللَّه.

(3)

المصدر في اصول الكافي عن احمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن فضيل بن عثمان عن ابن أبي يعفور قال‏ سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن قول اللَّه عز و جل‏ «هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ ..» و قلت: اما الأول فقد عرفناه و اما الآخر فبين لنا تفسيره. فقال: إنه ليس شي‏ء إلّا يبيد أو يتغير أو يدخله الغير و الزوال و ينتقل من لون إلى لون و من هيئة إلى هيئة و من صفة الى صفة و من زيادة إلى نقصان و من نقصان إلى زيادة إلّا رب العالمين فانه لم يزل و لا يزال بحالة واحدة، هو الأول قبل كل شي‏ء و هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏22، ص: 423

الفعلية و هي أفعاله لن تهلك مهما تغيرت كما يشاء بحكمته، و دينه لا يهلك، مهما تبدلت شرائعه، و الدعاة اليه لن يهلكوا مهما ماتوا أو قتلوا.

و «هالك» لا تعني- فقط- مستقبل الهلاك حين تهلك النار بمن فيها، بل و الحال على أية حال، و هو عبارة اخرى عن البطلان، فهو هلاك الكون و الكيان، و لكن «وجهه» لا هلاك له كونا و لا كيانا، مهما طرءه موت أو تغيّر آخر في غير وجه الذات و الصفات.

ثم «له الحكم» تكوينا و تشريعا لا سواه‏ «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» لا إلى سواه.

و المرجع للضمير الأوّل هو وجه الذات أصليا، و وجوه الدعاة إليه رساليا و بلاغيا، فإنهم الحكام من قبل اللَّه، و اما الثاني فلا مرجع له إلّا الذات، إذ لا رجوع إلّا إلى اللَّه، اللهم إلّا للدعات المعصومين ايضا لأنهم موازين الأعمال‏ «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ» (17: 71)، فهنالك رجوع إلى كتب الشرعة و أئمتها كموازين للأعمال و العقائد، و المرجع الأصيل هو اللَّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الآخر على ما لم يزل و لا تختلف عليه الصفات و الأسماء كما تختلف على غيره مثل الإنسان الذي يكون ترابا مرة و مرة لحما و دما و مرة رفاتا و رميما، و كالبسر الذي يكون مرة بلحا و مرة بسرا و مرة رطبا و مرة تمرا فتتبدل عليه الأسماء و الصفات و اللَّه عز و جل بخلاف ذلك.